

الإسلام  
والدكتور محمد الحليم محمد



# لطائف المنن

للعارف بالله : ابن عطاء الله السكندري





الإمام  
الدكتور عبد الحليم محمود

# لَطَائِفُ الْمَنَنِ

تأليف  
العَارِفُ بِاللَّهِ : ابنُ عطاءِ اللهِ الشَّكَنْدَرِي

الطبعة الثانية







## الاهـداء

إلى الأخ القاضل:

الأستاذ عبد الحليم مجاهد - الذي كرم «ابن  
عطاء الله السكندري» فشيّد على ضريحه المبارك قبّة  
تتناسب مع مكانة صاحبه، وأقام عنده مسجدًا لطيفًا  
تشرق على الداخل فيه أنوار الولاية، وأضواء الهداية.

جزى الله الأخ القاضل أجزل الثواب، ومنحه خير ما  
يمنح العاملين للخير ابتغاء وجهه سبحانه.

عبد الحليم محمود



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾



## مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين. وبعد:

فإن آثار الهداة المهديين الذين رسموا الطريق عن خيرة، ودعوا إليه على بصيرة، كثيرة، ومن أنقشها كتاب «لطائف المتن». ألفه الإمام الجليل ابن عطاء الله السكندري، الذي جمع بين رئاسة علوم الشريعة وعلو الشريعة ورئاسة علوم الحقيقة وعلو الحقيقة فكان منشراً متحققاً، بل رأس علماء التشريع وعلو التحقيق.

ويقول الإمام أحمد زروق رضى الله عنه:

هو الشيخ الإمام العالم العامل العارف بالله المحقق الكامل أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أحمد بن محمد بن عبيد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله، الجذامى نسباً، المالكي مذهباً، الإسكندري داراً، القاهري مزأراً، توفي بالقاهرة سنة سبعمائة وتسع في جمادى الآخرة، وكان أعجوبة زمانه في التصوف وغيره كما قيل: حلف الزمان ليأبين بمثله حينئذ بمينك يا زمان فكفى

ويذكر الشيخ زروق من تأليفه:

«التنوير في إسقاط التدبير» و«لطائف المتن» و«تاج العروس» و«مفتاح الفلاح» و«القول المجرد في الاسم المفرد».

أخذ العهد على الإمام الكبير أبي العباس المرسى، الذي قال عنه القطب الشاذلي: «إنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض».

وقال فيه:

هذا أبو العباس منذ أن عرف الله لم يحجب عنه، ولو طلب الحجاب لم يجده!!  
ويقص ابن عطاء الله في كتابه اللطيف الشائق: «لطائف المتن» قصة صلته بأبي العباس فيقول:

«كنت لأخبره (أى لأمر الشيخ أبي العباس) من المنكرين وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه ولا لشيء صح نقله عنه، ولكن جرت المخاصمة بيني وبين أصحابه فقلت فيهم قولاً عظيماً، ثم قلت في نفسي: دعني أذهب أنظر هذا الرجل، فصاحب الحق له أمارات. لا يخفى شأنه، فأنتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس، ومسألة درجات السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به، وقرتهم منه فقال:

الأول إسلام: وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام براسم الشريعة.

وثانيها الإيمان: وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية.

وثالثها الإحسان: وهو مقام شهود الحق تعالى في القلب.

وإن شئت قلت: الأول عبادة، والثاني عبودية، والثالث عبودة.

وإن شئت قلت: الأول شريعة، والثاني حقيقة، والثالث تحقق.

فما زال يقول: وإن شئت قلت، وإن شئت قلت، إلى أن بهر عقل وسلب لب، فعلمت أن الرجل يغترف من فيض بحر إلهي ومدد رباني: فأذهب الله ما كان عندي، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد في شئنا يقبل الاجتماع بالأهل على عادي. ووجدت معنى غريباً لا أدري ما هو، فأنفردت في مكان أنظر إلى السماء وكواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فلبس قلبي أشياء لم أعرفها من قبل، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى فأتيت إليه، فاستؤذن لي عليه، فلما دخلت إليه قام قائماً وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً، واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك، فكان أول ما قلت له: يا سيدي أنا والله أحبك. فقال: أحبك الله كما أحببتني، ثم شكوت له ما أجده من هوم وأحزان، فقال:

أحوال العبد أربع لا خامسة لها: النعمة والبليّة، والطاعة والمعصية، فإن كنت في النعمة فمقتضى الحق منك الشكر. وإن كنت في البليّة فمقتضى الحق منك الصبر. وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهوديته عليك، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار، فمقتضى من عنده وكأنا كانت الهوم ثوباً نزعته، ثم سألتني بعد ذلك بمدة، كيف حالك؟ فقلت: أفتش عن الهوم فما أجده، فقال:

ليلى بسوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري  
والناس في سُدف السظلا م ونحن في ضوء النهار

الزم، فوالله لئن لزمته لتكون مفتياً في المذهبين؛ في علوم الظاهر وحقائق الباطن.

وعن هذه الملازمة يروي ابن عطاء الله القصة التالية، قال:

خرجت يوماً من عند الفقيه مكين الدين الأسر رضى الله عنه، وخرج معي أبو الحسن الجزيري، وكان من أصحاب الشيخ أبي الحسن، فسلمت عليه، فسلم عليّ ببشاشة وإقبال، فقلت له: من أين تعرفني؟

فقال: كيف لا أعرفك؟ كنت يوماً جالساً عند الشيخ أبي العباس وكنت أنت عنده، فلما نزلت قلت له: يا سيدي إنه يصيبي هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة وهذا الشاب ملازم، قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن، لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله فكان كما قال الشيخ والله الحمد.

أخذ ابن عطاء الله العهد على أبي العباس، ولأزمه، وكانت بينه وبينه أمور توضّح شيئاً من صلتهما وتلقى بعض الأضواء على سيرته، منها مثلاً ما يدل على أن جدّ ابن عطاء الله كان فقيهاً معارضاً للترعة الصوفية.

جاء في لطائف المتن: وأخبرني بعض أصحابه قال: قال الشيخ (أبو العباس) يوماً: «إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية فأعلموني به، فلما أتيت أعلمنا الشيخ بكه فقال: تقدم، فتقدمت بين يديه، ثم قال:

جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذبت قريش، فقال له جبريل (عليه السلام): هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك في قريش، فسلم عليه ملك الجبال، وقال: يا محمد إن شئت أطبق عليهم الأخشبين فقلت، فقال رسول الله ﷺ:

لا ولكن أرجو أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله ولا يشرك به شيئاً.

فصبر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاءً من يخرج من أصلابهم، كذلك صبرنا على جد هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه» اهـ.

ولكن الأمور في الاطمئنان إلى المسلك الصوفي، لم تكن تسير في كل ظروفها رخاء؛ فإن ابن عطاء الله كان طالباً محباً للعلم مشغوفاً بقراءة الكتب، وبينما هو مندمج في الجو الطلاني إذا بالطلبة يتحدثون عن العلم الظاهر والتصوف، ويروى هو القصة كما يلي:

وكننت أنا سمعت الطلبة يقولون: من يصحب المشايخ لا يجيء منه في العلم الظاهر شيء، فشق عليّ أن يفوتني العلم، وشقّ عليّ أن تفوتني صحبة الشيخ رضي الله عنه، فأتيت إلى الشيخ فوجدته يأكل لحماً يخل، فقلت في نفسي: ليت الشيخ يطعمني لقمعة من يده، فما استتمت الحاضر إلا وقد دفع في فمي لقمعة في يده، ثم قال: نحن إذا صبحنا تاجر ما نقول له: اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له: اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له: اترك طلبك وتعال، ولكن نقرّ كلّ أحد قياً أقامه الله فيه، وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه. وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ، فما قال لتاجر: اترك تجارتك، ولا لذي صنعة اترك صنعتك، بل أقرهم على أسبابهم، وأمرهم بتقوى الله فيها.

ولكن يبدو أن ابن عطاء الله حينئذ اندمج في جو الأستاذ ولازمه حاول محاولة رده الأستاذ عنها، يقول ابن عطاء الله:

ودخلت أنا عليه يوماً وفي نفسي ترك الأسباب، والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر، قائلاً: إن الوصول إلى الله لا يكون إلا على هذه الحالة، فقال من غير أن أبدى له شيئاً:

صحبني بقوص إنسان يقال له: ابن ناشيء وكان مدرساً بها ونائب الحاكم، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا، فقال: يا سيدي أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك واصل. ثم قال: وهذا شأن الصديقين لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى إخراجهم. فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي وكأنما كانت ثوباً نزعته ورضيت عن الله فيما أقامني فيه.

ولقد قدر الإمام أبو العباس تلميذه النابه، وتبني قيادته إلى المكانة الجدير بها، ويشير إلى ذلك

القصتان التالفتان، يقول ابن عطاء الله:

«وكنيت قلت لبعض أصحاب الشيخ: أريد لو نظر إلى الشيخ بعناية، وجعلني في خاطره، فقال ذلك للشيخ، فلما دخلت على الشيخ رضى الله عنه قال:

لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا في خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ في خاطركم، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم تكونون عنده.

ثم قال: أى شيء تريد أن تكون؟ والله ليكونن لك شأن، والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك كذا، والله ليكونن لك كذا، لم أثبت منه إلا قوله: ليكونن لك شأن عظيم، فكان من فضل الله سبحانه ما لا تنكره».

ويقول: وأخبرني سيدى جمال الدين، ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ: هم يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله في الفقه، فقال الشيخ:

هم يصدرونه في الفقه، وأنا أصدره في التصوف. ودخلت أنا عليه فقال لى:

إذا عوفي الفقيه ناصر الدين يجلسك في موضع جدك، ويجلس الفقيه من ناحية، وأنا من ناحية، وتكلم إن شاء الله في العليل، فكان ما أخبر به رضى الله عنه.

وابن عطاء الله هو الذى كان له الفضل الكبير في بيان كثير مما يعرفه الآن من آثار أبي العباس المرسى.

وفي بيان الكثير أيضاً مما نعرفه عن القطب الكبير الحجة أبي الحسن الشاذلى رضى الله عنه. وابن عطاء الله هو الذى جتد قلبه للدعوة إلى طريق الله فكتب هذه الدرر التى تركها مصابيح وأنجها تهدى السائرين إلى الله تعالى.

\*\*\*

والكتاب الذى تقدمه الآن كتاب مبارك، إذ إنه يتحدث عن شخصيتين هما في القمة من السمو الروحى: إنه يتحدث عن الإمام الكبير أبي الحسن الشاذلى رضى الله عنه، وعن الإمام الكبير أبي العباس المرسى رضى الله عنه.

وما كان الوصول إلى القمة في السمو الروحى - في يوم من الأيام - سهلاً ميسوراً. كلاً، وإنما له ثمنه الباهظ من مجاهدة النفس، ومن قيام الليل، وصيام النهار، والعمل في كل لحظة لمرضاة الله سبحانه.

ولقد كافح كل منهما في سبيل الله طيلة حياته.

أما أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فقد بدأ حياته بأمرين لا بدّ منها لكل من يريد سلوك طريق الله وهما:

١ - العلم.

٢ - العبادة.



أما العلم فلائنه لابد من التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلا لما أفلح السالك أبداً.  
والتأسي برسول الله ﷺ لابد له من دراسة السيرة دراسة متمعة.  
ودراسة السيرة النبوية دراسة متأملة.

ورسول الله ﷺ كان شعاره، وكان طابعه، وكان أساسه، وكانت وجهته: كتاب الله سبحانه، ومن  
هنا كان لابد للقرب من الله تعالى من اتخاذ القرآن شعاراً وطابعاً وأساساً ووجهة.  
وقد درس كل ذلك أبو الحسن الشاذلي أحسن وأجمل ما تكون الدراسة فكان عالماً بمة في  
العلم.

وكانت له كتب مفضلة يداوم على دراستها لتلاميذه ومريديه ومن هذه الكتب:

١ - كتاب «إحياء علوم الدين» وهو كتاب ألفه الإمام الغزالي في فترة خلوته وفي أيام عبادته  
وقربه من الله تعالى، إنه ثمرة من ثمار القرب، وهو من خير ما يتخذ الإنسان من الذخائر. ويقول  
عنه الإمام النووي:

«كاد الإحياء يكون قرآناً».

وذلك أنه يستمد من القرآن. والإمام النووي حجة في السيرة وحجة في الفقه وكلمته لها وزنها  
الكبير. كان أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه يقرأ هذا الكتاب ويدرسه لتلاميذه.

٢ - كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي وهو كتاب ينص الإمام الغزالي على أنه من  
الكتب التي قرأها وهو يصدد السلوك الصوفي، ويقول عنه أبو الحسن: القوت: قوت.  
ويقول عنه: القوت يفيد النور، كان أبو الحسن يقرؤه ويُدْرُسُه.

٣ - كتاب «الرسالة القشيرية» وهو الكتاب الذي يعتبر دستور الصوفية، وقد ألفه الإمام  
القشيري: لا تهدف المعرفة فحسب، وإنما ليكون مبرأناً للصوفية ومقياساً لأعمالهم ويقول في ذلك:  
«(١) ثم اعلّموا ربحكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقضت أكثرهم، ولم يبق في زماننا هذا  
من هذه الطائفة إلا أثرهم كما قيل:

أما الخيام فسينا كخيّامهم وأرى نساء الحق غير نساها

حصلت الفترة (٢) في هذه الطريقة. لا بل اندرست (٣) الطريقة بالحقيقة، مضى الشيوخ الذين  
كان بهم الاقتداء، وقُلّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وستتهم اقتداء، وزال الورع وطوي بساطه.  
واشتد الطمع وقوى رياحه.

وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعُدوا قلة المبالاة بالدين وأثرت ذريعة. ورفضت التمييز بين  
الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا

(٣) اندرست: زالت وبهت.

(١) ص ٢٧ من الرسالة القشيرية.

(٢) الفترة: التراخي والتفريط.

بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق<sup>(٤)</sup> بما يأخذونه من السوق والنسوان وأصحاب السلطان.

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وأدعوا أنهم تحرروا عن رِقِّ الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق، تجري عليهم أحكامهم، وهم بحسب وليس لله عليهم فيها يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كُوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فتاتهم عنهم بأنوار الصدية، والمقائيل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرّفوا.

ولما طال الابتلاء فيها نحن فيه من الزمان بما لوحت ببعضه من هذه القصة وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار، غيرة على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء، أو يجد مخالف للثبهم مساعداً، إذ اليلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة.

ولما كنت أوّل من مادة هذه الفترة أن تنحيم ولعل الله سبحانه يجرد بطلفه في التنبيه لمن حاد عن السنة المثل في تضيع آداب هذه الطريقة.

ولما أرى الوقت إلا استصعاباً، وأرى أكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تقادياً فيما اعتادوه واغتراراً بما ارتادوه..

أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر - على هذه الجملة<sup>(٥)</sup> - يفي قواعده وعلى هذا النحو سار سلفه:

فعلقت هذه الرسالة إليكم، أكرمكم الله. وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقيهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية ترقّيتهم من بدايتهم إلى نهايتهم، لتكون ليرى هذه الطريقة قوة، ومنكم لي بتصحيحها شهادة، ولي في نشر هذه الشكوى سلوة، ومن الله الكريم فضلاً ومثوبة. وأستعين بالله سبحانه فيها أذكره وأستكفيه، وأستعصمه من الخطأ فيه، وأستغفره وأستغفله<sup>(٦)</sup>، وهو بالفضل جدير وعلى ما يشاء قدير» اهـ.

وهذه الرسالة كتاب موفق كل التوفيق، قسمه مؤلفه إلى أربعة أقسام معرفتها ضرورية لكل سالك.

القسم الأول: قسم العقائد، ذكر فيه للمؤلف عقائد الصوفية من أقوالهم وبين بما لا يُبسّ فيه أنها هي نفس عقائد أهل السنة.

والقسم الثاني: ذكر فيه تراجم كبيرة من أعلام التصوف حتى يكونوا مثلاً يحتذى السائررون إلى الله.

والقسم الثالث: تحدث فيه عن مصطلحات الصوفية، وللتصوف مصطلحاته الخاصة به كما أن لكل فن مصطلحاته. والواقع أن عدم فهم بعض الناس لمصطلحات الصوفية هو الذي يوقعهم في

(٦) أطلب القدر ردة عن الخطأ.

(٤) الانتفاع.

(٥) جملة مزاعمهم وأدعائهم.

عدم فهم التصوف، ولو فهمت هذه المصطلحات من أمثال: الزهد والتوكل والفتناء والحقيقة والشرعية وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.. إلخ. أقول: لو فهمت هذه المصطلحات ونحوها على حقيقتها لما كان هناك سوء فهم للتصوف، وهذا القسم من أهم الأقسام.

أما القسم الرابع: فإنه في بيان المقامات التي يتدرج الإنسان فيها من مقام روحى إلى مقام أسمى حتى يصل إلى أسمى المقامات الروحية.

ثم يكون الحديث عن الشيخ وسماته وعن المريد وآدابه.

كان أبو الحسن يقرأ هذا الكتاب ويدرسه.

وهذا الكتاب هو الذى كان يقرؤه مع كبار العلماء في أثناء الليالي التي دارت فيها معركة المنصورة الشهيرة. وذلك حينما كانوا يفرغون من أمور الجيش والحرب، ويأوون إلى خيمة من خيام الجيش: يصلون ويدعون ويبتهون إلى الله داعين بالنصر، ثم يتحدثون في العلم ويقرأون الرسالة الشبيرة.

٤ - وكان أبو الحسن رضي الله عنه يقرأ لتلاميذه كتاب «الشفاء» للقاضي عياض في السيرة النبوية وهو من أحسن ما كتب فيها.

٥ - وكان يدرس لمريديه كتاب «ختم الأولياء» وهو من الكتب التي أثارت ثورة في الفكر الإسلامى وفي الجو الروحى وقد طبع في لبنان للمرة الثانية.

٦ - أما في التفسير فكان الإمام يدرس لمريديه كتاب «المحرر الوجيز» وهو كتاب أقر بفضل، القدماء والمتأخرون، وقد أعيد للطبع من عدة جهات، ونرجو الله سبحانه أن ييسر طبعه.

٧ - وكان الشيخ رضي الله عنه يدرس للمتعمقين المتخصصين كتاب «المواقف» وهو من الكتب التي تحتاج إلى استعداد خاص.

وكان يدرس غير ذلك، وما أردنا الاستقصاء وإنما أردنا أن نبين أن التصوف الصادق يُعنى بالجانب العلمى عناية كريمة، ويعنى بصقوة من الكتب التي تسير على النسق السلفى الكريم. وثقّد سار أبو العباس على نسق أستاذه، وكانت هذه الكتب وغيرها مما يدرس لمريديه يقول ابن عطاء الله:

وكان كتابه في أصول الدين: «الإرشاد».

وفي الحديث كتاب «المصابيح».

وفي الفقه كتاب «التهذيب» و«الرسالة».

وفي التفسير كتاب «ابن عطية».

أما فيما يتعلق بالصلة التي بين أبي الحسن وأبي العباس رضي الله عنهما فتصوّرها خير تصوير لرؤيا الآتية:

يقول ابن عطاء الله: أخبرني بعض أصحابنا قال:

رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء، وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلي ينزل من السماء والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله متأهب له. فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبتت رجله في الأرض وتبها لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه ودخل من رأسه حتى غاب فيه، واستيقظت.

في هذه الرؤيا أمور:

١ - أبو الحسن ينزل من السماء.

٢ - عليه ثياب بيض.

٣ - أبو العباس يتبها لاستقباله، ويثبت رجله في الأرض.

٤ - يدخل أبو الحسن من رأسه ويغيب فيه.

ومعنى الرؤيا أن أبا الحسن وأبا العباس امتزجا حتى أصبحا كائنا واحداً أى أن أبا العباس استمرار لأبي الحسن.

وهذه رؤيا معبرة كل التعبير عن الواقع. وكل ما يقال عن أبي الحسن من آراء يمكنك أن تقول في يقين: إن أبا العباس لا يخالفه والعكس صادق.

عن هذين الإمامين كان كتاب لطائف المتن.

\*\*\*

وعهدى بكتاب «لطائف المتن» عهد قديم: فقد قرأته قراءة متأنية حينما شرعت في الإعداد للكتابة عن الإمام أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه، ثم قرأته مرة ثانية حينما شرعت في الإعداد للكتابة عن الإمام أبي العباس المرسى، رضى الله عنه ورجعت إليه أكثر من مرة بعد ذلك لظروف ومناسبات عدة منها مثلاً: حينما كتبت كلمات عن الإمام المؤلف للكتاب: ابن عطاء الله السكندري (رضى الله عنه) عند نشر شرح الحكم للإمام ابن غياد، وعند نشر شرح الحكم للإمام أحمد زروق. وفي كل مرة قرأته أو رجعت إليه كنت أتمنى لو خرج هذا الكتاب إلى الناس في طبعة مبسرة: تحقيقاً وتعليقاً.

والأمور مرهونة بأوقاتها ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾.

وتحضى السنون والكتاب دائماً في متناول يدي أقلم صفحاته الغنية بعد الغيبة، ثم أضعه في مكانه حتى شاء الله سبحانه أن يكون ظهور الكتاب عند افتتاح مسجد ابن عطاء الله السكندري.

لقد كان ضريح ابن عطاء الله السكندري على صورة لا تتناسب مع مكانته، وكان الزائر له لا يكاد يبتدى إلى مكانه، واستمر ذلك قروناً إلى أن وجه الله سبحانه الرجل الصالح عبد الحليم مجاهد - الذي يحيط به الخير أينما سار، ويفيض عنه سهلاً مبسراً - إلى بناء مسجد يتناسب ومكانة ابن عطاء الله السكندري، وبني المسجد مباركاً مشرقاً، وألج ذلك صدور الصالحين عموماً والشاذلية

خصوصاً، فجزى الله الأخ عبد الحلیم مجاهد غير الجزاء، وأثابه على ما قدم أجزل الثواب، ووفقه الله دائماً لصالح الأعمال.

\*\*\*

وإننا حين نقدم هذا الكتاب فإنما نقدم كتاباً من النوع النفيس الذي يقرؤه القارىء فينعم بأسلوب جميل، ويستفيد علمياً نافعاً، وهكذا كتب ابن عطاء الله السكندري: إنها في أساليبها تتسم بالفصاحة، وفي معانيها تتسم بالنفاسة، وهي بأسلوبها ومعانيها تنبثق عنها روحانية هي سمة مؤلفات أولياء الله، وإذا كان أولياء الله هم الذين إذا رؤوا ذكر الله: فإن مؤلفاتهم حينها تقرأ فإنها تهدي إلى الله وتقود إليه سبحانه، ولقد قال أبو الحسن الشاذلي رضوان الله عليه: كتاب الإحياء يفيد العلم، وكتاب قوت القلوب يفيد النور، وكلاهما يفيدان العلم والنور، وكذلك الأمر في كتب ابن عطاء الله: إنها تفيد العلم والنور، وتفيد لغة تدقيق الأسلوب الجميل. وإذا كان أسلوب ابن عطاء الله قد بلغ القمة في كتابه الحكيم حتى ليقول الشيخ محمد عبده:

«كاد كتاب الحكم يكون هراًناً».

فإن أسلوبه في بنية كتبه هو من الأساليب الممتازة في البلاغة: كلامه جواهر، وجواهره لآلئ ولآلئه ماس، وماسه من النوع التادر.

ولقد بلغ ابن عطاء الله القمة: أسلوباً ومعنى في مناجاته التي يقرؤها الصالحون قبيل الفجر فيجدون ثمرتها إشرافاً في صدورهم ونوراً في قلوبهم.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الكتابة عن ابن عطاء الله أن نتوَّج كلمتنا عنه بهذه المناجاة الممتعة الرائعة:

## مناجاة

إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى؟  
إلهى أنا الجهول فى علمى فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى؟  
إلهى إن اختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك: متعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك فى بلاء.

إلهى متى ما يلقى بلوى ومنك ما يلقى بكرمك.  
إلهى وصفت نفسك اللطف والرافة فى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منها بعد وجود ضعفى؟  
إلهى إن ظهرت المحاسن منى فيفضلك ولك المنة على، وإن ظهرت المساوئ منى فبعدك ولك الحجة على.

إلهى كيف تكفى إلى نفسى وقد توكلت فى؟ وكيف أضام وأنت النصير فى؟ أم كيف أخيب وأنت الحفيى فى؟ ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تحفى عليك؟ أم كيف أترجم لك بقالى وهو منك برز إليك؟ أم كيف تخيب آمالى وهى قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت، وإليك؟

إلهى ما أظفك فى مع عظيم جهلى، وما أرحك فى مع قبيح فعلى؟  
إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك؟  
إلهى ما أراؤك فى فما الذى يحجبني عنك؟  
إلهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرف إلى فى كل شىء حتى لا أجهلك فى شىء.

إلهى كلما أخرسنى لؤمى أنطقنى كرمك، وكلما أياستنى أوصافى أطمعنى بمنك.  
إلهى من كانت محاسنه مساوئى فكيف لا تكون مساوئه مساوئى؟ ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى؟

إلهى حكمك النافذ ومشبثك القاهرة لم يشركا لذى مقال مقالاً ولا لذى حال حالاً.  
إلهى كم من طاعة بَيَّتَتْها وحالة شَيَّدَتْها هدم اعتمادى عليها عدلك، بل أقالنى منها فضلك.  
إلهى إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة منى فعلاً جزماً فقد دامت محبة وعزماً.  
إلهى كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الأمر.

إلهى ترددى إليك فى الآثار يوجب بعد المزار فاجعنى عليك بخدمة توصلى إليك.  
إلهى كيف يُستدل عليك بما هو فى وجوده مفتق إليك؟ أأكون لغيرك من الظهور ما ليس لك

حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ متى بعدت حتى تكون الأثار هي التي توصل إليك.

إلهي غيبت عين لا تراك عليها قريباً رقيباً وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبله نصيباً؟  
إلهي أمرت بالرجوع إلى الأثار فأرجعني إليها يكسوة الأثار وهداية الاستبصار: حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها، إنك على كل شيء قدير.

إلهي هذا ذلّي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك؛ وبك أستدل عليك؛ فاهدني ينورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

إلهي علمني من علمك المخزون وصني بسر اسمك المصون.

إلهي حقق بحقائق أهل القرب، واسلك في مسالك أهل الجذب.

إلهي اغثنني بتدبيرك عن تدبيرى وباختيارك لي عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري.  
إلهي أخرجني من ذلّ نفسي، وطهرني من شكّي وشركي قبل حلول رمسي، بك أستنصر..  
فأنصرق، وعليك أتوكل فلا تكني، ولجنايك أنتسب فلا تبعدي، وبهايك أقف فلا تطردني، وإياك أسأل فلا تخيبي، وفي فضلك أرغب فلا تحرمي.

إلهي تقدّس رضاك أن تكون له علة منك فكيف تكون له علة متى؟ أنت الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنياً عني؟

إلهي إن القضاء والقدر غلبي، وإن الهوى يوثاق الشهوة أسرني، فكأن أنت النصير لي حتى تنصرن في نفسي وتنصري، وأغنني بجودك حتى أستغني بك عن طلبي، أنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا إلى غيرك أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حتى استبان لهم المعالم، ماذا وجَدَ من فقدك، وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلاً، ولقد خسر من بهى عنك جِوْلاً.

إلهي كيف مرّجى سواك وأنت الذي ما قطعت الإحسان؟ وكيف يُطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟ يا من أدّاق أحبائه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين، وبامن أليس أوليائه ملايس هيبته فقاموا بعزته مستعزّين، أنت الذاكر من قبل ذكر الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين وأنت الجواد بالعطايا من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت رثماً وهبتنا من المستقرضين.

إلهي اطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بنبئتك حتى أقبل عليك.

إلهي إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك كما أن خوفي لا يزيلني وإن أظعتك.

إلهي قد دفعتني العوالم إليك وقد أوقفني علمي بكرمك عليك.

إلهي كيف أخيب وأنت أمل؟ أم كيف أهان وعليك متكلي؟

إلهي كيف أستعزّ وفي الدلالة أركزني؟ أم كيف لا أستعز وإليك نسيقي؟  
 إلهي كيف لا أفترق وأنت الذي في الفقر أفتقني؟ أم كيف أفترق وأنت الذي بجودك  
 أنت الذي لا إله غيرك تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء. وتعرفت إلى في كل شيء  
 ظاهراً في كل شيء. فأنت الظاهر لكل شيء. يامن استوى برحمانيته على عرشه فصار  
 في رحانيته كما صارت العوالم غيباً في عرشه، محقّت الآثار بالآثار، ومحوّت الأغيار بمحييه  
 الأنوار، يامن احتجب في سرادقات عزّه عن أن تدركه الأبصار، يامن تجلّى بكمال بهاء  
 عظمتّه الأسرار: كيف تخفى وأنت الظاهر؟ أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟  
 وبعد: فلقد لازم ابن عطاء الله أستاذنا أبا العباس رضى الله عنهما، ثم كان من  
 الطريقة الشاذلية إلى أن تولى في جمادى الآخرة سنة ٧٠٩.  
 وأما بعد: فالله أرجو أن يهدي لهذا الكتاب وأن يهدي به إنه سميع قريب مجيب. وصلّى  
 سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.



## كِتَاب لطائف المتن

في مناقب علم المهتدين، وقدوة السالكين، سيدى أبى  
العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى وشيخه قطب  
الأقطاب، ودستور عوارف المعارف بلا اوتياب سيدى أبى  
الحسن الشاذلى.

## تأليف

شيخ الحقيقة، وإمام الطريقة، الشيخ الإمام تاج الدين أبى الفضل أحمد ابن الشيخ  
الهام فخر الدين أبى بكر محمد ابن الشيخ الإمام العلامة رشيد الدين أبى محمد  
عبد الكريم بن عطاء الله رضى الله عنهم أجمعين، ونفعنا بهم آمين.



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

الحمد لله الذى فتح لأوليائه<sup>(١)</sup> باب محبته، وأنشط نفوسهم من عقاب القطيعة<sup>(٢)</sup>، فقاموا

(١) إن من الأهلية مكان - في ابتداء هذا الكتاب المبارك - أن نتحدث عن الولاية، وذلك أن المؤلف رضى الله عنه يتحدث عن الولاية نظرياً بكلام غاية في النفاة، ويذكر كرامات وقعت بالفعل لكثير من الأولياء، وليس لأحد أن يتدع نعيمها للولاية بعد تعبد الله سبحانه وتعالى لها، إنه سبحانه وتعالى يقول عن الأولياء: إنهم: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ولقد أبان الله سبحانه وتعالى رعايته لهم، وعنايته بهم، فقال سبحانه:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وزاد سبحانه وتعالى تفضلاً بالنسبة لهم فقال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

ثم أكد سبحانه ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾.

ثم بين نفاة الثمار التي تجني من الولاية فقال: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس: الآيات ٦٢-٦٤).

وإن كل حديث عن الولاية إنما هو تفسير لهذه الآيات الكريمة، ومن ذلك الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى قال:

«ومن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استأذنني لأعطيته» يعني آذنته بالحرب، (أعطيت بأني محارب له) ومن ذلك ما يقوله صاحب كتاب: (أنس الفتنة) - تنقله هنا: لأنه يميز تمييزاً كاملاً عن وجهة نظرنا في هذا الموضوع - يقول: (فأما صفة الولي، فقد دل - رسول الله ﷺ - على صفة الأولياء فقال:

«الذين إذا رُؤوا ذكر الله عز وجل» (سنن ابن ماجه والمجليه ٦١).

وفي هذا الحديث الشريف من الدلالة عليهم كفاية تامة، فأولياء الله تعالى: «الذين إذا رآهم المؤمن عظم ربه، وذكر ذنبه، ويقول:

«واعلم أن من امتثل أوامر الله تعالى، واجتنب نواهيه، وورق الخوف من الله تعالى، لا من خلقه، واجتهد في طاعته - جل وعلا - وبحث عن أمر كسبه، ووقف عندما حدّ له، ورجع عن كل ما لا يعلم حكمه: فهو الصالح.

وأعلى درجة من هذا: حصول الورع التام، وترك الطمع، وبغض الدنيا ومن تشكك بها، والقرار من دواعيها، ومن أهلها، والقناعة باليسير منها. ودرجات الصالحين تختلف بالترقي في ذلك على حسب الغاية من الله تعالى.

واعلم أن الكرامة ليست من شروط حصول الولاية، فقد تحصل الكرامة، لكن إن وقعت لولي، فهي دالة على صدق عبادته، وعلم مكانته، بشرط أنبائه الحقيقة ما أمّر به النبي عليه السلام، وإلا فهي خذلان من الشيطان، ومن الصالحين من يعلم بولايته، ويعلم غيره بها، ومنهم من لا يعلم بنفسه، ولا يعلم به، ومنهم من يعلم به، ولا يعلم هو بنفسه، والمعاون بها: منهم من يكتسبها جهد استطاعته، ومنهم من يظهرها ويصرح بها: أهد.

«لا يستدل على الولي بالكرامة لاحتمال أن تكون من الشيطان، وإذ يستدل على صدق الكرامة بصحة الولاية». وكرامات الصحابة والتابعين لا تكاد تحصى:

ففي البخاري أن رجلين خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة، فإذا الثور بين أيديهما حتى تفرقا، ففرّق الثور بينهما، وفي البخاري - أيضاً - أن عمران بن حصين كانت تكلمه الملائكة.

وتنادى عمر بن الخطاب: «يا سارية الجبل» يحضه على الرجوع إلى الجبل حذراً من العدو، وبينها مسيرة أيام، فرآه وبسمه سارية، فرجع إلى الجبل وسلم من العدو.

(٢) أي حق نفوسهم وفكّهم من أسر المعاصي التي تقطع الصلة بينهم وبينه.

بوجوب خدمته، وأمدّ عقولهم بنوره، فعانت عجائب قدرته، وحرس قلوبهم من الأغيار<sup>(٣)</sup>، وبما منها صور الآثار، حتى ظهرت بمعرفته

كشف لأرواحهم عن قدس كماله، وتعتت جلاله، فهم سبأيا حضرة<sup>(٤)</sup>.

متع أسرارهم بقرينه، بخطافات جذبه، فتحققوا بشهود أحديثه.

أخذهم منهم، وأفناهم عنهم، ففرقوا في بحر هويته.

فرّق جيوش التفرقة بكتائب الجمع<sup>(٥)</sup> لأهل خصوصيته، ونهى جمى الأسرار بمدد الأنوار أن يكون مظهرًا لغير فرديته

أطلع كراكب العلوم في سماء الفهوم تهدي السائر لحضرة ربوبيته، وأضاء قمر التوحيد في بيداء التفريد، فانطوت الكائنات في وجود أزلته، وما كانت معه في أزله<sup>(٦)</sup> حتى تكون معه في أبديته، بل هو الأول والآخر لا بالإضافة لبريته، والظاهر والباطن كذلك، وما الكون حتى يقاس بقدوسيته؟

أحمده والحمد واجب لصفات جلاله وعظمته.

وأشكره، والشكر مستحق له بإسباغ نعمته.

وأرجوه، وكيف لا أرجوه، وهو الذي وسع كل شيء برحمته<sup>(٧)</sup>، وغمر العباد في الغيب والشهادة بطوائف منته.

وأعترف له بالتقصير عن القيام بحقوق أحديثه.

واعلم أنه لا يحاط بذاته وصفته.

ليس للعبد منه إلا ما من به عليه، ولا يضاف له من المحاسن إلا ما أضافه إليه<sup>(٨)</sup>، ولا ينتصر

(٣) الأغيار - قو ما يعجز عنه - بد (السوى) هو: كل ما سوى الله سبحانه وتعالى.  
وأولياء الله سبحانه وتعالى لا يستعبد قلوبهم صنم من الأصنام الكثيرة التي تتمثل في شهوة أوجاه أو ثراء أو قلوبهم ملأى بالله سبحانه.

(٤) سبأيا: أسرى.

(٥) ما يجرى في كلام الصوفية كثيرًا: «الجمع والتفرقة»، قال الأستاذ أبو علي الدقاق: الفرق ما نسب إليك، والجمع ما سلب عنك. ومعناه: أن ما يكون كسيًا للعبد من إقامة العبودية، وما يليق بأحوال البشرية، فهو الفرق. وما يكون من قبل الحق: من إبداء معان. وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدق أحوالهم في الجمع والفرق؛ لأنه من شهود الأحوال. فمن أشهد الحق سبحانه أفعاله عن طاعته ومخالفاته، فهو عبد يوصفه التفرقة، ومن أشهد الحق - سبحانه - ما يؤليه من أفعال نفسه سبحانه، فهو عبد يشاهد الجمع.

(٦) وقد روى البخاري مقدم أهل التيمن لرسول الله ﷺ بعد قبولهم الإسلام وقولهم له ﷺ: جئنا نسألك عن - أول - هذا الأمر ما كان. فقال ﷺ: كان الله ولم يكن شيء غيره - وفي رواية ولم يكن شيء قبله - وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض - وذكر في فتح الباري أن بعض الروايات فيها: كان الله ولا شيء معه. ويستفاد من هذه الروايات وغيرها: أن الله سبحانه: كان. ولا عرش ولا كرسي، ولا ماء، ولا كون - وكل ما يقال عن قدم العرش أو الكرسي فهو من الأباطيل.

(٧) قال تعالى: ﴿ورحمي وسعت كل شيء﴾.

(٨) إن الإنسان في كل ما يتعلق بالله سبحانه، ذاتًا وصفات - يجب عليه أن يلتزم التزامًا كاملاً بما ورد في الآثار الصحيحة.

في المصادر والموارد إلا بالتوكل عليه.

العزیز القادر، الحکیم القاهر، الرقیب علی فعل کل فاعل، ونظر کل ناظر، لا یخفی علیہ ما فی الضمائر، ولا یعزب عن علمه مستکونات السرائر! أظهر فی ملکہ حکمته، وفی مکونہ قدرته، وتعرف لکل شیء، فلا شیء یجحد ربوبیته، ﴿ألا له الخلق والأمر تبارک الله رب العالمین﴾<sup>(٩)</sup>. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شریک له، وکل شیء يشهد بأحدیته فی ألوهیته. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المصطفی من خلیفته الممشهود له فی الغیب والشهادة بکمال خصوصیتہ، القائم لمولاه بکمال الوفاء فی عبودیته، صلی الله علیه وعلى آله وصحبه، صلاة تدوم بدوام أبدیته وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فلما قصدت فی هذا الکتاب أن أذكر جملاً من فضائل سیدنا ومولانا الإمام: قطب العارفين، علم المهتدين، حجة الصوفية، مرشد السالکین متقدّم الحالکین، الجامع بین علم الأسماء والحروف والدوائر، المتکلم بنور بصیرته الکاملة علی السرائر، كهف الموقنين، ونخبة الواصلين، مظهر شعوس المعارف بعد غروبها، ومبدي أسرار اللطائف بعد عزوبها<sup>(١٠)</sup> الواصل إلى الله، والموصل إليه:

«شهاب الدین: أبی العباس بن عمر الأنصاری المرسى».

أسكنه الله حظيرة قدسه، ومثمه - علی بحر الساعات - بموارد أنسه، وأذكر شیهة الذي أخذ عنه، ومنازلاته<sup>(١١)</sup> التي نقلت عنه، أو سمعها منه، وكراماته، وعلومه وأسراره، وبما ملأته مع الله سبحانه وتعالى، وما قاله من تفسير آية من كتاب الله عز وجل، أو إظهار لمعنى خبر نقل عن رسول الله ﷺ، أو كلام علی حقيقة - نقلت عن أحد من أهل الطريق - أشکل معناها، ولم يفهم مغزاها، وما نقله عن شیهة الشیخ أبی الحسن الشاذلی رضی الله عنه، وما قاله هو من الشعر، أو قيل بحضرته، أو قيل فیہ مما يتضمن ذکر الطريق وأهلها؛ وأنقل ما یکن إثباته من إخباره کثیرها وقلیلها.

وكان أصحاب الشیخ الإمام الثقطب أبی الحسن - قدس الله روحه - قد أثبتوا جملاً من کلامه، وإن كان هو - رضی الله عنه - لم يضع کتاباً؛ وقد بلغنی عنه أنه قيل له:

يا سیدی لم لا تضع الکتاب فی الدلالة علی الله تعالى وعلوم القوم؟

«نقد بلغ رسول الله ﷺ کل ما يحتاج الإنسان إليه فی أمر العقيدة، ولم یختلف المسلمون إلا عندما تمذّبوا بالنصوص، وأخذوا یقولون بأرائهم، أو أخذوا یضيقون إلى النصوص من عند أنفسهم، وکل ما یصل بالذات أو الصفات یجب الإیمان به، علی مراد الله فیہ، لئلا حبينا یقول الله سبحانه:

﴿ید الله فوق أيديهم﴾.

تقول فیها: إنا نؤمن بها علی مراد الله سبحانه - وقوله تعالى:

﴿الرحمن علی العرش استوی﴾.

تقول فیها: إنا نؤمن بها علی مراد الله فیها، وکل ما یثاق من تأویل أو خروج عن هذا الموقف فإنه ليس سبیل أسلافنا - رضوان الله علیهم - وكلام المؤلف فی ذلك من أسکم ما قيل.

فقال رضى الله عنه: كتبت أصحابي!

كذلك شيخنا أبو العباس - رضى الله عنه - لم يضع في هذا الشأن كتاباً. والسبب في ذلك: أن علوم هذه الطائفة علوم التحقيق، وهي لا تتحملها عقول الخلق.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس - رضى الله عنه - يقول:

جميع ما في كتب القوم عبرات دموع من سواحل من بحر التحقيق!

ولا أعلم أن أحداً من أصحاب شيخنا أبي العباس رضى الله عنه تصدى إلى جمع كلامه، وذكر مناقبه وأسرار علومه وغرائبه، فحداني ذلك إلى وضع هذا الكتاب بعد أن استخرت الله تعالى وطلبت منه المعرفة وهو خير معين، وسألته أن يهديني إلى الصراط المستبين..

وقسمته إلى مقدمة، وعشرة أبواب، وخاتمة:

أما المقدمة فتشتمل على إقامة الدليل على أن نبينا محمداً ﷺ أفضل بنى آدم، بل أفضل البشر، بل أفضل الخلق كافة (١٢) ..

وأفردت كل مقام بإقامة الدليل عليه من كتاب الله عز وجل، وستة نبيه ﷺ، وبينت أن مدد الأولياء من الحقيقة المحمدية (١٣)، وأن الأولياء إنما هم مظاهر أنوار النبوة (١٤) ومطالع شوارقها..

(١٢) يقول الله تعالى: ﴿إِن أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ﴾.

والتقوى درجات، وأساسها اتقاء الشرك. ثم اتقاء المعاصي. ثم اتقاء الغفلات. ثم اتقاء الخطرات.

والدرجة العليا هي «أن يسلم له قلبك» «وأن يسلم له قلبك» في كمالها وتلماها لا تكن إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وصورتها الصافية الصادقة هي ما عبر الله سبحانه وتعالى عنها بقوله لرسوله ﷺ:

﴿قُلْ إِن صَلَاقِي وَنَسْكِ وَرِعَايَايَ وَمَعَايَايَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وهذه الدرجة لم يبلغها نبي مرسل فضلاً عن عامة البشر، إنها خاصة برسول الله ﷺ، ومن هنا كان أفضل الخلق على الإطلاق.

وكان العالم ناقصاً قبل وجوده ﷺ، فلما وجد كمل العالم.. إنه ﷺ (الجنة) التي كان قبل الملك في حاجة إليها ليكمل. قال ﷺ في الحديث الصحيح:

«مثل ومثل الأنبياء من قبل كمثلي رجل بنى بنا قأحسنه وأجله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه. فجعل الناس يطوفون به، ويمجّون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

أخرجه: البخاري ومسلم والإمام أحمد والترمذي - مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(١٣) يتحدث كثير من الناس عن (الحقيقة المحمدية)؛ ويتساءل كثير من الناس عن هذه الحقيقة: ماهي؟ وينكر بعض الناس هذه الكلمة، أو على الأقل يجادل فيها ويقول:

والواقع أن الأمر ليس من أن ينير نقاشاً، وأوضح من أن يكون مصدر مارة أو إنكار.

فالحقيقة المحمدية هي: النبوة، ومحمد ﷺ، حقيقته نبوته، وهذه النبوة في علم الله منذ الأزل، قدورها الله سبحانه وتعالى بحكمته قبل خلق الكون، وقيل وجود العالم.

وعلى هذا الأساس يمكنك أن تقول:

إن الحقيقة المحمدية أزلية أو قديمة، وتقص أنها كذلك في علم الله، ويمكنك أن تقول: إن الحقيقة المحمدية حادثة، وذلك يوم بعثه أي ستة ثلاث عشرة قبل الهجرة عندما أشرق فجر الهداية الخاتمة وبدأ النور يشرق مستقماً بـ ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ والأمر على هذا الوضع لا ينير عارضة ولا إنكاراً - والله أعلم.

(١٤) إن تفسيرنا السابق للحقيقة المحمدية يتناسق - كما يرى القارئ - مع كلام المؤلف عن الأولياء.

وأعلنت أن أنوار الولاية دائمة الثبوت للزوم دوام أنوار النبوة. وذكرت الفرق بين الرسالة والنبوة والولاية (١٥) ..

وبينت من هو الأول بالميراث في قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» ..  
وبينت ماهو العلم الذي أئني الله عليه، ومن هم العلماء الذين هم أولى بالزلفى لديه ..  
وبينت أن الأولياء الظاهرين في أوقات الظلمة أولى بأن يكثر الله أنوارهم، ويبرز لهم من وجود اليقين ما يوجب انتصارهم، ليدافعوا ظلمة الأوقات، وليهزموا بعساكر أنوارهم جيوش الغفلات.  
وذكرت أقسام الولاية، غزارة قدر الولي، وقخامة رتبته؛ وشقوف (١٦) منزلته، بما تضمنه الكتاب العزيز والأحاديث النبوية، ليكون ذلك توطئة لك بتصديق مايرد عليه من أخبار أوليائه، وكرامات أصفيائه.

وأما الأبواب:

فالباب الأول: في التعريف بشيخه الذي أخذ عنه هذا الشأن، وشهادة من عاصره من العلماء الأعيان، أنه قطب الزمان، والحامل في وقته لواء أهل العيان.  
الباب الثاني: في شهادة الشيخ له أنه الوارث المقام، والحائز قصب السبق بالتمام، وإخباره هو

(١٥) حيثما يقطع الإنسان الطريق يصل إلى الولاية.  
والولي إما أن يكث ولما فقط، فنكون معرفته خاصة به، أو يقتاره الله فتأدية رسالة إلى الآخرين فيكون نبيا، أو يكون رسولا.

والرسول نبي، ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية، أما رسالة النبي غايتها محددة الأهداف محدودة المكان.  
إن الرسول مظهر الصفة الإلهية «الرحمن» في جميع أنحاء العالمين، إنه: (رحمة للعالمين) فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة. ولا شك أن النبوة أسمى من الولاية، ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولي (القرب) من الله في حين أن النبي متبجعة بطبيعة رسالته إلى الخلق، ولكن ذلك خطأ محض، فإن النبوة تتضمن الولاية، فهي متضمنة لمقام القرب، ثم إنها أكثر من الولاية، وعلى ذلك فإن حالة الولي (ناقصة) بالنسبة لحالة النبي، إنها ليست قاصرة بالقسبة لطبيعتها الخاصة، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها في العموم، وهذا العموم يصل إلى أعلى درجات ازدهاره في الرسالة؛ إذ هي عالمية والرسول - لاغيره - هو حقيقة (الإنسان العالي).

والرسول - كما للنبي - إتيهاان:

١ - إتياء داخل: إنه الإتياء نحو الحق.

٢ - إتياء خارجي: إنه الإتياء نحو الخلق.

ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبي المحدودة، ودرجة النبي المحدودة أسمى من درجة الولي الخاصة، ومقام الجميع القرب.

(١٦) تعود فنقول: إن الأولياء هم:

«الذين آمنوا وكانوا يتقون».

والذي يعاديهما إما يعادي الإيمان والتقوى، ولا يكون هذا إلا فيمن تمحض للملح والعياذ بالله، وعلى هذا الأساس يفهم كلام المؤلف رضى الله عنه سواء في ذلك الكلام في هذا الموضع أو الكلام المشابه فيما يأتي في الكتاب.

عن نفسه بما من عليه من النعم الجسام، وشهادة الأولياء له بأنه: بلغ من الوصول إلى الله لأفضل مراتب.

الباب الثالث: في مجرباته ومنازلاته، وما اتفق لأصحابه معه ومكاشفاته.

الباب الرابع: في علمه وزهده، وورعه ورفع هبته، حلمه وصبره وسداد طريقته.

الباب الخامس: في آيات من كتاب الله تعالى تكلم على نبين معناها، وإظهار فحواها.

الباب السادس: فيما فسره من الأحاديث النبوية وإبداء أسرار فيها على مذهب أهل الخصوصية.

الباب السابع: في تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق، وحمله لذلك على أجل الطرائق..

الباب الثامن: في كلامه في الحقائق والمقامات، وكشفه فيها عن الأمور المضللات..

الباب التاسع: فيما قاله من الشعر أو قيل بحضرته أو قيل فيه مما يتضمن ذكر خصوصيته.

الباب العاشر: في ذكره ودعائه عقب كلامه، وحزبه الذي رتب للأخدين في علومه وأفهامه، ولوازم ذلك من ذكر شيخه أبي الحسن وحزبه، ليتم العقد بنظامه..

وأما الخاتمة: ففي اتصال نسبتنا إليه.. ووصاياه نثراً ونظماً تنهض إلى الله وتجمع عليه، وهي آخر الكتاب..

وليس كل شيء سمعته من الشيخ رضى الله عنه استحضرت وقت وضعي لهذا الكتاب، ولا كل شيء استحضرت يمكن إثباته، وقصدت بذلك أن تنتفع به هذه الطائفة<sup>(١٧)</sup> خصوصاً وغيرهم عمومًا، ليؤمن بأحوال هذه الطائفة من قسم الله له نصيباً من المنة، وجعل في قلبه نوراً من الهداية، وليرجع المكذب إلى الاعتراف والمكابر إلى وجود الإنصاف، ولتستبين لمن أراد الله به الهدى المحجة؛ وتقوم على من لم تنصره عناية الله المحجة؛ فيكون للمصدق بتصديقه هذه الطائفة نصيب من الولاية؛ ودنو من العناية..

وقد قال الجنيد<sup>(١٨)</sup> رضى الله عنه: التصديق يعلمنا هذا ولاية؛ وإذا غابتك المنة في نفسك فلا

(١٧) الصوفية على وجه العموم، وليس مقصوده الشاذلية فحسب.

(١٨) سيد هذه الطائفة وإمامهم: أسلمه من نهاوند، ومنشأه بوالده بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له «الزجاجي» وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور، وكان يقيم في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة، مات سنة سبع وتسعين ومائتين (٢٩٧ هـ) ببغداد.

قال الروياري: سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب الير والتقرب إلى الله عز وجل، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندى عظيمة، والذي يسرق ويؤذي أحسن حالاً من الذي يقول هذا فإن المارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال الير ذرة إلا أن يحال في دينها..

وقال الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق؛ إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ.



تفتك أن تصدق بها في غيرك: ﴿فإن لم يصبها وإبل فطل﴾ (١١) وقد قال بعض العارفين: التصديق بالفتح لا يكون إلا بفتح.

مصدق ما قال هذا العارف قول الله تعالى:

﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ (٢٠).

وقال سبحانه: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ (٢١).

وقال سبحانه: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ (٢٢).

وقال: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ (٢٣).

وإذا أراد الله خيرا جعله من المصدقين لأوليائه فيما جاءوا به؛ وإن قصر عقله عن إدراك ذلك فمن أين يجب أن لا يهب الله لأوليائه إلا ما تسعه عقول العباد؛ وقد قالوا: يخشى على المكذب لهم سوء الخاتمة (٢٤).

وقد قال أبو تراب النخشي (٢٥): من لم يصدق بهذه الكرامات فقد كفر (٢٦)؛ أي قد غطى عليه الأمر؛ وستر عنه شهود قدرة الله تعالى؛ جعلنا الله وإياكم من المعترفين بفضله في عبادته؛ ومن المصدقين بآثار عنايته في أهل وداده؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه..

ولم أدخل الكتاب من الكلام على الشبهة المشكل وحل الأمر المعضل؛ والتنبيه على أمور جلية؛ وإظهار أسرار أبصار من لم يؤمن بهذه الطائفة عنها كثيلة..

= وقال: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا متبذ بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبا هذا متبذ بأصول الكتاب والسنة، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ وبلغ من تدبيره أن كان الحكمة (الأديان) بحضور مجلسه لألفاظه.

والفقهاء للتقرير.

والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه.

والمتكلمون لتحقيقه.

والمصوفية لإشارته وحقايقه.

(١٩) البقرة: ٢٦٥.

(٢٢) ق: ٣٧.

(٢٠) النور: ٤٠.

(٢٣) الزمر: ٩.

(٢١) الذاريات: ٥٥.

(٢٤) إن المكذب للأولياء مكذب للإيمان والتقوى الذين هما مائة الزمان، وليرجع القاريء إلى ما كتبناه في مقدمة الكتاب. (٢٥) هو أبو تراب عسكر بن حمص النخشي، من أجلى مشايخ خراسان، يتحدث عنه ابن الجلاء عن خبرة ومشاهدة ومعرفة فيقول: «القيت ستمائة شيخ، ما بقيت فيهم مثل أربعة، أعلم أبو تراب النخشي، ويقول صاحب الكواكب الدرية: كان شيخ عصره بالاتفاق، جامعاً بين العلم والدين والزهدة والتصوف بلا شقاق، متشكفاً متوكفاً، متخشعاً مثيلاً، قد أضاء في سماء المعاني بنوره، واشتهر في سماء المعاني حسنه وذكره.

(٢٦) من معاني الكفر: السر والتغطية، وكل شيء غطى شيئاً فقد «كفر». ويسمى الزارع كافراً لأنه يغطي البذر بالتراب، ويسمى الزارع كافراً لذلك - وهذا هو المعنى الذي أراد أبو تراب. ومن معاني الكفر بطبيعة الحال: أنه ضد الإيمان. وليس هذا هو المعنى المراد في هذه الكلمة.

فإنه سبحانه وتعالى يجعل ذلك لوجهه خالصاً؛ ومن أحوال القطيعة مختلصاً؛ وأن عين علينا بالصدق في الأقوال والأفعال والأحوال؛ وأن يجعلنا من العارفين به في الحال والمآل؛ وأن يفضّل علينا بأفهم عنه؛ وحسن الاستماع منه؛ إنه الإله القدير؛ وبالإجابة جدير..

وسمّيته: «لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن».

وهذا أو أن ابتدائي بما قصدت؛ وإظهار ما أردت؛ وبالله تعالى أستعين وعليه أتوكل؛ وإليه يجه محمد سيّد المرسلين ﷺ أتوسّل؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أما المقدمة:

فأعلم أن الله سبحانه وتعالى لما أراد إتمام نعمته؛ وإفاضة فيض رحمته؛ واقتضى فضله العظيم أن ينّ على العباد بوجود معرفته؛ وعلم سبحانه عجز عقول عموم العباد عن التلقّي من ربه؛ جعل الأنبياء والرسل لهم الاستعداد التام لقبول ما يرد من ألوهيته؛ يتلقّون منه بما أودع فيهم من سرّ خصوصيته؛ ويلقّون عنه؛ جمعاً للعباد على أحديته؛ فهم برازخ الأنوار؛ ومعادن الأسرار؛ رحمة مهداة؛ ومنّة مصفاة؛ حرس أسرارهم في أزلّه من رقى الأغيار<sup>(٢٧)</sup>؛ وصانهم بوجود عنايته من الركون إلى الآثار؛ لا يميّون إلا إياه، ولا يعبدون سواه، يلقي الروح من أمره عليهم، ويواصل الإمداد بالتأييد إليهم؛ وما زال فللك النبوة والرسالة دائراً إلى أن عاد الأمر من حيث ابتدئ، وختّم بمن له كمال الاصطفاء، وهو نبينا محمد ﷺ السيد الكامل، الفاتح الخاتم، نور الأنوار، وسر الأسرار والمبجل في هذه الدار وفي تلك الدار، أعلى المخلوقات مقاماً، وأتهم فخاراً، دلّ على ذلك الكتاب المبين، قال الله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٢٨)</sup>.

ومن رحم به غيره فهو أفضل من غيره، والعالم كل موجود سوى الله تعالى.

وأما تفضيله ﷺ على بني آدم خصوصاً فمن قوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»<sup>(٢٩)</sup>.

وأما تفضيله على آدم فمن قوله ﷺ:

«كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»<sup>(٣٠)</sup>.

ومن قوله:

«آدم فمن دونه من الأنبياء يوم القيامة تحت لوائى. وأنا أول شافع، وأنا أول مشفع، وأنا أول

من تتشقى عنه الأرض»<sup>(٣١)</sup>.

(٢٧) أى ما سوى الله.

(٢٨) الأنبياء: ٦٠-٦١.

(٢٩) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه، ورواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة من حديث بغير زيادة: «ولا فخر».. (٣٠-١) قال العلمى في شرح الجامع الصغير حديث صحيح، وأخرج أحمد والبيهقى في تاريخه والبقوى وابن السكن وأبو نعيم في الحلية وصححه الحاكم بلفظ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» وفى الترمذى وغيره عن أبي هريرة أنه قال للنبي ﷺ: متى كنت أو كنت نبياً؟ قال: كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد. قال الترمذى: حسن صحيح، وصححه الحاكم أيضاً. (٣١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه ولفظه: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تتشقى الأرض عنه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، ولوله الحمد يبدى يوم القيامة ولا فخر).

وحديث الشفاعة المشهور الذي أخبرنا به الشيخ الإمام الحافظ بقیة المحدثین، شرف الدین أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبی الحسن الدعیاطی یقرأ فی علیه أو قراءة علیه وأنا أسمع. قال: أخبرنا الشیخان الإمام فخر القضاة أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد العزیز بن الحباب التمیمی وأبو التقی صالح بن شجاع بن سیدهم المدنی الکتابی، قالوا: أخبرنا الشریف أبو المفاخر سعید بن الحسین بن محمد بن سعید العباسی المأمونی قال: أخبرنا أبو عبد الله الفزاری قال: أخبرنا عبد الغافر الفارسی قال: أخبرنا أبو أحمد محمد بن عیسی بن عمرویه الجلودی قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهیم بن محمد بن سفیان الفقیه قال: حدثنا أبو الحسین مسلم بن الحجاج بن مسلم القشیری النیسابوری قال: حدثنا أبو الربیع العتکی قال: حدثنا حماد بن زید قال: حدثنا سعید بن منصور واللفظ له قال: حدثنا حماد بن زید قال: حدثنا سعید بن طلال العنزی قال:

انطلقنا إلى أنس بن مالك وتشفعنا بنائب، فأنتهينا إليه وهو يصلي الضحى، فاستأذن لنا ثابت، فدخلنا عليه، وأجلس نائباً معه على سريره، فقال له: يا أبا حمزة، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة، قال: حدثنا محمد ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: اشفع لذرئتك، فيقول:

لست لها ولكن عليكم إبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقول: لست لها، ولكن عليكم موسى عليه السلام فإنه كليم الله.

فيأتون موسى عليه السلام فيقول:

لست لها، ولكن عليكم يعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته.

فيأتون عيسى عليه السلام فيقول:

لست لها، ولكن عليكم محمد ﷺ.

فأوتى فأقول: أنا لها، فأنطلق غاستأذن علي ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه، فأحمده بحمده لا أقدر عليها إلا أن يلهمني الله عز وجل، ثم أخرج له ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: رب، آمين آمين، فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من بيرة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي، فأحمده بذلك المحامده ثم أخرج له ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب، آمين آمين، فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربي فأحمده بذلك المحامده ثم أخرج له ساجداً، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يارب، آمين آمين، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى

رَبِّ فَأَحْدَهُ بِنُكْحِ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يَسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تَعطى، وَاشْفَعْ تَشْفَعُ، فَأَقُومُ: يَارَبِّ، أَمَتَى أَمَتَى، فَيَقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأُخْرِجْهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ إِلَى رَبِّ فَأَحْدَهُ بِنُكْحِ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يَسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تَعطى، وَاشْفَعْ تَشْفَعُ، فَأَقُولُ: يَارَبِّ، أَمَتَى أَمَتَى، فَيَقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأُخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ.

هَذَا حَدِيثُ أَنَسٍ الَّذِي أَخْبَرَنَا بِهِ، فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِ، فَلَمَّا كُنَّا يَظْهَرُ الْجَبَانَ قُلْنَا: لَوْ مَلْنَا إِلَى الْحَسَنِ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ مُسْتَخْفٍ فِي دَارِ أَبِي خَلِيفَةَ، قَالَ: فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ فَقُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَبِي هُرَيْرَةَ فَلَمْ تَسْمَعْ بِثَلْثِ حَدِيثِ حَدِيثِ حَدِيثِ الشَّافِعَةِ، فَقَالَ: هَيْه، فَحَدَّثَنَاهُ الْحَدِيثَ، فَقَالَ: هَيْه، فَقُلْنَا: مَا زَادْنَا، قَالَ: قَدْ حَدَّثَنَا بِهِ مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً وَهُوَ يَوْمُنَا جَمِيعٌ (٣٢)، وَلَقَدْ تَرَكَ شَيْئًا مَا أُحْدِثُ أَنَسِي الشَّيْخُ أَوْ كَرِهَ أَنْ يَحْدِثَكُمْ فَتَتَكَلَّوْا، فَقُلْنَا لَهُ: حَدَّثْنَا، فَضَحِكَ وَقَالَ:

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (٣٣).

مَا ذَكَرْتُ لَكُمْ هَذَا إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحْدِثَكُمْ:

ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فِي الرَّابِعَةِ، فَأَحْدَهُ بِنُكْحِ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ سَاجِدًا، فَيَقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يَسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تَعطى، وَاشْفَعْ تَشْفَعُ، فَأَقُولُ: يَارَبِّ انْزِلْ لِي قِيمَنَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ:

لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ، أَوْ قَالَ لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ، وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَانِي وَعِظْمَتِي لِأُخْرِجَنَّ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» (٣٤)، قَالَ:

(٣٤) أَيْ فِي تَكْمِلِ قُوَّةِ وَقَامِ ذَاكِرَتِهِ وَنُظْرَةِ رَجُلِهِ.

(٣٣) الْأَنْبِيَاءُ: ٣٧.

(٣٦) أَيْ لِيُخْرِجَنَّهُ سَبْعَانَةً مَالًا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصْعَقَى جِرَامَهُ عَمَّا قَدَّمَ مِنْ «عَاصِي»، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَقْضِلَ سَبْعَانَةً عَلَى الْبَعْضِ لِحُكْمَةٍ، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَيُسَلِّمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي هَذَا قَوْلُهُ ﷺ فِي حَدِيثِ جَمَاعٍ:

«أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ؟»

(يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيَنْظُرُهُمُ الْغَافِلُ، وَيَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيَدْنُو مِنْهُمْ الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْقَمَرِ وَالْكَرْبِ مَا لَا يَطْلُقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ إِلَى مَا بَلَّغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟) فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، وَأَسْكَنْكَ الْجَنَّةَ، أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا بَلَّغْنَا؟

فَقَالَ: إِنْ رَأَى غَضَبُ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ تَهَيَّأَ عَنِ الشَّجَرَةِ قَمْعِيَّتِي، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي، أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى الْوَحْشِ، فَيَأْتُونَ نَوْحًا فَيَقُولُونَ:

يَا نُوحُ: أَنْتَ أَوَّلُ الْمُرْسَلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا بَلَّغْنَا؟ أَلَا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؟

فَيَقُولُ: إِنْ رَأَى غَضَبُ الْيَوْمِ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي، نَفْسِي، نَفْسِي ۝

أَذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، أَذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ =

فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك أراه قبل عشرين سنة، وهو يومئذ جميع (٣٥).

فانظر رحمك الله ما تضمنه هذا الحديث من فخامة قدره ﷺ، وبجلالة أمره، وأن أكابر الرسل والأنبياء لم ينازعوه في هذه الرتبة التي هي مختصة به وهي الشفاعة العامة في كل من ضمنه المحشر. فإن قلت: فما بال آدم أحال على نوح في حديث، وعلى إبراهيم في هذا، ودلّ نوح على إبراهيم، وإبراهيم على موسى، وموسى على عيسى، وعيسى على محمد ﷺ، ولم تكن الدلالة على محمد ﷺ من الآل؟

فاعلم أنه لو وقعت الدلالة على محمد ﷺ من الأول لم يتبين من نفس هذا الحديث أن غيره لا تكون له هذه الرتبة، فأراد الحق سبحانه أن يدلّ كل واحد على من بعده، وكل واحد يقول: لست لها مسبقاً للرتبة، غير مدّح لها، حتى أتوا عيسى فدلّ على رسول الله ﷺ، فقال: أنا لها. وفي هذا الحديث من الفوائد: أن الإيمان يزيد (٣٦) وينقص.

فيقول لهم: إن ربّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنّي كذبت ثلاث كذبات: نفسي، نفسي، نفسي.

أذهبوا إلى غيري، أذهبوا إلى موسى! فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فطُفلك برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، وإنّي يغضب بعده مثله، وإنّي قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها: نفسي، نفسي، نفسي.

أذهبوا إلى غيري، أذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، وإنّي يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنباً - نفسي، نفسي، نفسي.

أذهبوا إلى غيري، أذهبوا إلى محمد ﷺ. - وفي رواية: فيأتوني، فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد بشر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فإنطلق فأتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربّي، ثم يفتح الله على من يحامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبلي، ثم يقول: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمّني يارب، أمّني يارب! فيقال: يا محمد أدخل من أمّتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصرّين من مصارع الجنة: كذا بين مكة وميصر، أو كما بين مكة وميصر. (٣٥) والحديث في صحيح مسلم (شرح الثوري ج ٣ ص ٢٦٣ ومعنى جميع مجتمع القوة والحفظ).

(٣٦) يقول الإمام البخاري عن الإيمان: هو قول وفعل. يزيد وينقص، ثم أخذ يبرهن على رأيه بالآيات القرآنية، نذكر منها: قال الله تعالى:

﴿لِيُزِيدَهُمْ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾. ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

﴿وَيُزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَآثَامَهُمْ تَوَاهُجُ﴾.

﴿وَيُزِدُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾.

﴿أَيُّكُمْ وَادَّهُ هَذِهِ إِيمَانًا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادهم إيمانًا﴾.

﴿فَأَشْرَوْهُمْ فزادهم إيمانًا﴾.

وقبه: أن المعارف لا تنتهى، من قوله: لا أقدر عليه إلا أن يلهمني الله عز وجل، ويشهد لذلك قوله ﷺ:

«لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» (٣٧).

ويشهد له قوله سبحانه وتعالى:

﴿ولا يحيطون به علماً﴾ (٣٨).

إلى غير ذلك من الفوائد التي لو تكلمنا عليها لخرجنا عن غرض الكتاب، ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (٣٩).

ﷺ، وشرف وكرم، ومجد وعظم، فعدا إلى الله بالصيرة الواضحة (٤٠)، والبيئة الفاتكة، وقرب المدارك، وبين المسالك، وحث على سلوك سبيل الهدى، واجتناب سبيل الردى فبا ترك شيئاً يقرب إلى الله إلا ودعا إليه، ولا أدباً يصلح أن يكون العبد به مع الله إلا وحث عليه، ولا شيئاً يشغل العباد عن الله إلا وحذر العباد منه، ولا عملاً يقطعهم عن الله إلا وأخرجهم عنه، لا يألوا نصيباً (٤١) في تخليص العباد من أحوال القطيعة، ومواطن الهلكة، إلى أن ترحل ليل الشرك، وانقضت آثاره، وأضاء نهار الإيمان وأشرقت أنواره، فرقع ﷺ من الدين لوائه، ونعم نظامه، وقرر فرائضه وأحكامه، وبين حلاله وحرامه، وكما بين للعباد الأحكام، كذلك فتح لهم باب الأفهام حتى قال الراوى: لقد تركنا رسول الله ﷺ وإن الطير ليتحرك في السماء فتستفيد منه علماً، فقد قال سبحانه:

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ (٤٢).

وقال سبحانه:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (٤٣).

وقال ﷺ:

(٣٧) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والإمام أحمد في مسنده.

(٣٨) طه: ١١٠.

(٣٩) الأنبياء: ١٠٧ - ويقول الرسول ﷺ: إنما أنا رحمة مهداة، أى مهداة من الله سبحانه وتعالى إلى الإنسانية. (٤٠) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾، وإن من أول شروط الدعوة أن يكونوا على بصيرة من أمر دعوتهم، ومن أهم ما تتضمنه البصيرة: العلم، العلم بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرته الشريفة. (٤١) يقول الله تعالى في بيان حرص رسول الله ﷺ على هداية الناس: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾. ويقول سبحانه:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز على ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

(٤٢) البقرة: ٢٥٦. (٤٣) المائدة: ٣.

«تركناها بيضاء نقية» (٤٤).

فجزاه الله خير ما جزى نبياً عن أمته.

ولما أكمل ﷺ البيان لسبيل الرشاد، وأظهر المسالك الموصلة إلى الله للعباد، توفاه الله إلى الدار التي هي خير له وأولى، بعد أن خير فاختار الرفيق الأعلى.

ثم جعل الحق سبحانه الدعاء إلى الله في أمته أبداً، ودائماً سرمداً، بما ورثوا منه، وأخذوا عنه، وقد شهد لهم الحق بذلك، وجعلهم أهلاً لما هنالك، قال الله سبحانه:

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ (٤٥).

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: أى على معاينة، بعين سبيل كل واحد من الأتباع، فيحمله عليها.

ودليل ما قال الشيخ رضى الله عنه اختلاف وصاياه ﷺ لأصحابه على حسب اختلاف سبلهم، فقال لبلال رضى الله عنه:

(أنتق بلال، ولا تعش من ذى العرش إقلاً) (٤٦).

وقال لآخر أراد أن ينخلع عن ماله كله:

«امسك عليك مالك، فإنك إن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس» (٤٧).

وقال له ﷺ رجل: أوصنى، فقال ﷺ:

«أستح من الله كما تستحى من رجل صالح من قومك» (٤٨).

وقال له آخر: أوصنى، فقال: لا تغضب.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: فتح الحق سبحانه يقوله:

«أنا ومن اتبعني» باب البصائر للاتباع. يريد الشيخ أن قول الله سبحانه:

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ (٤٩).

أى ومن اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة، على ما يقتضيه اللسان؛ لأنك إذا قلت: زيد يدعو إلى

(٤٤) رواه أحمد وابن ماجه بنحوه ونص الحديث عن الرباض بن سارية: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذوقت منها العميون، ووجلت منها التلوب، فقلنا يا رسول الله، إن هذه الموعظة نودع فماذا تعد إلينا؟ قال: «وقد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بدى إلا هالك، من يمشى منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فليكنم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. عضوا عليها بالنواجذ وعليكم بالطاعة وإن كان عبداً حبشياً، فإنما المؤمن كالجمل الأنقى حيثما قيد انقاد.» (٤٥) يوسف: ٦٠٨.

(٤٦) البزار عن بلال والطبراني عن ابن مسعود.

(٤٧) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث كعب بن مالك.

(٤٨) رواه ابن عدى بنحوه بسند ضعيف.

(٤٩) يوسف: ٦٠٨.

السلطان على نصيحة هو وأتباعه، أي وأتباعه يُدعون إليه على نصيحة.  
إذا ثبت هذا، فالرسول ﷺ يدعو إلى الله على بصيرة الرسالة الكاملة، والأولياء يدعون على حسب بصائرهم: قطبانية وصديقية وولائية، وقد قال ﷺ:  
«اعلماء ورثة الأنبياء»<sup>(٥٠)</sup>.

وقال ﷺ:  
«إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم»<sup>(٥١)</sup>.  
وقال ﷺ:  
«علماء أمي كانبيا بني إسرائيل».

ولهنا نكتة: وهو أنه ﷺ لم يقل: علماء أمي كرسل بني إسرائيل، فمن الناس من ظن أن النبي هو الذي نبي<sup>(٥٢)</sup> في نفسه والرسول هو الذي أرسل إلى غيره، وليس الأمر كما ظن هذا القائل، ولو كان كذلك فلماذا خص الأنبياء دون الرسل بالذكر في قوله: علماء أمي كانبيا بني إسرائيل، ومما يدل على بطلان هذا المذهب قول الله سبحانه:  
﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ﴾<sup>(٥٣)</sup> الآية.

فدل على أن حكم الإرسال يعمها، وإنما الفرق ما قال بعض أهل العلم: إن النبي لا يأتي بشريعة جديدة، إنما يبيح مقررًا لشريعة من كان قبله كيوشع بن نون فإنه إنما جاء مقررًا لشريعة موسى، وأمرًا بالعمل بما في التوراة، ولم يأت بشرع جديد، والرسول كموسى عليه السلام إذ أتى بشرع جديد وهو ما تضمنته التوراة، فقال ﷺ: علماء أمي كانبيا بني إسرائيل أي يأتون مقررين ومؤكدين وأمرين بما جئت به لا أنهم يأتون بشرع جديد.

إعلام وبيان:

اعلم أن قول رسول الله ﷺ:  
«العلماء ورثة الأنبياء».

و«علماء أمي كانبيا بني إسرائيل».

و«إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم»..

و«ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم»<sup>(٥٤)</sup>.

و«إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»<sup>(٥٥)</sup>.

(٥٠، ٥١) رواه أبو داود والترمذي.

(٥٢) كون النبي ما نبي في نفسه أو بتعبير المتكلمين: «ما أوحى إليه ما يعمل به ولم يؤمر بتبليغه» والرسول هو ما أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، هذا ما جرى عليه الغالبية من علماء علم الكلام، وما ذكره المؤلف هنا أدق وأوضح.  
(٥٣) الحج: ٥٢ وقام الآية: ﴿إلا إذا نطق الشيطان في أمنيه فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾.

(٥٤) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(٥٥) رواه أبو داود والترمذي.



وقوله سبحانه: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾ (٥٦).  
وقال: ﴿الذين أوتوا العلم درجات﴾ (٥٧).

و: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ (٥٨).

وحينما وقع العلم في كتاب الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فإنما المراد به: العلم النافع المخدم للهوى، القامع، الذي تكتشفه الخشية وتكون معه الإجابة قال الله سبحانه:  
﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (٥٩).

فلم يجعل علم من لم يخش الله من العلماء علماً، وقد قال داود عليه السلام: يارب، ما علم من لم يخشك، وما خشية من لم يطع أمرك؟

فشاهد العلم الذي هو مطلق الله الخشية، وشاهد الخشية موافقة الأمر، أما علم تكون معه الرغبة في الدنيا، والتعلق لأربابها، وصرف الهمة إلى اكتسابها، والجمع والادخار، والمباهاة والاستكثار، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، فما أبعاد من هذا العلم علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء، وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند المورث عنه؟

ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كمثل الشمعة تضيء على غيرها وهي تحرق نفسها (٦٠)، جعل الله العلم الذي علمه من هذا وصفه حجة عليه؛ وسببا في تكثير العقوبة لديه. ولا يغفل أن يكون به انتفاع الهادي والحاضر؛ فقد قال ﷺ:

«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» (٦١).

ومثل من يتعلم العلم لاكتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من يرفع العذرة بعلقة من ياقوت؛ لها أشرف الوسيلة؛ وما أحسن المتوسل إليه.

ومثل من قطع الأوقات في طلب العلم فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل من قعد هذه المدة يتطهر ويحجد الطهارة ولم يصل صلاة واحدة؛ إذ مقصود العلم العمل، كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة، ولقد سأل رجل الحسن البصري رضى الله عنه عن مسألة فأفتاه فيها، فقال الرجل للحسن: قد خالفك الفقهاء، فزجره الحسن وقال: ويحك، وهل رأيت فقيهاً إلا إنما الفقيه الذي فقه عن الله أمره ونهيه.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

(٥٦) آل عمران ١٨ - والقسط: هو العدل. (٥٨) المكنوت: ٤٩.

(٥٧) لقمان: ١١. (٥٩) فاطر: ٢٨.

(٦٠) ولأجل هذا كان الرسول ﷺ يقول في دعائه - كما رواه الإمام أحمد - اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن كتب لا يفصح، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

(٦١) رواه الطبراني وصححه السيوطي وفي معناه قوله ﷺ: إن الله يؤيد هذا الدين بأهلها لا بأهلهم، رواد أحمد والنسائي وابن حبان والطبراني.

«الفقيه من انفق الحجاب عن عيني قلبه وشاهد ملكوت ربه».

وإذا قد عرفت أن الدعاء إلى الله لا يزال أبداً، فاعلم أن الأنوار الظاهرة في أولياء الله إنما هي من إشراق أنوار النبوة عليهم، فمثل الحقيقة المحمدية كالشمس، وقلوب الأولياء كالأقمار، وإنما أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ومقابلته إياها، فإذا الشمس منيرة تباراً، ومضيئة أيضاً ليلاً، لظهور نورها في القمر الممدود منها، فإذا هي لا غروب لها فقد فهمت من هذا أنه يجب دوام أنوار الأولياء لدوام ظهور نور رسول الله ﷺ فيهم، فالأولياء آيات الله يتلوها على عبادهم بإظهاره إياهم واحداً بعد واحد:

﴿تلك آيات الله يتلوها عليك بالحق﴾ (٦٢).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول في قوله عز وجل:

﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ (٦٣).

أى ما نذهب من ولى الله إلا ونأت بخير منه أو مثله.

وقد سئل بعض العارفين عن أولياء الله، أينقصون في زمن واحد؟

فقال: لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها، ولا أيرزت الأرض نباتها؛ وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم؛ ولا ينقص إمدادهم؛ ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله سبحانه وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم؛ فإذا كان أهل الزمن معرضين عن الله؛ مؤثرين لما سوى الله؛ لا تنجع فيهم الموعظة، ولا تبليهم إلى الله التذكرة؛ لم يكونوا أهلاً لظهور أولياء الله فيهم؛ ولذلك قالوا: أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون. وقد قال ﷺ:

«لا تتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمتعوا أهلها فتظلموهم» (٦٤).

فإذا كان الله سبحانه وضائاً على لسان رسوله ﷺ أن: لا تتوا الحكمة غير أهلها، فمن أولى بهذا الخلق الجميل منا، وقد قال ﷺ:

«إذا رأيت هوى مطاعاً، وشحاً متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بخوصة نفسك» (٦٥).

فسمعوا وصية رسول الله ﷺ، فآثروا الخفاء بل آثر الله لهم ذلك مع أنه لا بد أن يكون منهم في الوقت أئمة ظاهرين قائمين بالحجة، سالكين للحجة، لقول رسول الله ﷺ:

(٦٢) الجاثية: ٦.

(٦٣) البقرة: ١٠٦.

(٦٤) إن حديث الصوفية عن بعض آيات القرآن، إنما هو إشارات بر بوجدانهم لا تنفى من قرب، ولا من بعد المعنى الذى يستمد من الآية بحسب اللغة وأسباب النزول، وموازين التفسير، ولكن القرآن الكريم نبع فياض، يلهم ويشير ويوجه، وكل إنسان يأخذ منه بحسب صفاء نفسه، ولا عليه في ذلك ما دام مؤمناً بالمعنى الذى تقرره الأوضاع الإسلامية الصادقة عاملاً به. وفي ضوء ما قلناه - وهو الذى يعترف به جميع الصوفية - فرجو من القارئ الكريم أن ينظر إلى ما يأتي من حديث للصوفية في إشاعات الآية الكريمة.

وهذا المعنى هو الذى يؤخذ من قوله تعالى: ﴿يؤتى الحكمة من يشاء﴾ وهى كلمة قرآنية لا منع فيها ولا تميم.

(٦٥) أبو داود في الملاحم، والترمذى في التفسير، وابن ماجه في الفن.

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من نوافهم إلى قيام الساعة» (٦٦).  
وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مخاطباته لكميل بن زياد: اللهم لا تحفل الأرض من قائم لك بحجبتك، أولئك الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في عباده وولاده، آه واشوقاه إلى رؤيتهم. وروى الإمام الرياني محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه في كتاب «الحتم» (٦٧) أنه، برفعه إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«أمتي كالنظر لا يدري أوله خير أم آخره» (٦٨).  
وروى أيضاً برفعه إلى أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:  
«خير أمتي أولها وآخرها، وفي وسطها الكدر».  
وروى أيضاً برفعه إلى عبد الرحمن بن سمرة قال:

- جئت مبشراً من غزوة مؤتة، فلما ذكرت قتل جعفر وزيد وابن ربيعة بكى أصحاب رسول الله ﷺ فقال ﷺ: ما يبكيكم؟ فقالوا: وما لنا لا نبكي وقد قتل خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل منا؟ فقال ﷺ: «لا تبكوا، إنما مثل أمتي مثل حديقة قام عليها صاحبها، فاجتلب وراكبها، وهباً مسالكها، وحلق سعنفاها، فأطعمت عاماً فوجاً ثم عاماً فوجاً، فلعل آخرها طعماً يكون أجودها قنونا، وأطولها شمراخاً والذي يعني بالحق ليجدن ابن مريم من أمتي خلفاً من حواريه» (٦٩).  
وروى أيضاً برفعه إلى سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ:  
«إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء يدخلون الجنة بغير حساب» (٧٠).

ثم تلا:

(٦٦) متفق عليه.  
(٦٧) هو كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذي، وهو من الكتب التي كانت محل عناية كبرى من الشيخ أبي الحسن الأشعري، ومن الشيخ أبي العباس المرسى وقد نال هذا الكتاب عناية الشيخ الأكبر يحيى العيني بن عري، ووصلت عناية به إلى درجة أنه تحدث عنه غير مرة، وأجاب عن الأسئلة التي وجهها الحكيم الترمذي في كتابه. وهذا الكتاب طبع في لبنان.  
(٦٨) رواه أحمد والترمذي والعلبراني وأبو يعلى.  
(٦٩) القنوان: جمع قنر وهو قلمق أي النخلة يحملها والشمراخ مثله.  
ومن خير غزوة مؤتة ما ذكره ابن حزم في «جوامع السيرة» من أن المسلمين عندما دخلوا قرية مؤتة جعل المسلمون على ميمتهم قطية بن قتادة العلوي، وعلى الميسرة عباية بن مالك الأنصاري، وقيل: عباد. واقتتلوا فقتل الأمير الأول، زيد بن حارثة ملاقباً بصدره الرماح، والراية في يده، فأخذها جعفر بن أبي طالب ونزل عن فرس شقراء. فقاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بييسراه، فقطعت فاحتضنها. فقتل كذلك، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأخذ عيد الله بن ربيعة الراية؛ وتردد عن النزول بعض التردد ثم صمم، فقاتل حتى قتل، فأخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان وقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. فقالوا: أنت. قال: لا، فأخذها خالد بن الوليد. وانحاز بالمسلمين، فأبدر النبي ﷺ بقتل الأمراء المذكورين قبل ورود تشير في يوم قتلهم بعينه أحد.  
(٧٠) رواه ابن أبي حاتم في التفسير.

﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿٧١﴾.

وروى أيضا يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال:

«في كل قرن من أمتي سابقون» (٧٢)

واعلم، جعلك الله تعالى من خاصة عبادہ، وعرفك لطائف وداده، أنه سواء منهم الظاهر والخبى، والصدق والولى، فساد الوقت لا يكدر أنوارهم، ولا يحط مقدارهم؛ لأنهم مع الموقت لا مع الأوقات، ومن كان مع الموقت لا يتغير بتغير الوقت شيئا، ومن كان مع الوقت تغير بتغيره، وتكدر، بتكدره.

وقال الإمام أبو عبد الله الترمذى رضى الله عنه: الناس صنفان صنف منهم عمال الله يعبدونه على البر والتقوى فهم يحتاجون إلى غير الزمان وإقباله ودولة الحق؛ لأن تأييدهم من ذلك، وصنف منهم أهل اليقين فيعبدون الحق على وقاء التوحيد عن كشف الغطاء وقطع الأسباب فهم غير ملتفتين إلى إقبال الزمان وإدباره ولا يتغيرهم إدباره وهو قول النبى ﷺ:

إن لله عبادا يغذوهم برحمته، يحبسهم فى عافية، تمر بهم الفتن كقطع الليل المظلم لا تضرمهم.

وقوله ﷺ:

تكون فى أمتي فتن لا يتجو منها إلا من أحياء الله بالعلم.

قال الترمذى: يعنى: بالعلم بالله فيما نرى.

لقد سمعت شيخنا أبى العباس رضى الله عنه يقول: رجال الليل هم الرجال وإن أولياء هذا الوقت يؤيدون بشيئين: باللقى واليقين، فاللقى لكثرة ما عند الناس من الإفلاس، واليقين لكثرة ما عند الناس من الشكوك.

وقال بعض العارفين: إن لله عبادا كلها اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم، فهم كالكواكب، كلها قويت ظلمة الليل قوى إشراقها، وأين نور الكواكب من أنوار قلوب أوليائه، أنوار الكواكب تتكدر وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار الكواكب تهدى فى الدنيا إلى الدنيا وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار الكواكب تهدى فى الدنيا إلى الدنيا وأنوار قلوب أوليائه تهدى إلى الله تعالى، ولنا فى هذا المعنى:

أمرتقب النجوم من السماء	نجوم الأرض أبهر فى الضياء
فتلك تنير وقتا ثم تخفى	وهذه لا تسكدر بسالغفاء
هداية تلك فى ظلم الليالى	هداية هذه كشف الغطاء

وقال صوفى يوما يحضره فقيه: إن لله عبادا هم فى أوقات المحن والمحن لا تضرمهم، فقال ذلك

(٧١) الجملة: ٣، ٤.

(٧٢) الأحاديث السابقة خرجها الترمذى فى كتابه «ختم الأولياء».

الفقيه: هذا مالا أفهمه، أنا أريك مثال ذلك، الملائكة الموكلون بالنار هم في النار والنار لا تضرهم (٧٣).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: الدنيا كالنار وهي قاتلة للمؤمن؛ جزيا مؤمن، فقد أطفأ نورك طيب.

واعلم أن شأن الولاية والوليّ عظيم، والخطب فيها جسيم ويكفيك في ذلك ما حدثنا به الشيخ المسند الجليل شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن إسحق بن محمد بن المؤيد الأيرقوهي رحمه الله. قال: أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن سايور القلانسي الشيرازي بها سنة تسع عشرة وستمئة. قال أخبرنا الإمام أبو المبارك عبد العزيز بن محمد بن منصور الشيرازي الأدمي قراءة عليه وأنا أسمع في سنة ثلاث وخمسمئة. قال حدثنا الشيخ الإمام أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد التميمي الحنبلي إملاءً على في يوم السبت السادس عشر من صفر سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة بأصبهان، قال: أخبرنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن مهدي الفارسي حدثنا أبو عبد الله محمد بن محمد بن حفص الطاطر الخطيب الدري حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة حدثنا خالد بن محمد عن سليمان بن بلال عن شريك بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله عز وجل قال: من عادى لي ولياً فقد آذنتني (٧٤) بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنواقل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه».

وهذا الحديث أخرجه البخاري رضى الله عنه في صحيحه. وقد روى هذا الحديث من طريق آخر: فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً وعقلاً ويدياً ومؤيداً.

فاصح رحمه الله إلى ما تضمنه هذا الحديث من غزارة قدر الولي وفخامة رتبته، حتى ينزله الحق هذه المنزلة، ويحلّه هذه المرتبة، كقوله ﷺ: حاكياً عن الله:

(٧٣) وإن القارئ للقرآن يعلم ما ذكره القرآن الكريم عن فمة إبراهيم عليه السلام حينما قال قومه:

﴿حرقوه وانصروا آلهتكم﴾

ثم ألقوه في النار، فكان الأمر الإنفي:

﴿قلنا يا نار كنى برداً وسلاماً على إبراهيم﴾

إن الله سبحانه وتعالى قد حفظه لأنه كان موالياً له سبحانه وتعالى في أفعائه ومن كان موالياً له سبحانه وتعالى، كان متخذاً له ولياً، ومن اتخذ الله ولياً وسار في حياته على ما أحبه الله سبحانه وتعالى، فإن الله يحفظه فتسر به الفتن لا تضره.

﴿أليس الله يكاف عبده﴾؟

(٧٤) رواية البخاري «فقد آذنته الحرب» وكلا الروايتين صحيح في القول إن من عادى ولي الله آذنه الله بالحرب، فأذن الله بالحرب - أعادنا الله من ذلك وعافانا.

«من عادى لي ولياً فقد آذني بالحرب».

لأن الولي قد خرج عن تدبيره إلى تدبير الله، وعن انتصاره لنفسه لانتصار الله، وعن حوله وقوته بصدق التوكل على الله، وقد قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (٧٥).

وقد قال الله عز وجل: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (٧٦).

وكان ذلك لهم لأنهم جعلوا الله تعالى مكان همومهم، فدفع عنهم الأغيار (٧٧)، وقام لهم بوجود الانتصار.

أخبرني الشيخ شهاب الدين الأبرقوهي، قال: دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه فسمعتة يقول: يقول الله عز وجل: «عبدى اجعلنى مكان هك أكفك كل هك، عبدى ماكنت لك فأنت فى محل البعد، وما كنت فى فأتت فى محل القرب واختر لنفسك».

وقد جاء فى الحديث:

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» (٧٨).

فإذا كان الحق سبحانه قد رضى لهم أن يشغلهم ذكره عن مسألتهم، فكيف لا يرضى لهم أن يشغلهم ذكره والثناء عليه عن الانتصار لنفوسهم؟

ومن عرف الله سلَّ عليه باب الانتصار لنفسه (٧٩) إذ العارف قد اقتضت له معرفته أن لا يشهد فعلاً لغير معرفته، فكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعلاً فيهم؟ وكيف يدع أوليائه من نصرته وهم قد ألقوا نفوسهم بين يديه مسلمين ومستسلمين لما يريد منهم حكماً؟ فهم فى معاقب عزه تحت سرادقات مجده، يصونهم من كل شيء إلا من ذكره، ويقطعهم عن كل شيء إلا عن حبه، ويحتازهم من كل شيء إلا من وجود قربه، ألسنتهم بذكره لهجة، وقلوبهم بأنواره بهجة، وطن لهم وطناً بين يديه، فقلوبهم جائمة فى حضرتهم، وأسرارهم محفقة بشهود أحديتهم.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

ولَّيَّ الله مع الله كولد اللبوة فى حجرها، أتراها تاركة ولدها لمن أراد اغتياله؟

(٧٥) الطلاق: ٣.

(٧٦) الزوم: ٤٧.

(٧٧) جمع «غير» بمعنى: سوى، أى كل ما سوى الله.

(٧٨) البخارى فى التاريخ واليزار فى السنن، والبيهقى فى الشعب من سمعت عمرو بن الخطاب.

(٧٩) قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثله، فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

وقال: ﴿والكاظمين الفیظ، والعاثين عن الناس والله يحب المحسنين﴾.

وما كان الرسول ﷺ يغضب إلا الله.

وما يذكر أن قالوا يقتدى برسول الله ﷺ فى الانتصار لله سبحانه وتعالى، وما جوهر حياة الولي إلا الانتصار لله تعالى؛

ينتصر لله من نفسه، وينتصر لله فى أسرته، وينتصر لله فى مجتمعه، أنه يقوم بالبدأ الإسلامى الواجب وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ﷺ كان في بعض غزواته وامرأة تطوف على ولدها رضيع، فلما وجدته أحنت عليه وألتمته الثدي، فنظر الصحابة إليها متعجبين، فقال ﷺ: «لله أرحم بعبيده المؤمنين من هذه» (٨٠) بولدها.

ومن هذه الرحمة برز انتصار الحق لهم ومحاربة من عاداهم؛ إذ هم محال أسرارهم ومعادن أنوارهم، وقد قال الله سبحانه:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٨١).

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٨٢).

غير أن مقابلة الحق سبحانه لمن آذى أوليائه ليس يلزم أن تكون معجزة؛ لقصر مدة الدنيا عند الله؛ ولأن الله لم يرض الدنيا أهلاً لعقوبة أعدائه كما لم يرضها أهلاً لإثابة أحيائه، وإن كانت معجزة فقد تكون قسوة في القلب، أو وجوداً في العين، أو تسويقاً عن طاعة الله، أو وقوعاً في ذنب، أو فترة في المهمة أو سلب له لذاته خدمته.

وقد كان رجل في بني إسرائيل أقبل على الله ثم أعرض عنه فقال: يا رب كم أعصيك ولا تماقني، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان أن قل لفلان: كم عاقبتك ولا تشعر؟ ألم أسليك حلالة ذكرى ولذاته مناجاتي؟

وفائدة هذا البيان أن لا يحكم لإنسان آذى ولياً من أولياء الله بالسلمة، إذا لم تر عليه محنة في نفسه وماله وولده، فقد تكون محنته أكبر من أن يطلع العباد عليها.

وقوله ﷺ حاكياً عن الله عز وجل:

«وما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم».

فاعلم أن الفرائض التي اقتضاها الحق من عباده على قسمين: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة: الصلوات الخمس، والزكاة، وصوم رمضان، والحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويرى الولادين، إلى غير ذلك.

والباطنة: العلم بالله، والحب له، والتوكل عليه، والثقة بوعده، والخوف منه، والرجاء فيه، إلى غير ذلك، وهي أيضاً تنقسم قسمين: أفعال وترك، شيء اقتضى الحق منك أن تفعله، وشيء اقتضى الحق منك أن لا تفعله، وقد جمع ذلك في آية واحدة، قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ (٨٣).

فهذا أمر طلب الله منك أن تفعله، ثم قال:

﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ (٨٤).

(٨٠) رواه البخاري في الأدب، ومسلم في التوبة، وأبو داود في الجنائز وابن ماجه في الزهد.

(٨١) البقرة: ٢٥٧.

(٨٢) النحل: ٩٠.

(٨٣) الحج: ٣٨.

فهذا أمر اقتضى منك أن تتركه.

ثم أعلم رحك الله أن الله لم يأمر العباد بشيء وجوباً أو يقتضيه منهم ندباً إلا والمصلحة لهم في فعل ذلك الأمر، ولم يقتض منهم ترك شيء محرماً أو كراهة إلا والمصلحة لهم في أمرهم بتركه وجوباً أو ندباً. ولستنا نقول كما قال من عدل به عن طريق الهدى: إنه يجب<sup>(٨٤)</sup> على الله رعاية مصالح عباده. بل إننا نقول: ذلك عادة الحق وشرعته المستمرة، فعملها مع عباده على سبيل التفضل، فليت شعري إذا قالوا يجب على الله رعاية مصالح عباده فمن هو الموجب عليه؟

ثم إننا نظرنا فوجدنا كل مأمور به أو مندوب إليه يستلزم الجمع<sup>(٨٥)</sup> على الله وكل منهي عنه أو مكروه يتضمن التفرقة<sup>(٨٦)</sup> عنه، فإذا مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه. لكن الطاعات هي أسباب الجمع ووسائله فلذلك أمر بها. والمحصية هي أسباب التفرقة ووسائلها فلذلك نهى عنها. وأما الفرائض الظاهرة فلا تنفك عن فروض باطنة، والفرائض الباطنة شروطها ومجدها<sup>(٨٧)</sup> لها، وبين الفرائض الظاهرة والباطنة ما بين الظاهر والباطن.

وأفهم ههنا قوله ﷺ:

«نية المؤمن خير من عمله»<sup>(٨٨)</sup>.

(٨٤) يشير بذلك إلى رأى المعتزلة.

(٨٥) الجمع ما كان من أقبل الحق من إبداء معاف، وإسداء لطف، وإحسان (انظر الرسالة التشريعية). والجمع في كل معانيه يقصد به القرب من الله سبحانه وتعالى، وآثار القرب من الله سبحانه وتعالى لا حدود له، ذلك أن كمال الله سبحانه وتعالى لا ينتهى، ويكون معنى القرب من الله سبحانه وتعالى: زيادة كماله، وزيادة الكمال من آثار زيادة الإيمان. وكلما زادت استقامة الإنسان زاد إيمانه، فزاد بذلك كماله، وزاد قربه من الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أكثر من مرة في كتابه الكريم زيادة الإيمان، وتحدث سبحانه عن أهل اليمين، وعن الأبرار، وعن القربين، والمقربين هم فئة أهل الإيمان. وعونهم الأبرار في المنزلة، وأهل اليمين فاجرون وكلهم فضلاء يتفاوتون في الفضل بحسب صميمهم في طاعة الله والخضوع له. والتفرقة: هي البعد عن الله سبحانه وتعالى بالمعاصي، وهي بعد عن الكمال، ونقص في الإيمان.

(٨٦) أى رؤية الكسب من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية.

(٨٧) أى معينة عليها.

(٨٨) رواه القضاة في مسند الشهاب، وابن عساکر في أماليه وقال غريب والطبراق في المعجم الكبير: قال الهيثمي: رجاله موثقون إلا حاتم بن عباد بن حنبل لم أر من ذكر له ترجمة، وقال المقاري: له عدة طرق تغير ضعفه، وإنما كانت نية المؤمن خيراً من عمله.

لأن تقليد الله العبد في الجنة ليس بعمله، وإنما هو لنيته؛ لأنه لو كان عمله كان خلوه فيها بقدر مدة عمله، أو أضعافه، لكنه أجزاء، ويتبدل؛ لأنه كان نائياً أن يطيع الله أبداً، فلما اختلصته منيته جوزى بنيتها، وكذا الكافر لأنه لو جوزى بعمله لم يستحق التخليد في النار إلا بقدر مدة كفره ولأنه لوى الإقامة على كفره أبداً لو بقي فجوزى بنيتها، ذكره بعضهم. وقال الكرماني: المراد أن النية خير من العمل بلا نية؛ إذ لو كان المراد غير من عمل مع نية لزم كونه الشيء خيراً من نفسه مع غيره، أو المراد أن الجزء الذي هو النية خير من الجزء الذي هو العمل؛ لاستحالة دخول الرياء فيها، أو أن النية خير من جملة الخيرات الواقعة بعمله، أو أن النية فعل القلب، وفعل الأشراف أشرف، أو لأن القصد من الطاعة تنوير القلب، وتنويره بها أكثر لأنها صفته.

وقال اليماني: إنما قال النبي ﷺ ذلك؛ لأن النية عبودية القلب والعمل عبودية الجوارح وعمل القلب أبلغ وأتم، وهو أمير، والجوارح رعية وعمل الملك أعظم وأبلغ، ولأن العمل يدخل تحت المحصر، والنية لا، إذ المتحقق في إيمانه عقد نيته على أن يطيع الله ما أحياء، ولو أماته ثم أحياء، وثم ثم، وهذا اعتقاد منير مستدام فيترتب له من الأجزاء على نيته ما لا يترتب له على عمله.



وكذلك الذنوب الباطنة صغائرها وكبائرها أشد من الذنوب الظاهرة، صغيرها من صغيرها وكبيرها من كبيرها، ولما كانت الفرائض اقتضاها الحق من عبده اقتضاة إلزام حتمه عليه لم يدخل العبد فيها إلا باختيار الله له، فاندفع هوى العبد فيها؛ لأن الله سبحانه وقت أعبادها وآمادها وأسبابها، فلما كان كذلك كان قيام العبد فيها مقتطعا عن اختياره لنفسه، راجعا إلى اختياره الله له، فأوجبت من القرب إلى الله ما لم يوجبه غيرها فلذلك قال: «ما تقرب إلى المتقربون بمثل أدبه ما اقترضته عليهم».

ثم قال: وما يزال عبيد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه. فاعلم أن النوافل هي الزيادة؛ ولذلك سمي النفل نفلا، وهو ما يتفله الإمام لمن يراه: زائدا على نصيبه من الغنيمة، وقال الله سبحانه: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ (٨٩).

= وقال بعضهم: معناه، أن المؤمن كلما عمل خيرا نوى أن يعمل ما هو خير منه، فليس لئنه في الخير منتهى، والفاخر كلما عمل شرا نوى أن يعمل ما هو شر منه، فليس لئنه في الشر منتهى.

وقال بعضهم في حديث آخر: من نوى حسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات، فالتعمل في هذا الحديث خير من النية، وليس ذلك مرادا للحديث الأول، وإنما تكون النية خيرا من العمل في حال دون حال. وقال بعض شراح مسلم: أفاد هذا الخبر أن الثواب للترتيب على الصلاة أكثر للنية وبأنية غيرها من قيام وشيرة. وفي رواية: «نية المؤمن أبلغ من عمله» لما تفرق: ولأن المؤمن في عمل وقته عند فراغه لعمل ثان، ولأن النية بانفرادها توصل إلى ما يوصله العمل بانفراده، ولأنها هي التي تغلب العمل الصالح قاسدا، والفاسد صافيا، مثابا عليه، وثاب عليها أضعاف ما يثاب على العمل، ويثاب عليها أضعاف ما يعاقب عليه، فكانت أبلغ وأفضل. وقيل: إذا فسدت النية وقعت التلبية.

ومن الناس من تكون نيته وهمة أجل من الدنيا وما عليها، وآخر نيته وهمة من أخس نية وهمة، فالتنية تبلغ بصاحبها في الخير والنشر ما لا يبلغه عمله، فحين نية من طلب العلم وعلمه ليوصل الله عليه وملائكته وتستغفر له دواب الأرض وسجنان البحر إلى نية من طلبه لمأكلا أو وظيفة ككتيريس؟

وسبحان الله كم بين من يريد بعلمه وجهه الله والنظر إليه وسماح كلامه وتسليمه عليه في جنة عدن، وبين من يطلب حظا خسيسا ككتيريس أو غيره من العرض القفاني.

قال الحكميم: والنية نهوض القلب إلى الله، وبدؤها خاطر ثم المشيئة، ثم الإرادة ثم النهوض؛ ثم اللجوء إلى الله تعالى مرعلا بعقله وعمله وذهنه وهمة وعزمه فمن هنا تتم النية؛ ومنه يخرج إلى الأركان فيظهر على الجوارح فعله، وإذا صبح العزم خرج الرياء والفخر والخيلاء من جميع أعماله وبلغ مقام الأقوياء؛ وأما غير الكامل فصدور مرج (يستأن) من المروج ملتف فيه من التبات ما إذا تخطى فيه لا يكاد يستبين موضع قدمه أين يضعها من كثرة التفاني؛ فهذا صدر فيه أشغال النفس ونفوتها وروسوس شهورتها فمن أين يأتي النور؟

وإنما يستبين قلب أجرد أزهر في صدره فسح قد شرحه الله للإسلام فهو على نور من ربه (رطب بذكر الله ورحمته) وصلب بالآله الله.

والناس في هذه النية على طبقات؛ أما نية العامة فارغها إلى الله بهذا العلم والعقل والذهن والهمة والعزم؛ فمبلغ ارتحالهم المحو. ثم ليس لتقويهم من القوة ما يرتحلون به فيطرون لأنه لا ريش لتقويهم والمحو مسدود لأن القلوب لما مالت إلى النفوس وإطاعتها أفسد طريقها إلى ربه.

وأما البارفون فنبتات صارت كلها نية واحدة لأن القلب ارتحل إلى الله ووجد الطريق إليه غمر والقلب أمير والنفوس أسير. أهد فيض القدير ج ٦ ص ٢٩٢.

أى زيادة لك من فضلنا على ما اقتضته الفرائض لك.

وأعلم أن الحق سبحانه لم يوجب شيئاً من الواجبات غالباً إلا وجعل من جنسه نافلة حتى إذا قام العبد بذلك الواجب وفيه خلل ما جبر بالنافلة التي هي من جنسه؛ ولذلك جاء في الحديث: أنه ينظر في صلاة العبد فإن قام بها كما أمره الله جوزى عليها وأثبتت له وإن كان فيها خلل أكملت من نافلته» (٩٠) حتى قال أهل العلم: إنما تثبت لك نافلة إذا سلمت لك الفريضة. ولما علم الله سبحانه أن في عباده المؤمنين أقوياء وضعفاء كما جاء في الحديث: «المؤمن القوى أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف» أو قال: «خير من المؤمن الضعيف» وفي كل خير (٩١).

ففسح الله على الضعفاء بالاكْتفاء بالواجبات، وفتح للأقوياء باب توأغل الخيرات، فعباد أنهمضهم إلى القيام بالواجبات خوف عقوبته، فقاموا بها تخليصاً لأنفسهم من وجود الطلحة وملاقاة العقوبة، فقاموا لله شوقاً له ولا طلباً بربوبيته، فلو قوبلوا بالمحافضة لم يقبل منهم قيامهم هذا، فإنهم لم ينهضوا إلا لأجل نفوسهم ولم يطلبوا إلا حظوظهم، فقاموا بواجبات الله مجرورين يسلاسل الإيجاب؛ لذلك جاء في الحديث:

«عجب ربك من قوم يقادرون إلى الجنة بالسلاسل» (٩٢).

وأما العباد الآخرون فعندهم من غليان الشغف ووجود الحب ما ليس تكفيهم الواجبات، بل قلوبهم متلفتة إلى الله من عواطف هذه الدار، فلو لما يحجر عليهم التفتل بالصلاة في أوقات التهيئ أسر مدوا الأوقات بها، ولجأوا أنفسهم فوق ما يطيقون.

ومما يدل على أن الناس انقسموا على هذين القسمين أن رسول الله ﷺ قال في حديث: «يادروا بالأعمال سبعاً، هل ينتظر أحدكم إلا غنى مطغياً، أو فقرًا منسياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرمًا مغتداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال قسراً غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر» (٩٣).

فهذا الحديث يقتضى إناهض الهمم إلى معاملة الله سبحانه وتعالى، والحث على المبادرة إلى طاعته، ومسابقة العوارض والقواطع قبل ورودها، فهذا خطاب الفريق الأول فطالبهم الرسول ﷺ بالمبادرة بالأعمال، وجاءت أحاديث أخر أمرة للعباد بالاقتصاد في الطاعة لئلا يطيعوا باعث الشغف فيحملون أنفسهم فوق ما يطيقون فيؤدى ذلك إلى عجزهم عن طاعة الله أو قيامهم فيها بوجود التكلف، فقال ﷺ:

(٩٠) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم عن عيم الدار بنحو وصححه السيوطي.

(٩١) رواه مسلم ونصه: المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا، كان كذا، وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان.

(٩٢) رواه أحمد والبخارى وأبو داود.

(٩٣) رواه الترمذي والحاكم وصححه.

«أكلفوا من العمل ما تطيقون فو الله لا يَلَّ الله حتى تَلَوْا» (٩٤).

وقال: القصد القصد تبالغوا (٩٥).

وقوله: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» (٩٦).

وقوله ﷺ «ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله».

ومثل القائم بالواجبات المكتفى بها والقائم بها وبالتواقل معها كممثل عبيدين خارجيهما (٩٧) الملك على أربعة دراهم كل يوم فأما أحدهما فقام بها ولم يزد، وأما الآخر فقام بها وعمد إلى طرف الفواكه وغرائب التحف فاشترأها وأهداها إلى السيد، فهو لا شك أولى بؤد السيد من العبد الآخر. وقوله: فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به الحديث إلى آخره. المعنى به: وجود البقاء بعد الفناء فتحمى أوصافك وتطوى بظهور أوصاف المولى فيك. وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

إن الله عباداً يحو أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذواتهم بذواته وحملهم من أسرارهم ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه، وهم الذين غرقوا في بحر الذات وتيار الصفات، فهي إذا فناءات ثلاث أن يفنيك عن أفعالك بأفعاله، وعن أوصافك بأوصافه، وعن ذاتك بذاته، ولذا قال قائلهم:

وقوم تاهوا في أرض بشفر وقوم تاهوا في ميدان حبه  
فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا وأبقوا بالبقا من قرب قربه

فإذا أفناك عنك أبقاك به، فالفناء دليل البقاء، ومنه يدخل إليه، فمن صدق فناؤه صدق بقاءه، ومن كان عاباً سوى الله فناؤه كان بالله بقاءه، ولذلك قالوا: من كان في الله تلفه كان على الله خلفه، فالفناء يوجب عذرهم، والبقاء يوجب نصرهم، الفناء يوجب غيبتهم عن كل شيء، والبقاء يحضرهم مع الله في كل شيء فلا ينقطعون عنه بشيء، الفناء يبيتهم، والبقاء يحييهم، ومن دكت جبال وجوده استمع داعي شهوده، قال الله سبحانه:

«ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً، فيذرها قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عرجاً ولا أمتاً، يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً» (٩٨).

(٩٤) رواه أحمد وأبو داود والنسائي ورواه الشيخان بنحوه.

(٩٥) رواه البخاري.

(٩٦) رواه أحمد عن أنس وصححه.

(٩٧) أطلقها ليعلموا حزن على أن يؤدبوا إليه أربعة دراهم كل يوم.

(٩٨) طه: (٩٥ - ١٠٨) ربما يذكر هنا أنه قد أشار القوم بالفناء: إلى سقوط الأوصاف المذمومة.

وأشاروا بالبقاء: إلى قيام الأوصاف الحمودة به.

وإذا كان العبد لا يحلو عن أحد هذين القسمين، فمن المعلوم: أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسم الآخر لا محالة فمن فنى عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات الحمودة، ومن غلبت عليه الحاصل المذمومة استترت عنه الصفات الحمودة.

وصاحب اليقظة يقوم عن الله، وصاحب الفناء يقوم الله عنه.  
 وقوله: وما ترددت في شيء أذا فاعله أكثر من ترددي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت  
 وأكره مسأته ولا يبدل له منه.  
 اعلم أن التردد يجب تأويله ولا يحمل على ظاهره، وإنما التردد في المخلوقين: إما لتقابل  
 الجواذب، وإما لاتنبههم العواقب وذلك محال في حق الله سبحانه، وإنما المراد بالتردد ههنا: أن سابق  
 علم الله يقتضي وفاة العبد في الوقت الذي سبق العلم بتعيينه، وصفة الرأفة تقتضي دفع ذلك لولا  
 ما سبق العلم، وقد أشار الحق سبحانه إلى صفة الرأفة بقوله: يكره الموت وأكره مساءته، وأشار إلى  
 صفة العلم بقوله: ولا يبدل له منه.

انعطاف:

واعلم رحمك الله بإقباله عليك وجعل أنواره واصله إليك، أنها ولايتان: ولي يتولى الله، وولي  
 يتولاه الله، وقد قال الله عز وجل في الولاية الأولى:  
 ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ (٩٩).  
 وقال في الولاية الثانية:  
 ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ (١٠٠).

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: من أجل مواهب الله الرضا بمواقع القضاء والصبر عند  
 نزول البلاء، والتوكل على الله عند الشدائد، والرجوع إليه عند التائب.  
 فمن خرجت له هذه الأربع من خزان الأعمال على بساط المجاهدة، ومتابعة السنة، والاعتدال  
 بالائمة، فقد صحت ولايته لله ورسوله وللمؤمنين، ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب  
 الله هم الغالبون.  
 ومن خرجت له من خزان الثمن على بساط المحبة، فقد تمت ولاية الله له بقوله:  
 ﴿وهو يتولى الصالحين﴾.

ففرق بين الولايتين: فبعد يتولى الله، وعيد يتولاه الله فهما ولايتان: صغرى وكبرى، فولايته  
 لله خرجت من المجاهدة، وولايته لرسوله خرجت من متابته لسنة، وولايته للمؤمنين خرجت  
 من الاعتدال بالائمة، فافهم ذلك من قوله:  
 ﴿ومن يتول الله ورسوله... الآية﴾.

واعلم رحمك الله بورود عواطفه (١٠١)، وفهمك لطائف عوارفه: أن الصلاح الذي في قوله عز  
 وجل:

﴿وهو يتولى الصالحين﴾.

(٩٩) المائدة: ٥٦.

(١٠٠) الأعراف: ١٩٦.

(١٠١) أى: ينعم وعطاه.

ليس مرادًا به الصلاح الذي يقصده أهل الطريق عند تفصيل المراتب، فيقولون فلان صالح وشهيد وولي، بل الصلاح هنا المراد به: الذين صلحوا لحضرته بتحقيق الفناء عن خلقته، ألم تسمع قول الله سبحانه حاكمًا عن يوسف عليه السلام.

﴿تَوَفَّىٰ مَسَلًا وَأَلْحَقَ بِالصَّالِحِينَ﴾.

أراد بالصالحين هنا المرسلين من آياته، لأن الله أهلهم لنبوته ورسالته، فكانوا لها أهلًا. وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الإيمان، وولاية الإيقان، قولاية الإيمان قول الله سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (١٠٢) وفي هذه الآية قوائد:

القائدة الأولى: اختصاص اسم الله بالذكر في هذا الموطن دون ما سواه من الأسماء فقال الله سبحانه:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ولم يقل: الرحمن، ولا القهار، ولا غير ذلك من الأسماء التي تتضمن الأوصاف؛ لأنه أراد أن يعرفك شمول ولايته لعباده المؤمنين من الاسم الجامع لجميع الأسماء فلو ذكر اسمًا من أسماء الأوصاف لكانت الولاية من حيثية ذلك الاسم.

القائدة الثانية: ربط الولاية بالإيمان؛ ليعرفك عزارة قدر الإيمان وعلو منصبه حتى كان سببًا لنبوت ولاية الله للعبد، ولا يفهم من هذه الآية اختصاص الولاية بمن وقع منه الإيمان قبل نزول هذا الخطاب لإتيانه بصيغة الماضي، بل المراد أن من قام به الإيمان وجبت ولاية الله له أي وقت كان ذلك الإيمان، وقد تباين الأفعال على صيغة خاصة وليس المراد خصوص تلك الصيغة، كما تقول قد أفلح من آمن وخاب من كفر، ألا ترى أن المراد بالأول: قد أفلح من كان منه إيمان، وقد خاب من كان منه كفر من غير تعرض لزمن معين.

القائدة الثالثة: دل سبحانه بقوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور على وسع رحمته وسبوغ نعمته؛ إذ لما قال:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

علم أنهم قد يدخلون في الظلمات، ولكن الله لولايته إياهم يتولى إخراجهم، كما قال في الآية الأخرى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَمْ يَصْرِوْا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فساق ذلك مساق المدح للمؤمنين، كما ساق قوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور، مساق

البشارة لهم، ولم يقل: والذين لا يفعلون الفاحشة؛ إذ لو قال ذلك لم يدخل فيه إلا أهل الاعتناء الأكبر.

وكذلك قوله:

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (١٠٣).

وكذلك قوله: ﴿وَالكَافِرِينَ الْغِظُ﴾ (١٠٤).

فمدحهم بالمغفرة بعد الغضب، ولم يقل: والذين لا يفضون، فيصقهم بفقدان الغضب أصلاً؛ إذ البشرية التي هم متصفون بها لا تقتضى ذلك.

القائدة الرابعة: إعلام الحق سبحانه في هذه الآية المؤمنين ببشارة عظمى تتضمنها ولايته؛ لأنها تضمنت كل خير من خيرات (١٠٥) الدنيا والآخرة، من: نور وعلم، وفتح وشهود، ومغفرة ويقين، وتأييد ووجود مزيد، وسور وقصور، وأتجار وثمار، ورؤية الله، ورضى عن الله، ومن الله، وما بين ذلك من الحشر مع المتقين، وأخذ الكتاب باليمين، ونقل ميزان الحسنات، والتثبيت على الصراط وما سوى ذلك من المنح والمواهب التي تضمنتها ولاية الله لعباده المؤمنين، فهي البشارة التي تضمنت كل بشارة.

واعلم أن ولاية الله تتضمن النفع والدفع.

أما النفع فمن قوله:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ (١٠٦).

ومن قوله: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعِهِمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا عَاسِنًا﴾ (١٠٧).

وفي هذه وصف الكافرين، فمفهومه أن الإيمان ينفع المؤمنين ولو عند رؤية اليأس، وكذلك قوله:

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ (١٠٨).

فمفهومه إذا كانت مؤمنة من قبل نفعا (١٠٩) بإيمانها.

وأما الدفع فمن قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١١٠).

وتتضمن النصر لقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١١).

وتتضمن النجاة لقوله:

﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢).

(١٠٨) الأنعام: ١٥٨.

(١٠٩) أي لنفعاها بإيمانها.

(١١٠) الحج: ٣٨.

(١١١) الروم: ٤٧.

(١١٢) الأنبياء: ٨٨.

(١٠٣) الشورى: ٣٧.

(١٠٤) آل عمران: ١٣٤.

(١٠٥) جمع خير.

(١٠٦) يونس: ٩٨.

(١٠٧) طه: ٨٥.

القائدة الخامسة: قوته:

﴿يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.

أى يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ومن ظلمات البدعة إلى نور السنة.

ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة.

ومن ظلمات الخطوط إلى نور الحقوق.

ومن ظلمات طلب الدنيا إلى نور طلب الآخرة.

ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة.

ومن ظلمات الكثائف إلى نور اللطائف.

ومن ظلمات الهوى إلى نور التقوى.

ومن ظلمات الدعوى إلى إشراق نور التبرى من الحول والقوى.

ومن ظلمات الكون إلى شهود المكنون.

ومن ظلمات التدبير إلى إشراق نور التفويض.

إلى غير ذلك مما لا يحصره العدد مما يخرجهم منه ويخرجهم إليه.

الولاية الثانية: ولاية الإيقان، وهى تتضمن الإيمان والتوكل، وقد قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (١١٣).

ولا يكون اتوكل إلا مع اليقين، ولا يكون يقين وتوكل إلا مع إيمان؛ لأن اليقين عبارة عن استقرار العلم بالله فى القلب، مأخوذ من يقن الماء فى الجبل إذا سكن فيه، فكل يقين إيمان، وليس كل إيمان يقيناً.

والفرق بينها أن الإيمان قد تكون معه الغفلة، واليقين لا تحاميه الغفلة.

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الصادقين، وولاية الصديقين.

فولاية الصادقين بإخلاص العمل لله، والقيام بالوفاء مع الله، طلباً للجزاء من الله.

وولاية الصديقين بالثناء عما سوى الله، والبقاء فى كل شيء بالله. وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: فى بعض كتب الله المنزلة على أنبيائه، «قال الله: «من أطاعنى فى كل شيء أعطته فى كل شيء»».

فقال الشيخ أبو الحسن: (من أطاعنى فى كل شيء بهجرانه لكل شيء) أعطته فى كل شيء بأن أتجلى له فى كل شيء حتى يراى أقرب إليه من كل شيء، هذه طريق أولى، وهى طريق السالكين،

وطريق كبرى: من أطاعني في كل شيء بإقباله على كل شيء لحسن إرادة مولاه في كل شيء، أطلعته في كل شيء، بأن أنجلي له في كل شيء، حتى يراني كأني عين كل شيء.

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أنها وليان: ولي يفتي عن كل شيء فلا يشهد مع الله شيئاً، وولي يبقئ في كل شيء فيشهد الله في كل شيء، وهذا أتم؛ لأن الله سبحانه لم يظهر المملكة إلا كى يشهد فيها، فالكائنات مرآيا الصفات، فمن غاب عن الكون غاب عن شهود الحق فيه، فما نصبت الكائنات لتراها ولكن لتري فيها مولاها، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها: تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها. ولنا في هذا المعنى.

ما أبينت لك العوالم إلا لتراها بعين من لا يراها  
فأزق عنها رقب من ليس يرضى حائلة دون أن يرى مولاها

فالناظر للكائنات غير شاهد للحق فيها غافل، والفاقي عنها عبد بسلطات الشهود ذاهل، والشاهد للحق فيها عبد مخصص كامل. وإنما ترفع الهمة عن الكون من حيث كونيته لا من حيث ظهور الحق فيه، وذلك؛ لعدم نفوذهم إليه في كل شيء لا لعدم ظهوره في كل شيء، فإنه ظاهر في كل شيء حتى إنه ظاهر فيها به احتجب فلا حجاب. ولنا في هذا المعنى:

أرى الكل محتجباً وأنت لك الغنى	ومثل من يخطئ ومثل من يغفر
وأنت الذي تُبدي الوداد تكرماً	ومثل من يرمى ومثل من ينجو
وما طاب عيش لم تكن فيه واصلًا	ولم يصف - لا والله - أنى له يصفو
عزمت على أن أترك الكون كله	وأقفو سبيل الحب والمجتبى يغفر
شهودك يجلو والحجاب لأنه	إذا حقق التحقيق صار هو الكشف
وما أحسن الأحباب في كل حالة	فلك ما يبدو والله ما يغفر
وإن الأولى لم يشهدوك بمشهد	قلوبهم عن نيل سر الهوى غُلف (١١٤)
وأنت الذي أظهرت ثم ظهرت في	جميع الميادى مثل ما شهد العرف
ظهرت لكل الكون فالكون مظهر	وفيهِ له أيضاً كما جاءت الصحف
فسأني فؤاد عن ودادك يستشئ	وأية عين بعد قربك لي تقفو
وأية نفس لم يلهها هواك	على حيكم طراً نفوس الورى وقف

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية دليل وبرهان، وولاية شهود وعيان. ولاية الدليل والبرهان لأهل الاعتبار، وولاية الشهود والعيان لأهل الاستبصار. فلأهل الولاية الأولى قوله سبحانه: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (١١٥).

ولأهل الولاية الثانية:

﴿قل الله تم ذرهم في خوئهم يلعبون﴾ (١١٦)

(١١٤) أى مغطاة عن الحق.

(١١٥) فصلت: ٥٣.

(١١٦) الأنعام: ٩١.



وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان؛ لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق في ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه، وكيف يحتاج إلى الدليل من نصب الدليل؟ وكيف يكون معروفاً به وهو المَعْرِفُ له؟

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟ أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجود كل شيء؟  
وقال مريد لشيخه: يا أستاذة أين الله؟ فقال: أسقطك الله، أطلب مع العين «أين». وأنشد بعض العارفين:

لقد ظهرت فلا تحفَى على أحد      إلّا على أكمه لا يبصر القمر  
ثم استترت عن الأبصار يا صمد      فكيف يُعرف من بالعرّة استترا  
فما احتجب الحق عن العباد إلّا بعظيم ظهوره، ولا منع الأبصار أن تشهده إلّا قهارية نوره، فعظيم القرب هو الذي غيَّب عنك شهود القرب.  
قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:  
حقيقة القرب أن تغيب في القرب عن القرب لعظيم القرب، كمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو منها، وكلما دنا منها تزايد ريحها، فلما دخل البيت الذي هو فيه انقطعت رائحته عنه.  
وأنشد بعض العارفين:

كم ذا تموه بالشعبيين والعلم      والأمر أوضع من نار على علم  
أراك تسأل عن نجد وأنت بها      وعن تهمّة هذا فعل منتهى  
ووجدت بخط شيخنا أبي العباس رضي الله عنه:

أعندك من ليل حديث بحر      بإيراده يحيى السرميم وتشر  
فعهدى بها العهد القديم وإنى      على كل حال في هواها مقصر  
وقد كان منها الطيف قدماً يزورنى      وليسا يزور مساً باله يتعذر  
فهل بخلت حتى بطيف خيالها      أم اعتلّ حتى لا يصحّ التصوّر  
ومن وجه ليل طلعة الشمس تستضي      وفي الشمس أبصار الورى تنعير  
وما احتجبت إلّا برفع حجابها      ومن عجبى أن الظهور تستر

واعلم أن الأدلة إنما نصب لمن يطلب الحق لا لمن يشهده؛ فإن الشاهد غيَّب بوضوح الشهود عن أن يحتاج إلى دليل، فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبية ثم تعود في نهايتها ضرورية.

وإذا كان من الكائنات ما هو غيَّب بوضوحه عن إقامة دليل، فالكون أولى بغناه عن الدليل منها.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:  
إنّا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان والإيقان، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان وإنّا لا نرى أحداً

من الخلق، هل في الوجود أحد سوى الملك الحق؟ وإن كان ولا بد فكالهباء في الهواء إن قشسته لم تجده شيئاً.

ومن أعجب العجيب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعري هل لها وجود معه حتى توصل إليه، أو هل له من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له.

وإن كانت الكائنات موصلة إليه، فليس ذلك لها من حيث ذاتها، ولكن هو الذي ولأها رتبة التوصيل فوصلت، فما وصل إليه غير إلهيته، ولكن الحكيم هو واضع الأسباب وهي لمن وقف عندها ولم يتفد إلى قدرته عين الحجاب، وقد قال الراوي: أصبح رسول الله ﷺ في أثر سحابة كانت من الليل، فقال:

أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال ربكم: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب.

رواه مالك في موطنه (١١٧)، فلا بد من الأسباب وجوداً ولا بد من الغيبة عنها شهوداً. وكيف تكون الكائنات مظهرة له وهو الذي أظهرها أو معرفة له وهو الذي عرفها. فإن قلت: فقد جاء في الحديث: من عرف نفسه عرف ربه فهذا يدل على أن معرفة النفس موصلة إلى معرفة الله وهي كَوْن من الأكوان ففيه إثبات توصيل الكائنات إليه. فاعلم أني سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: في هذا الحديث تأويلان: أحدهما: أي من عرف نفسه بذنبا وعجزها وفقرها عرف الله بعزّه وقدرته وغناه فتكون معرفة النفس أولاً ثم معرفة الله بعد.

والتأويل الثاني: من عرف نفسه عرف ربه، أي من عرف نفسه فقد دل ذلك منه على أنه عرف الله من قبل، فالأول حال السالكين والثاني حال المجذوبين.

وأعلم بسط الله لك بساط مئته وجعلك من أهل حضرته أن الله سبحانه إذا تولى ولها صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الآتوار، حتى لقد قال بعض العارفين: إذا كان الحق سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشهب كيلا يسترق السمع منها، فقلب المؤمن أولى بذلك لقول الله سبحانه فيها يحكيه عنه رسول الله ﷺ: «لم تسعني أرضي ولا سمائي ويسعني قلب عبدي المؤمن» (١١٨).

فانظر رحمك الله هذا الأمر الأكبر الذي أعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلاً. ولقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض فما ظنك بنور المؤمن المطيع.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: لو كشف عن حقيقة الولي لَعَبِدَ لأن

(١١٧) ورواه البخاري ومسلم.

(١١٨) لعل أصل هذا الحديث ما رواه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني عن قول النبي ﷺ: إن آية من أهل الأرض، وآية ربكم قلوب عباده الصالحين.

أوصافه من أوصاف وتعوته من تعوق، ولقد أخبرني بعض المريدين قال: صليت خلف شيخى صلاة فشهدت ما أهر عقلى، وذلك أنى شهدت بدن الشيخ والأنوار قد ملأته، وانبثت الأنوار من وجوده حتى أننى لم أستطيع النظر إليه، فلو كشف الحق عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر في مشرقات أنوار قلوبهم، وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم؟ الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب، وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف لها ولا غروب؛ ولذلك قال قائلهم:

إن شمس النهار تغرب بالليل - بل وشمس القلوب ليست تغيب  
وتور الشمس يُشهد به الآثار ونور اليقين يُشهد به المؤثر.

ولنا في هذا المعنى:

هذه الشمس قايئتنا بنور - وَلَشَّمْسُ الْبَقِيْنِ أَهْرُ نَوْرًا  
فسرأينا بهذه النور لكنا - بهاتيك قد رأينا المنيرا

لكن الحق سبحانه يوفى أعيان الكائنات حقها، ويعطيها قسطها، فيقدر لكن كونه رتبته، ويوفيه دولته، فلذلك ستر سر الخصوصية في وجود البشرية، ولا بد للشمس من سحاب وللحساء من نقاب، وهل يكون الكثر إلا مدفوناً والسر إلا مصوناً؟ وضع ذلك سبحانه ليكون سر الولاية شيئاً، فيكون المؤمن به مؤمناً به مؤمناً بالغيب، وأيضاً أجل ولايته أن يظهره في دار لابقاءها فأرخى عليه ذيل الستر حتى إذا كانت الدار الآخرة التي رضىها أهلاً لظهوره واقتربه ووجود كشف حجابها، كذلك يكشف الحجاب هنالك عن سر الولاية ويحل مقداره ويرفع مناره (١١٩).

(١١٩) حين بدأ الرسول ﷺ الجهر بدعوته، بعد نحو ثلاث سنوات من الإسراء بها؛ فإنه صلوات الله وسلامه عليه لم يبدأ بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالرحلة على صدقه هو، وتحدى العرب بصدقه؛ ومن قبل ذلك حين فاجأه الملك في الغار، ونزل الوحي لم يبدأ الملك أو لم يبدأ الوحي بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالأمر بأن يقرأ الرسول صلوات الله وسلامه عليه باسم ربه: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾. ومضى القرن الأول كله، ولم يحارل إنسان قط أن يتحدث حديثاً عابراً أو مستفيضاً عن إثبات وجود الله - تعالى - ومضى أكثر القرن الثاني والمسألة - فيما يتعلق بوجود الله - لا توضع موضع البحث. ذلك أن وجود الله: إما هو أمر يدعى لا ينبغي أن يتعدت فيه المؤمنون نقياً أو إثباتاً، ولا سلباً أو إنجائاً؛ إن وجود الله من القضايا المسلمة التي لا توضع في الأساطير الدينية موضع البحث لأنها قطرية؛ وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إما هو شخص في إيمانه دخل. وفق دينه انحرف، فما خفى الله قط حتى يحتاج إلى أن يشته البشر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ومن المعروف أن الدين الإسلامي لم يجره لإثبات وجود الله، وإنما جاء لتوحيد الله. وإذا تصحقت القرآن أو التوراة - حتى على وضعها الخالي - أو الإنجيل - حتى في وضعه الزاهي؛ فهاك لا نجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت في أى سفر منها مكانة تجعلها هدفاً من الأهداف الدينية، أو احتلت مكاناً يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية.

والقرآن الكريم يتحدث عن بدهة وجود الله حتى عند ذوى العقائد المنحرفة يقول سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَقَالُوا اللَّهُ﴾ إن الخالق هو الله، مع أنهم مشركون أو مشركفون بوجه من الوجوه في إيمانهم بالله تعالى، وما نزلت الأديان قط لإثبات وجود الله، وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد في الله، أو لتصحيح طريق الوحيد.

أما الآيات الكثيرة التي يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود فقيست من ذلك في قليل ولا في كثير، إنها تبين عظمة الله وجلاله وكبريائه، وهيمته الكثيفة على العالم ما عظم من أمره ودنى منه، لا تقوت هيئته صغيرة ولا كبيرة، ولا يخرج عن =

فاعلم رحمك الله أن من أراد الله به أن يكون داعياً إليه من أوليائه، فلا بد من إظهاره للعباد إذ

«سلطان ما دق وما جل».

وقد أتت على هذا الوضع لتفرد الإنسان إلى إسلام وجهه لله إسلاماً كاملاً بحيث لا يصدر ولا يرد إلا باسمه سبحانه، ولا يأتي ما يأتي أو يدع ما يدع إلا في سبيله تعالى.

ومضى القرن الأول على ذلك، ومضى القرن الثاني - أو أكثره - على الفطرة ثم كانت الفلسفة اليونانية، والفلسفة اليونانية فلسفة وثنية؛ لأنها تصدر عن العقل لا عن الوحي، وكل فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحي في عالم ما وراء الطبيعة، أي في عالم العقيدة إنما هي فكرة وثنية، أي أنها فكرة لا حق لها في الوجود لأن عالم العقيدة إنما هو من اختصاص الله، يثبت على لسان رسوله، وكل تدخل من الإنسان في هذا العالم، إنما هو تدخل فني ليس للإنسان التدخل فيه؛ لأنه اقتحام لساحة محرمة مقدسة لا ينبغي أن يدخلها الإنسان إلا دخول الساجد الخاضع الخاضع المسلم لما جاء به الوحي الإلهي. إن الفلسفة اليونانية في عالم العقيدة، فلسفة وثنية؛ إنها وثنية حتى حين تثبت وجود الله، ولا يخرجها إثباتها وجود الله عن أن تكون وثنية، وإنما وثنية بالمبدأ الذي قامت عليه، وهو مبدأ تأليه العقل البشري. ويسوى بعد ذلك أن تكون قد أثبتت وجود الله أو أنكرت.

وهي حينما تثبت وجود الله عقلياً ليس في ذلك كبير فائدة، ولا يبرر ذلك وجودها، ولا قيمة لما تثبت، وإثباتها والعلم سواء؛ ذلك أن العقل الذي أثبت هو العقل الذي يمكنه أن ينكر، وهو العقل الذي ينكر بالفعل.

ولا لزوم إذن للطبقة والتصنيف الذي نسي به كل عبقرية فكرية في الشرق أو في الغرب تحاول فكراً أن تثبت وجود الله، إنما لا تقيم عقيدتنا على فكر بشري مهما كان هذا الفكر عبثياً.

ويجب على المؤمن ألا يقيم وزناً - أي وزن - لأي نتائج فكرية في عالم ما وراء الطبيعة سواء خالف معتقده أو وافقه، إنه في معتقده يدين لله وحده، وكفى بالله مصدراً، وكفى بالله هادياً، وكفى بالله مرشداً ومن يتصمم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم، ومن يتصمم بالله فهو حسيه.

إن كل ما عدا الهدى الإلهي في عالم الدين إنما هو وثنية وضلال.

كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية، وقد أوردت أن تجد بلطاً بعضها من الخطأ ما اخترعت فناً وثنيةً أخرى، هو قرن المذلق، لما أجدى ولا أغنى، ولا تقدم بالفكر الوثني في عالم الصواب شروري تقيرا

وبقيت هذه الفلسفة الوثنية - عبر القرون - على ما هي عليه، فيها كل سمات الوثنية من ضلال وخرافات. ولقد كانت الأمة اليونانية معذورة بعض العذر، فما كان في ربوعها، دين منزل من السماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة، وما كان مثلها في ذلك إلا كمثل العصر الجاهلي في الجزيرة العربية؛ فلبثت إلى القتل وألته، وأخذت تثبت به وتدكر فضلت وأضلت.

جاءت الديانة النصرانية مصححة للوضع، فمزلت فكرة الألوهية من تدنيس إلوهيته، وسمت بالله جل جلاله عن أن تنزع وجوده موضع البحث ثم تسَلَّت إليها - كمنكروب خبيث - وثنية اليونان، فبطلت من وجود الله - بمجرد وجود الله بأكراً ضحكاً

من أبواب البحث أن من أبواب اللاهوت الكنسي، ونزلت بذلك الفكر الدينية المقدسة عن الله إلى مستوى الجور الوثني البشري؛ وجاء الإسلام تطهيراً كاملاً للعقيدة، وتركيزاً ثابته الإيمان، وأعلن بمجرد التسمية «الإسلام» الحرب على التدخل البشري في

دين الله ورسالته، فما جاء الإسلام إلا للاستسلام المطلق لله سبحانه وتعالى، إنه الاسترسال مع الله على ما يرضيه، وهل للإنسان غير هذا بالنسبة لله؟ وهل للمؤمن أن يتصرف تصرفاً آخر؟ وهل إذا تصرف تصرفاً آخر سُمي مؤمناً؟

إن الاسترسال مع الله على ما يجب هو الإسلام، وهو الدين لا دين غيره، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

ويقول سبحانه:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

وإن كل من لا يستسلم لله في وجهه استسلاماً مطلقاً، فإنه يمتن - في قليل أو في كثير حسب انحرافه - غير الإسلام ديناً. ولقد كان الإسلام توجيهاً، وكان مبادئاً.

ومن توجيه الإسلام: أن وجود الله لا ينبغي أن يوضع موضع البحث، وكل من وضعه موضع البحث، فإنه بذلك يعدل عن توجيه الله تعالى إلى توجيه بشري، إنه يمتن غير الإسلام موجهاً!

ولقد ابتنى المسلمون الأول الإسلام توجيهها كما ابتغوا مبادئ، وسار الأمر على ذلك إلى أن تسَلَّت الفلسفة اليونانية -

لا يكون الدعاء إلى الله إلا كذلك، ثم لا بد أن يكسوه الحق سبحانه كسوتين: أجلالة، وألبهاء.

== مكروب خبيث - إلى الجوهر الإسلامي، تسلمت في عهد المأمون، وتولى كبر هذا التسلسل المأمون، وشجعه على ذلك معتزلة عصره، وقابل المؤمنون ذلك بكثير من النفور، وحق لهم ذلك، فبا كان منطق الدين ولا منطق الفطرة السليمة يقضى بأن تكون راية العصمة، راية الدين الإلهي مرفوعة ترعف على ريع الأمة الإسلامية في محيط العقيدة، فتقبل بهذه الراجة قليلا أو كثيرا لترفع بجوارها راية أرسطو أو راية أبيقور.

ورفع المأمون راية الانحراف الوثنية بجوار راية الهداية المصومة وعارض المؤمنين وأحنجوا وبيئوا أن الوثنية ولو وافقت الدين فهي وثنية.

ولكن التهج الوثني أخذ يقرى شيئا فشيئا، ثم طلب التصريح بالإقامة واستوطن، ومعاذ الله أن تكون عقائد الإسلام الكبرى - الإيمان بالله، وبالرسالة، وبالنبوت - قد تلوثت بالوثنية!

كلًا وإلّا الذي تلوث بالوثنية - وإلى حد كبير - إلّا هو التهج والتزعة والاقهاف في البحث ومنهج البحث، وليس ذلك بالأمر الخفيف أو الذي لا يؤبه له كلاً - فذلك له خطورته في جانب قوة الإيمان وضعفه.

وفرى بين أن تأخذ قضايا الوحي مأخذ المستسلم المسترسل معها على ما تريد وأن تأخذها بحكمك فيها عقفاً مؤولاً لها أو عادلاً بها إلى اتجاه خاص، أو شارحاً لها على نزعة معينة.

وبتعبير آخر: فرى بين أن تبصر عن الوحي متفهياً له بهقله، وبين أن تصدر عن عقلك متفهياً للوحي.

ولعل بعض الناس لا يرى فرقاً في التعبيرين، ولكن الفرق كبير إذا نظرنا إلى الوضع الإنساني: فهو إلّا أن ينطلق عن الوحي قائداً العقل إلى الخوض، وإلّا أن ينطلق عن العقل محاولاً تأويل الوحي بما يوافق النتائج التي وصل إليها العقل.

والأول طريق المؤمن المسلمين، والثاني طريق الفلاسفة أو نهج الوثنيين. والنتج الوثني - نهج إثبات وجود الله عقلاً - هو الذي أتاح الانحراف الكامل أي إنكار وجود الله، فمادام التهج الوثني قد أعطى حق الوجود، فإن الوثنية - كمنهج - تأتي بالوثنية كنتائج!

إن وضع مسألة وجود الله موضع البحث، هو الذي هيأ لندرى القنطرة المنحرفة أن يلحدوا في دين الله، وأن يكفروا به سبحانه..! هذه نتيجة!

أما النتيجة الثانية فإنها ضعف الإيمان، وإذا كنت تضع الوجود الإلهي - مجرد الوجود - موضع بحث، فمعنى ذلك أنك وضعت موضع شك وريبة، ولو لم يكن كذلك لما وضع موضع البحث.

وإذا كان الوجود الإلهي - مجرد الوجود - موضع شك وريبة فماذا بقي من أمور الدين لا يوضع موضع شك وريبة؟! إن الإيمان في هذه الأوضاع الوثنية لا يتأثر له إلا أن يعبر شيئاً فشيئاً حتى يصبح كلاً إيماناً!

وهذا هو ما حدث لبعض الأفراد في الأمة الإسلامية!

لقد وصل إيمانهم إلى درجة يشبه أن يكون معنوية، وما ذلك إلا لتغلغل التهج الوثني في بحث قضايا الدين ومبادئه.

لقد أصبحت قضايا الدين - كل قضاياها - موضع بحث وهزل يتأثر أن تبقى قضية من قضايا الدين في مجال اليقين بعد أن وضع وجود الله - مجرد وجوده سبحانه - موضع البحث؟ تستفرك اللهم وترب إليك! وتعود فلقول: إن الدين في نفسه محفوظ.

يحفظ الله لكتابه العزيز.

«إننا نحن نرأنا الذكر وإننا له لحافظون».

ولكن الذي تشكو منه إلّا هو: التهج، أو التزعزع، أو الانحطاط في البحث.

إن الذي تشكو منه إلّا هو: منهج البحث الوثني، وإن شئت قلت: إلّا هو منهج البحث اليوناني. مثل أحد العارفين عن الدليل على أنه فقال: الله!

فقل له: فما العقل؟ فقال: العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز منه!

أما الإمام الكبير العارف بالله ابن عطاء الله السكندري الذي جمع بين رئاسة الشريعة ورئاسة الحقيقة فإنه يقول:

إلّا: كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟

أليكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو الظاهر لك؟ متى غيبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟

«كيف يتصور أن يصحبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء»!!

أَمَّا الْجَلَالَةُ فَلْيُعْظَمِ الْعِبَادُ فَيَقْتَرُوا عَلَى حُدُودِ الْأَدَبِ مَعَهُ، وَيَضَعُ لَهُ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ هَيْبَةً يَبْصُرُهُ بِهَا؛ لِيَكُونَ إِذَا أَمَرَ وَنَهَى مَسْمُوعًا أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ، وَجَعَلَ هَذِهِ الْهَيْبَةَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ مِنْ تَحْكِيمِ الْحَقِّ لَهُ لِيَعْبُدَهُ عَلَى الْقِيَامِ لَهُ بِالْتَّصَرُّفِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (١٢٠).

وَهُوَ مِنْ إِظْهَارِ إِعْزَازِ الْحَقِّ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ:  
﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢١).

وَهَذِهِ الْهَيْبَةُ الَّتِي جَعَلَهَا الْحَقُّ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ لِأَوْلِيَائِهِ سَرَتْ إِلَيْهِمْ لَا نَبْطَاطُ جَاءَ الْمُتَبَوِّعُ عَلَيْهِمْ، أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ ﷺ: نَصَرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ (١٢٢)؟ أَلَيْسَ لَهُمُ الْحَقُّ مَلَاسِ هَيْبَتِهِ، وَأُظْهِرَ عَلَيْهِمْ إِجْلَالَ عَظَمَتِهِ، كَلِمًا نَزَلُوا إِلَى أَرْضِ الْعُبُودِيَّةِ وَرَفَعَهُمْ إِلَى سَاءِ الْخُصُوصِيَّةِ، فَهُمْ الْمُلُوكُ وَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ عَلَيْهِمُ الْبُتُودُ (١٢٣) وَالْأَعْزَاءُ وَإِنْ لَمْ تَسِرْ أَمَامَهُمُ الْجُنُودُ.

وَلِلَّهِ دَرُ الْقَائِلِ فِي مَا لَكَ مِنْ أَنْسَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يَأْبَى الْجَوَابَ فَمَا يُرَاجِعُ هَيْبَةً وَالسَّائِلُونَ نِسَاكُ الْأَذْقَانِ  
أَدَبُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التَّقَى فَهَوِ الْمَطَاعَ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ  
وَمَنْ مَلِكُهُ اللَّهُ أَمْرُ نَفْسِهِ وَهَوَاهُ فَقَدْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ مِنْ تَشَاءُ﴾ (١٢٤).

وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا أَبَا الْعِمَاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:

قَالَ مَلِكٌ مِنْ الْمُلُوكِ لِبَعْضِ الْعَارِفِينَ تَمَنَّ عَلَى:

فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الْعَارِفُ: إِلَيَّ تَقُولُ وَلِي عَبْدَانِ قَدْ مَلَكَتُهُمَا وَمَلَكَتَكَ وَقَهَرْتُهَا وَقَهَرْتُكَ وَهِيَ الشَّهِيَّةُ

= «كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَجِبَ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ بِكُلِّ شَيْءٍ»؟

«كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَجِبَ شَيْءٌ وَهُوَ الَّذِي ظَهَرَ فِي كُلِّ شَيْءٍ»؟

«كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَجِبَ شَيْءٌ وَهُوَ الظَّاهِرُ قَبْلَ وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ»؟

«كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَجِبَ شَيْءٌ وَهُوَ أَظْهَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»؟

«كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَجِبَ شَيْءٌ وَهُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ»؟

«كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَجِبَ شَيْءٌ وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»؟

«كَيْفَ يَتَصَوَّرُ أَنْ يَجِبَ شَيْءٌ وَلَوْلَا مَا كَانَ وَجُودُ شَيْءٍ»؟

«شَيْئَانِ بَيْنَ مَنْ يَسْتَدَلُّ عَلَيْهِ، الْمُسْتَدَلُّ بِهِ عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ فَأَتَتْهُ الْأَمْرُ مِنْ وَجُودِ أَصْلِهِ، وَالْإِسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ مِنْ عَدَمِ التَّوَصُّلِ

إِلَيْهِ، وَالْأَفْهَقُ غَافٍ حَتَّى يَسْتَدَلَّ عَلَيْهِ، وَمَتَى بَعْدَ حَقِّ تَكُونِ الْآثَارِ هِيَ الَّتِي تَوْصِلُ إِلَيْهِ»؟

(١٢٠) المجمع: ٤٦.

(١٢١) التلخيص: ٨.

(١٢٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي.

(١٢٣) أَيْ تَرَفُّفِ الرَّايَاتِ.

(١٢٤) آل عمران: ٢٦ - وَمَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ بَعْضُ مَا تُشِيرُ إِلَيْهِ آيَةُ الْكَرَةِ وَهِيَ عَامَّةٌ، فَهِيَ تَشْمَلُ الْمُلْكَ فِي الْأَفَاقِ - كُلِّ الْأَفَاقِ - وَفِي الْأَنْفُسِ، أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَالِكُ لِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمَلِكُ مَا يَشَاءُ لَنْ يَشَاءَ، وَمَعَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ لَنْ يَشَاءَ فَهُوَ الْمَالِكُ الْأَدَامُ لِكُلِّ مَا خَلَقَ وَيَخْلُقُ.

والحرص؟ فأنت عبد عبيد. فكيف أتمنى على عبد عبيد؟.

الكسوة الثافية التي يكسوها الحق سبحانه لأوليائه إذا أظهرهم: كسوة اليها، وذلك لتحليلهم في قلوب عباده فيظفرون إليهم بعين الألفة والمحبة، فيكون ذلك باعثاً لهم على الانقياد إليهم، أفلا ترى كيف قال الله سبحانه في شأن موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ (١٢٥).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (١٢٦). فحلاهم بحلية المحبة ليحبهم العباد فيجرهم حبهم إلى حب الله، والحب في الله يوجب المحبة من الله، لقوله ﷺ حاكياً عن الله: (وجبت محبتي للمتحابين في) (١٢٧).

وهي مراتب أربع: الحب لله، والحب في الله، والحب بالله، والحب من الله. الحب لله ابتداءً، والحب من الله انتهاءً، والحب في الله وبالله واسطة بينهما.

الحب لله هو أن تؤثره ولا تؤثر عليه سواء (١٢٨)، والحب في الله أن تحب فيه من والاه، والحب بالله أن تحب العبد من أحبه وما أحبه منقطعاً عن نفسه وهواه، والحب من الله هو أن يأخذك من كل شيء فلا تحب إلا إياه.

وعلاوة الحب لله دوام ذكره مع الحضور، وعلامة الحب في الله أن تحب من لم يحسن إليك يدنياً من أهل الطاعة والخير، وعلامة الحب بالله أن يكون باعث الحظ ينور الله مقهوراً، وعلامة الحب من الله أن يحذيك إليه فيجعل ما سواه عنك مستوراً.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

من أحب الله وأحب لله فقد تمت ولايته بالحب.

والمحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته: فإذا من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت، ويعلم ذلك من قوله تعالى:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَيْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٢٩).

فإذا الولي على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه.

وقد أحب الله من لا محبوب له سواء، وأحب له من لا يحب شيئاً لهواه، وأحب لقاءه من ذاق أنس مولاه.

(١٢٥) طه: ٢٩.

(١٢٦) مريم: ٩٦.

(١٢٧) قال النورى: حديث صحيح رواه مالك في الموطأ.

(١٢٨) يقول الله سبحانه:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾.

(١٢٩) الجمعة: ٦.

ويتمخض لك الحب له في عشرة فاعتبرها فيها وراعيها:

في الرسول ﷺ (١٣٠)، والصديق، والفاروق، والصحاب، والتابعين، والأولياء والعلماء الهداة إلى الله تعالى، والشهداء، والصلحاء، والمؤمنين.

فإذا اخترق الأمر بعد الإيمان إلى عشرة أشياء: إلى السنة والبدعة والهداية والضلالة، والطاعة والمعصية، والعدل والجور، والحق والباطل، وميزت وأحببت وأبغضت فأحب له، وأبغض له، ولست تبالى بآيها كنت، وقد يجتمع لك الوصفان في شخص واحد، ويجب عليك القيام بحققها جميعاً، فإذا قد بان لك الحب لله في العشرة الأول، فانظر هل ترى للهوى هناك أثرًا، فكذلك فاعتبر حب من حضر من إخوانك الصادقين، والمشايخ الصالحين، والعلماء المهتدين، وسائر من حضر ومن لم يحضر ممن غاب عنك أو مات، فإن وجدت قلبك لا متعلق له بمن حضر كما لا متعلق له بمن غاب عنك أو مات فقد خلص الحب من الهوى وثبت الحب لله، وإن وجدت شيئاً يتعلق به فيمن تحب أو قياً تحب فارجع إلى العلم وأنفن النظر في الأقسام الخمسة من الواجب والمندوب إليه والمكروه والمحظور والمباح.

واعلم أن قول الشيخ: «من ثبتت ولايته لا يكره الموت» هذا ميزان أعطاه للمريدين ليزنوا به نفوسهم إذا ادعى فيهم أو أدعوا ولاية الله، فإن من شأن النفوس وجود الدعاوى والتوئب إلى المراتب العاتية من غير أن يسلك السبيل الموصلة إليها؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (١٣١).

وقال هنا: ﴿فَتَسَوَّاهُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣٢).

وقال الرسول ﷺ لحارثة: «لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟» لما قال لحارثة: «كيف أصبحت؟» فقال: أصبحت مؤمناً حقاً ولا يحب الموت من فيه البقاياء، ولا من هو مصر على شيء من الخطايا.

وجعل الله ثمن الموت شاهداً للولي بولايته، وعدم تحنيه شاهداً للغوى بغوايته.

وقل سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا أُلُوزُنَ بِالْقِسْطِ﴾ (١٣٣).

فالموت ميزان على الأفعال والأحوال، كما هو ميزان في دائرة الرتب أما الرتب فكما تقدم، وأما الأفعال والأحوال فإذا التبس عليك أمر أنت فيه لا تدري: هل رضا الله في تركه أو فعله أو

(١٣٠) يقول رسول الله ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». رواه مسلم.

ولقد قاله سيدنا عمر مرة لرسول الله ﷺ:

والله لأنت يا رسول الله أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي. فقال: لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك.

فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي. فقال: الآن يا عمر.

(١٣١) التمل: ٦٤.

(١٣٢) الجمعة: ٦.

(١٣٣) الرحمن: ٩.



حالة أنت بها لا تدري: هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى، فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال فكل حالة وعمل يثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهي حق، وكل حالة وعمل هزمها الموت فهي باطل إذ الموت حق، والحق يهزم الباطل ويدمغه لقول الله عز وجل:

﴿يَلْ تَقْدِفُ عَلَى الْبَاطِلِ غَيْدَمُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (١٣٤).

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمَ الْغُيُوبِ﴾ (١٣٥).

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (١٣٦).

وما كنت فيه قائماً بحق لم يهزم الموت إذ هو حق، والموت حق، والحق لا يهزم الحق. وقد تجاربت الكلام أنا وبعض من يشتغل بالعلم في أنه ينبغي إخلاص النية فيه، وأنه لا يشتغل به إلا لله، فقلت له: الذى يقرأ العلم الله هو الذى إذا قُلت له غداً تموت لم يضع الكتاب من يده.

وربما غر الغافل من طلبه العلم قول من قال: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله»، وليس في قول هذا القائل ما يستروح به من طلب العلم للرئاسة والمنافسة، وإنما أخبر هذا القائل عن أمر من به عليه، ولفتة سلمه الله منها، لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره وذلك بثبوت من به مرض مزمن في المعنى أعياه علاجه وضاق منه خلقه فأخذ خنجراً وضرب به مراق بطنه ليقتل نفسه فصادف ذلك المعنى فقطعه فخرج الداء منه، فهذا لا يستصوب العقلاء فعله وإن نجحت عاقبته، وليست سلامة العواقب رافعة للعتب عن الملقين أنفسهم للهلكة.

«ليس المغر محمود وإن سلماً».

وقول الشيخ رضى الله عنه: «وقد أحب الله من لا محبوب له سواء» فهو كلام يستدعى معرفة المحبة وما هي؟

اعلم أن المحبة هي من أجل مقامات اليقين، حتى اختلف أهل الله أيها أتم: مقام المحبة أو مقام الرضا؟

وإن كان الذى نقول به: إن مقام الرضا أتم؛ لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب، وقوى عليه وجود الشغف، فأداه ذلك إلى طلب شهود ما لا يليق بمقامه، ألا ترى أن المحب يريد دوام شهود الحبيب، والراضى عن الله راضى عنه أشهد أم حجيته؟ والمحب يحب دوام الوصلة، والراضى عن الله راضى عنه وصله أو قطعه إذ ليس هو مع ما يريد لنفسه، بل إنما هو مع ما يريد الله له، المحب طالب للدوام مراسلة الحبيب والراضى لا طلب له.

ولنا في هذا المعنى:

وكنتم قديماً أطلب الوصل منهم      فلما أتانى العلم وارتفع الجهل  
تيقنت أن العبد لا طلباً له      فإن قربوا فضل وإن بعدوا عدل

(١٣٤) الأنبياء: ١٨.

(١٣٥) سبأ: ٤٨.

(١٣٦) الإسراء: ٨١.

وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو  
وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

المحبة أخذه من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه، فترى النفس مائلة لطاعته، والعقل  
متحصناً بمعرفته، والروح مأخوذة في حضرته، والسرّ مغموراً في مشاهدته، والعبد يستزيد فيزاد،  
ونفاتح بما هو أعذب من لذيق مناجاته، فيكسى حلى التقريب على بساط القرية، ويسر أبكار  
الحقائق وثيبات العلوم، فمن أجل ذلك قالوا:

أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون.  
قال له القائل: قد علمت الحب.

فما شراب الحب؟

وما كأس الحب؟

ومن الساقى؟

وما اللذوق؟

وما الشراب؟

وما الرى؟

وما السكر؟

وما الصحو؟

قال: الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب.  
والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب.

والساقى هو المتوكل الأكبر للمخصوصين من أوليائه والصالحين من عبادِهِ وهو الله العالم بالمقادير  
ومصالح أحيائه، فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظى منه بشيء نفساً أو نفسين، ثم أَرخى عليه  
الحجاب فهو الذائق المشتاق.

ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقاً.

ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أتوار الله المخزونة فذلك  
هو الرى.

وربما غاب عن المحسوس والمعتقول. فلا يدري ما يقال، ولا مايقول: فذاك هو السكر.

وقد تدور عليهم الكئوس وتختلف لديهم الحالات، فيردون إلى الذكر والطاعات، ولا يحجبون  
عن الصفات، ومع تزامم المقدورات فذلك وقت صحوهم، واتساع نظرهم، ومزيد علمهم.

فهم بنجوم العلم وقمر التوحيد يبتدون في ليلهم.

وبشموس المعارف يستضيئون في نهارهم.

﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ (١٣٧).

قال الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ أبي الحسن رضى الله عنها:  
الزم الطهارة من الشراب، كلما أحدثت تطهرت من دنس حب الدنيا، كلما ملت إلى شهوة  
أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى أو كدت.

وعليك بحبة الله على التوقير والنزاهة، وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو، كلما أفقت  
أو تيقظت شربت، حتى يكورك وصحوك به، وحتى تغيب بجماله، عن المحبة، وعن الشراب  
والشرب والكأس بما يبدو لك من نور جماله وقُدس كمال جلاله.

ولعلَّيْ أُحَدِّث مَنْ لَا يَعْرِفُ المحبة وَلَا الشراب وَلَا الشرب وَلَا الكأس وَلَا السكر وَلَا الصحو.  
قال له القائل: أجل، وكم من غريق في شيء لا يعرف بفرقه، فعرفني ونهني عما أجهل أو لما  
مُنَّ به عليَّ وأنا عنه غافل.

قلت لك: نعم المحبة آخذة من الله تعالى قلب من أحب بما يكشف له من نور جماله وقُدس  
كمال جلاله.

وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف والأخلاق بالأخلاق والأنوار بالأنوار والأسماء  
بالأسماء والتعوت بالتعوت والأفعال بالأفعال ويتسع فيه النظر لمن شاء الله عزَّ وجل.

والشرب سقى القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب حتى يسكر، ويكون الشرب  
بالتدريب بعد التذويب والتهذيب فيسقى كل على قدره.

فمنهم من يسقى بغير واسطة، والله سبحانه يتولى ذلك منه له.

ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين.

فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذوق بعد شيئاً، فما ظنُّك بعد بالذوق، وبعد بالشرب، وبعد  
بالرى، وبعد بالسكر بالمشروب.

ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى كما أن السكر أيضاً كذلك.

والكأس مغرقة الحق يغرق بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافي لمن شاء من عباده  
المختصين من خلقه، فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة، وتارة يشهدا معنوية، وتارة  
يشهدا علمية، فالصورة حظُّ الأبدان والأنفس، والمعنوية حظُّ القلوب والعقول، والعلمية حظُّ  
الأرواح والأسرار.

فياله من شراب ما أعذبه، قطوئيل لمن شرب منه، وداوم عليه، ولم يقطع عنه.

نسأل الله من فضله: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (١٣٨).

وقد يجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة، وقد يسقون من كتوس كثيرة، وقد  
يسقى الواحد بكأس وكتوس، وقد تختلف الأشربة بحسب عدد الأكوس، وقد يختلف الشرب من

## كأس واحدة وإن شرب منه الجمل الفقير من الأحمية (١٣٩).

(١٣٩) لقد خلق بنا المؤلف في موضوع الحمية في صورة أسمي ما تكون الواطفة والواقع أن الحمية «صراط الأولياء» على حدّ تصوير الشبل.

إنها صراطهم الدائم، حين يصلون إليها تلجج بها ألسنتهم، وتتلّى بها قلوبهم إلى آخر نفس من حياتهم. والناس في الواطفة درجات: فمنهم سلطان التحيين، ومنهم سلطان العاقبين. ومهما جمع بالإتقان أمر الحب، ومهما كان سلطانه فإنه في الأوضاح الشرعية التي التزمها الصوفية له شروط، وله علامات لمن يتأق أن يكون أطلب بدونه. يقول الله تعالى في حديث قدسي:

«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطيته، ولكن استأذني لأعيذته».

وفي هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه في فترة إلى صفاء القلب وطهارة النية بالنسبة لأوليائه.. وأوليائه هم:

﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ومن عاداهم فإنما يعادى - المؤمن التقى.

ونتيجة هذه المداورة ما يقوله الله تعالى:

«آذنته بالحرب».

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه، وأول خطوة في هذا الطريق:

«أداء ما افترضه عليك»

ولن يتأق حب الله سبحانه دون الشرط الأول: شرط القرب منه سبحانه وهو أداء الفرائض.

والحبيب دون أداء الفرائض زيف، وكذب، بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله.

لقد ترك قوم العمل وقالوا: نحن نحسن الظن بالله - وكذبوا كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»!

لا بد من أداء الفرائض، وإلا لما كان لها محلها إلى القرب من الله تعالى من سبقي ومع أداء الفرائض - في وجوب القرب - الإكثار من النوافل. فإذا أكثر من النوافل أحبه الله:

«وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»!

ويتروى على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي.

ويربط أسلافنا - رضوان الله عليهم - ربطاً محكمًا بين محبة الله سبحانه وأتباع رسول الله ﷺ. متتاسقين في ذلك مع توجيه الله سبحانه:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

وهذا الربط معناه: الربط بين محبة الله تعالى والعمل.

ومقدمات محبة الله تعالى - في توفيقه - هي العمل، ومن نتائج محبة الله سبحانه: العمل.

يقول الإمام أبو سعيد الخراساني:

«بلغنا عن الحسن البصري رضي الله عنه أن ناساً قالوا - على عهد رسول الله ﷺ:

«يا رسول الله، إنا نحب ربنا حباً شديداً» فجعل الله تعالى لمحبة عليٍّ وأزول عز وجل:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

فمن صدق المحبة أتباع رسول الله ﷺ في هديه وزهده وأخلاقه والتأسي به في الأمور كلها، والإعراض عن الدنيا وزهرها وجمعتها، فإن الله عز وجل جعل محبة عليٍّ الصلاة والسلام علياً ودليلاً وحجة على أمته. ومن صدق المحبة لله تعالى إثار محبة الله عز وجل في جميع الأمور على نفسه وهواها، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك.

ويقول:

فعلامة المحب الموافقة للمحسوب، والتجاري مع طرقاته في كل الأمور، والتقرب إليه بكل حيلة، والخرب من كل ما لا يعينه على مذهبه.

## انعطاف:

ثم اعلم فتح الله بصيرتك لشهود أنواره، ووالى عليك ورود معارفه وأسراره، أن من أجل مواهب الله لأوليائه وجود النيارة.

= أما عن صلة المحبة بالإيمان فإن الإمام الغزالي يقول:  
وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان في أشياء كثيرة إذ قال أبو ذؤين العقيلى: يا رسول الله، ما الإيمان؟  
قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

وفي حديث آخر:

«لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»

وفي رواية: «ومن نفسه».

كيف وقد قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَأُزْوَاجُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا، وَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وَالَّذِي لَا يَهْدِ الْقَوْمُ الْفَاسِقِينَ﴾.

وإذا أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار... احب

ومن أجل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله يحيى بن معاذ: إلهي وأقرب مقيم بفنائك، مشغول وبنائك، صغيراً أخذتني إليك، وسرلتي بمفرتك، وأمكتني من لطفك، وتقلنت في الأحوال وقلبتني في الأعمال: سراً وتوبة، وزهداً وشوقاً، ورضاً وحباً، تسقيني من حياتك، وتهللي في رياضك، ملازماً لأمرك، ومشغوفاً بقولك... ولما طرأ شأني، ولاح طائري، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً، وقد اعتدت هذا منك صغيراً، فلي ما بقيت حولك ذنبتك، وبالضراعة إليك مهمة، لأني محب، وكل محب بحبيبه شغوف، وعن غير حبيبه مصروف.

وبعد:

فإن نعمة محبة الله تعالى هي ما قاله سبحانه عن أوليائه:

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْغَايَةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وهي أيضاً أن يجد حلاوة الإيمان، يقول رسول الله ﷺ:

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان:

١ - أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٢ - وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله.

٣ - وأن يكره أن يهود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار.

ولقد سمع الناس كثيراً عن عاطفة الحب الإلهي عند السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها، وسمعا عن حب الإمام ابن الفارض، والإمام البرعي. ونحب أن نضع بجوار هؤلاء شخصية تعتبرها نموذجاً للصوغية في صفتهم بالله سبحانه: إنها شخصية الإمام الشبلي!

وإذا كان اليم الصغير من الحب الإسلامي قد أخذ فكرة عن الحب عند بعض الصوفية، فإنه لم تتح له الفرصة لأخذ فكرة مستفيضة عن الحب عند الشبلي ولكن المؤرخين لحياة أبي بكر الشبلي يتعدون عن حبه الصفيق وهيامه المستمر. ومنهم مثلاً صاحب الحلية الذي يقول عنه:

ومنهم المجتهد الولهان، والمستلب السكران، الوارد العطشان، اجتذب عن الكدور والأغيار، واستلب إلى الحضور والأنوار، وسقى بالدنان، وأرغن مثلاً ريان - أبو بكر الشهير بالشبلي.

وسرى القارئ أن أسباب المحبة عنده، وأن تمارعه، وأن تصريفها وكل ما يحيط بها تنمى في جو من الانبعاث لرسول الله ﷺ، وشعار من التزام الشريعة القراء، وهكذا يتخذ الصوفية الشريعة والاقتداء برسول الله ﷺ أساساً لكل تصرفاتهم.

أما عن أسباب المحبة، فإنها فيما يرى الشبلي نتيجة «الهمة»!

والهمة عند الصوفية هي التمشير والجهد في العبادة.

ويقول الشبلي:

«إن من ملئت همته ضعفت محبته»

سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: يكون الولي مشحوناً بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهودة، حتى إذا أعطى العبارة كان كالإذن له من الله في الكلام، ويجب أن تفهم أن من أذن له في التعبير بهيت (١٤٠) في سامع الخلق عبارته، وحليت لديهم إشارته.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأتوار، حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر.

ثم اعلم أن مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاعتناء بشهده، قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (١٤١).

وقال سبحانه: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ (١٤٢).

= فمع الهمّة إذن صموداً وهبوطاً تكون المحبة صموداً وهبوطاً.

ولقد جلس عنده جمع من المريدين فوجدهم شغلة لا يذكرون، فقال في حزن:

كفى حزناً بالواله الصب أن يرى منازل من يسوى معطلة قفراً

ويستل مرة عن أعجب شيء فقال:

«من عرف الله ثم عصاه»

ولا يسرّ للمحب شيء أكثر من موافقة من يجب.

قال أبو القاسم عبداً لله بن علي المصري: قال رجل للشبلي:

إلى ماذا تشريع غلوب المشتاقين؟ قال:

«إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته» وأنشد:

أسرُّ بهلكى فيه لائق أسرُّ بما يسرّ الإلف جدا

ولو سئلت عظمى عن سلاهما لأنكرت البلى وسمعت جحدا

ولو أنخرجت من سقمى لنادى لهيب الشوق بى يسأله رداً

ولابد للمحب من الأدب الكامل في القول فضلاً عن السلوك ويقول الشبلي:

«الانسياط مع الحق والقول ترك أدب».

والحبة رقى للمحبوب، وإذا سألت عن الفرق بين رقى العبودية ورقى المحبة فإن أحمد بن محمد بن عمران قال:

سمعت الشبلي - وسئل - فقبل: ما الفرق بين رقى العبودية ورقى المحبة؟ فقال: كم بين عبد إذا أعتق صار حراً، وعبد كلما

أعتق ازداد رقاً.

ثم أنشأ يقول:

لتحسرن عظمى بعد إذ بليت يوم الحساب وفيها حكم خلق

وقد يسأل إنسان عن تعريف المحبة عند الشبلي: ما هي؟

والجواب: إنه يقول:

«المحبة اتباع أوامر المحبوب، وتجنب نواهي، ومع ذلك فيجب الصدق والإخلاص، وكتمان الخصال مع بذل الجهد في المجاهدة،

ثم بعد ذلك لا توصّل للمحبوب إلا بفضلته ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾.

(١٤٠) بيت: أي حسنت وراقت.

(١٤١) الطلاق: ٣. (١٤٢) الزمن: ٣٦.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (١٤٣).

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٤٤)؟ فمبنى أمرهم في بداياتهم على الفرار من الخلق والافتراء بالملك الحق وإخفاء الأعمال وكنم الأحوال، تحقيقاً لفنائهم، وتثبيتاً لزهدهم، وعملاً على سلامة قلوبهم، وحباً في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكن اليقين، وأيدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفناء، وردوا إلى وجود البقاء، فهناك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم، وإن شاء أظهرهم هادين لعياده إليه، وإن شاء سترهم فاقطعهم عن كل شيء إليه، وظهور الولي ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة الله له، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء بلا الجلاء كما قدمناه، فلما لم يكن الظهور مطلبهم، وأراد الله سبحانه إظهارهم فأظهرهم، تولاهم في ذلك بتأييده وورادات مزیده لقوله ﷺ: يا عبد الرحمن بن سمره لا تطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها (١٤٥).

ومن تحقق منهم بالعبودية لله لم يطلب ظهوراً ولا خفاء، بل إرادته وقف على اختيار سيده له. وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبداً لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه.

ولتختتم هذه المقدمة بذكر كرامات أولياء الله جوازا ووقوعا وأقسام ذلك على سبيل الاختصار، وكون هذا قد سبق إلى الكلام عليه بالإيجاب غيرنا قد أقام لنا الاعتذار، لكننا ننبه على نكت (١٤٦) مفيدة لأولى الألباب، ويكشف عن وجه حسنها ما أسدل عليه من نقاب، ليكون ذلك مهيباً لك لقبول ما تورده عن هذه الطائفة من الكرامات، وما نسنده إليهم من بواهر الآيات إن شاء الله تعالى.

## فصل في الكلام على الكرامات

اعلم أن الكلام في الكرامات ينحصر في طرفين :

الطرف الأول : الجسوان

والثاني : الوقوع.

أما الجسوان فلا خفاء أن ظهور الكرامة من الأولياء من الممكنات؛ لأنه لو لم يكن من الممكنات، لَمَا أن يكون من الواجبات، وما أن يكون من المستحيلات، وباطل أن يكون من المستحيلات فإن المستحيل هو الذي لو قدر وجوده لزم منه محال عقلي، ولا يلزم من تقدير وجود الكرامات محال عقلي، وباطل أن يكون جريان الكرامات على الأولياء وجوبا إذا الطائفة بجمعة على أنه قد يكون الولي ولياً وإن لم يخرق العادة له.

فتعين أن يكون من الجائزات، وكل شيء كان من الجائزات لا يحيله العقل، وكل ما لا يحيله العقل ولم يرد بعدم وقوعه نقل فجائز أن يكرم الله به أوليائه.

ثم إن هذه الكرامات قد تكون طياً للأرض، ومشياً على الماء، وطيراناً في الهواء، وإطلاعا على كوائن كانت وكوائن بعد لم تكن من غير طريق العادة، وتكثيراً لطعام أو شراب، أو إثباتاً بشمرة في غير إبانها، أو اتباع ماء من غير حفرة، أو تسخير حيوانات عادية، أو إجابة دعوة بإتيان مطر في غير وقته، أو صبرا عن الغذاء مدة تخرج عن طور العادة أو إثماراً لشجرة يابسة ما ليس عاداتها أن تكون مثمرة له، وهذه كلها كرامات ظاهرة حسية.

وكرامات هي عند أهل الله أفضل منها وأجل وهي الكرامة المعنوية : كالمعرفة بالله، والخشية له، ودوام المراقبة له، والمسايرة لامتنال أمره ونهيه، والرسوخ في اليقين والقوة والتمكين، ودوام الثقة به، وصدق التوكل عليه، إلى غير ذلك.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول :

الطبي على قسمين : طى أصغر وطى أكبر.

فالطى الأصغر لعامة هذه الطائفة أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها في نفس واحد. والطى الأكبر طى أوصاف النفوس.

وصدق رضي الله عنه فإن طى الأرض لو أعجزك الله عنه وأفقدك إياه ما نقص ذلك من ريتك عنده إذا قمت له بالوفاء في العبودية، وطى أوصاف النفوس لو لم تقدم عليه به لكنت من المخبوتين وحشرت في زمرة الغافلين.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بيزيد والإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة فمن



أعطيتها ثم جعل يشناق إلى غيرها فهو عبد مفتر كذاب وذو خطأ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشناق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا، وكل كرامة لا يصحبها الرضا من الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مثير.

واعلم أن اطلاع أولياء الله على بعض الغيوب لا يحيله العقل وقد ورد به النقل.

قال أبو بكر لعائشة رضى الله عنها في مرض موته وزوجته حامل: إنما هما أخواك وأختاك وبطن خارجة أراها جارية فأخبر بأن في بطن امرأته جارية وكان كما قال رضى الله عنه.

وقال عمر رضى الله عنه: يا سارية الجبل، وسارية بأقصى العراق، فسمع سارية صوته وكان قد أطلعه الله على سارية وقد أحاط به العدو فأمره بالانحياز إلى الجبل فأنحاز هو والجيش الذي كان معه فانتصروا وظفروا وكان قد قال ذلك وهو في أثناء خطبته على المنبر فترك الخطبة. وقال يا سارية الجبل، وعاد إلى خطبته، فجاء بعض الصحابة إلى علي رضى الله عنه فقالوا له: بينما عمر اليوم يطلب إذا ترك خطبته وقال: يا سارية الجبل، ثم عاد إلى خطبته، فقال علي: ويحكم دعوا عمر فإنه ما دخل في شيء إلا كان له المخرج منه، فبعد ذلك قدم سارية وأخبر عن ذلك اليوم أنه سمع. نداء عمر في الوقت الذي نادى فيه عمر (١٤٧).

وقول عثمان رضى الله عنه لداخل دخل عليه وكان قد نظر إلى محاسن امرأة في الطريق: يدخل أحدكم وأثار الزنى بادية في وجهه.

وأما علي بن أبي طالب رضى الله عنه فقد جاء عنه في هذا الباب العجب العجيب حتى إنه ذكر الأخياريون عنه أنه أرجف بالكوفة أن معاوية قد مات فقال رضى الله عنه إذا بلغه ذلك: والله ما مات ولن يموت حتى يملك ما تحت قدمي هاتين، وإنا أراد ابن هند أن يشيع ذلك حتى يستثير علمي فيه، فمن يومئذ كاتب أهل الكوفة معاوية وعلموا أن الأمر صائر إليه.

وحكايات الأولياء في كل عصر ومصر تتضمن ثبوت ذلك بما بلغ حد الثواتر فلا يمكن جحده.

ثم أنا أدلك - رحمك الله - على أمر يسهل عليك التصديق بذلك، وهو أن اطلاع العبد المخصوص على غيب من غيوب الله ليس بجثمانية ولا وجود صورته، وإنما هو بتور الخلق فيه، دليل ذلك قوله ﷺ:

(١٤٧) يقول ابن خلدون في هذا المقام:

(وأما المتصوفة فربما اشتبهت دينية وعبرية عن المقاصد المذمومة أو ربما يقصدون جمع الأمة، والإقبال على الله بالكيفية ليحصل لهم أدواق أهل العرفان والتركيب، وينبشون في رياضهم إلى الجمع، والجور: التقلية بالذكر، فيها تتم وجهتهم في هذه الرياضة، لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله، وإذا عريت عن الذكر كانت شيطانية، وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لمؤلف المتصرف إنما هو بالعرض، ولا يكون مقصوداً من أول الأمر؛ لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله، وإنما هي لتقصص التصرف والاتطلاع على الغيب، وأخسر بها صفقة، فإنها في الحقيقة شرك، قال بعضهم:

«ومن أثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني» أي (فقد قال بأن الله له ثمان - أي أشرك بالله) فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا شيء سواه، وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصل قبل العرض وغير مقصود لهم.

وكثير منهم يفر منه إذا عرض له ولا يحفل به، وإنما يريد الله لذاته لا لغيره، وحصول ذلك ثم معرفته، ويسمون ما يتبع لهم من الغيب والمحدث على الخواطر فحاسة وكشفها، وما يتبع لهم من التصرف كرامة، وليس شيء من ذلك بتذكير في حقهم، وقد ذهب =

«أنقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» (١٤٨).

فكيف يستغرب أن يطلع مؤمن على غيب من غيوب الله بعد أن شهد له الرسول ﷺ أنه إنما ينظر بنور ربه لا بوجود نفسه؟ وكذلك قوله في الحديث الذي تقدم.

فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به - الحديث إلى آخره. ومن كان الحق بصره فليس الاطلاع على الغيب بمستغرب فيه. وفي بعض طرق هذا الحديث: فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً وقلماً وعقلاً ويداً ومؤيداً. فإن قلت: كيف تصنع بهذه الآية؟ وهي قوله سبحانه: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ (١٤٩).

فلم يستثن أحداً إلا الرسول؟

فاعلم أني سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: وفي معناه أو صديق أو ولي (١٥٠).

فإن قلت هذه زيادة على ما تضمنه الكتاب العزيز.

فاعلم أنه إذا قيل إن السلطان لم يأذن اليوم إلا للوزير وحده ربما دخل ممالك الوزير معه.

= إلى إنكاره الأستاذ أبو إسحق الأسطرقيني. وأبو محمد بن أبي زيد المالكي - فراراً من التباس المعجزة بغيرها، والمعلول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحديث فغير كانه. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال:

«إن فيكم محدثين، وإن منهم عمر» (أي فيكم من يغير بالأمر كأنه حدث به).

وقد وقع للصحابه من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضي الله عنه: يا سارية الجبل - وهو سارية بن ذئيم، كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات، وتورط مع المشركين في معتزله وهم بالانزمام، وكان يقر به جيل ينتجهز إليه، فرفع عمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناده:

«يا سارية الجبل» وسمعه سارية وهو يكانه، ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة.

ووقع مثله أيضاً لأبي بكر - رضي الله عنه - في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنها في شأن ما نحلها من أوسق الثمن من حديثه، ثم نهىها على جذاذه لتحوذه عن الورقة، فقال في سياق كلامه... «وإنما هما أخوات وأختاك» فقالت: (إنما هي أسباء، فمن الأخرى) فقال: «إن ذا يطن بشت خارجية أراها جارية» فكانت جارية، وقع في الموطأ في باب: «ما لا يجوز من النحل»، ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم، وإن يعددهم من الصالحين وأهل الاقتداء إلا أن أهل التصوف يقولون: إنه يقل في زمن النبوة، إذا لا يبقى للمريد حالة بضررة النبي حتى أنهم يقولون:

إن المرید إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها.

والله يروّضنا الهداية ويرشدنا إلى الحق... أهد. مقدمة ابن خلدون ٥٣٢/٨ - ٥٣٥ مع تصريف يسير.

(١٤٨) رواه البخاري في التاريخ والترمذي عن أبي سعيد والحكيم الترمذي، والطبراني وابن عدي عن أبي أمامه، وابن جرير عن ابن عمر. والفراسة بكسر الفاء دقة النظر، ووقور العلم بنور البصيرة.

(١٤٩) الجنب: ٣٦، ٣٧.

(١٥٠) في تفسير الألويسي لهذه الآيات... ظاهر الآية أنه تعالى عالم كل شيء وحده لا يظهر على غيبه المختص به وهو ما يتعلق بذاته تعالى وصفاته عز وجل بدلالة الإضافة: «إلا رسولاً» وهو كذلك، فإن غيبه تعالى لا يطلع عليه إلا بالإعلام من رسول ملكي أو بشري، ولا كل غيبه تعالى الخاص مطلع عليه، بل بعضه وأقل القليل منه، فدل المفهوم على أن غير هذا النوع الخاص من الغيب لا منع من اطلاع الله تعالى غير الرسول عليه، فهذا امر الآية دون تصف... إلخ.

وكان الإذن لمتبوعهم إذناً لهم، كذلك الولي إذا أطلعه الله على غيب من غيوبه وإنما ذلك لا تطوارة في جاء النبوة، وقيامه بصدق المتابعة، فما رأى ذلك بنفسه وإنما رآه بنور متبوعه. وأيضاً أن الآية تشير إلى نفى اطلاع العباد على غيب الله إلا من أطلعه الله. وبين سبحانه سبب إطلاعه من أطلعه على غيب من غيوبه وأن ذلك إنما كان لأنه مرضى عنده بقوله إلا من ارتضى.

وقوله من رسول خصّ الرسول بالذكر ولم يذكر النبي ولا الصديق ولا الولي وإن كان كل منهم ممن ارتضى؛ لأن الرسول أولى بذلك مما سواه. أمور تسهل عليك الإيمان بكرامات أولياء الله وأن لا تستكبرها عليهم:

الأول: أن تعلم أن قدرة الله التي لا يكبر عليها شيء هي التي أظهرت الكرامة في هذا الولي فلا تنظر إلى ضعف العبد ولكن انظر إلى قدرة السيد؛ فيجحد الكرامة للولي جحدً لقدرة التقدير؛ وعمى منك من شهود عظيمة وصفه سبحانه وتعالى.

الثاني: أنه ربما كان سبب إنكار الكرامة استكثارها على ذلك العبد الذي أضيفت إليه؛ وذلك العبد إنما أظهرت الكرامة عليه شهادة بصدق طريق متبوعة؛ فهي بالنسبة إلى من ظهرت عليه وهو ذلك الولي كرامة؛ وهي بالنسبة إلى من ظهرت ببركات متابعتة معجزة؛ فلهذا قالوا: كل كرامة لولي فهي معجزة لذلك النبي الذي هذا الولي مُتبع له؛ فلا تنظر إلى افتتاع ولكن انظر إلى عظيم المتبوع.

الثالث: أن تعلم أن الذي أعطاه الله سبحانه لأوليائه من الإيمان واليقين مما أنت مصدق به ومثبت له أعظم مما استغربت به وأكترته، من اطلاع على غيب أو طيران في الهواء، أو مشي على الماء؛ فمثلك إذا استغربت ذلك على المؤمن كمثلك من يستغرب على عبيد من خواص الملك أعطاه الملك سقياً (١٥١) مملوءاً ياقوتاً ثميناً علمت أنت به؛ كل يا قوة تضمنها ذلك السقسط تساوي عشرة آلاف دينار؛ ثم قال ذلك العبد الذي هو من خواص الملك أو قيل عنه: إن الملك قد أعطاه مائة دينار؛ فاستغربت أنت ذلك فهل يستصوب استغراك هذا ذوقهم ولب؟ وما أكرم الله تعالى العباد في الدنيا والآخرة كرامةً تمثل كرامة الإيمان به والمعرفة بربوبيته؛ لأن كل خير من خيور الدنيا والآخرة إنما هو فرع الإيمان بالله من أحوال ومقامات، وأوردة وواردات، وكل نور وعلم وفتح، ونفوذ إلى غيب وسماع مخاطبة؛ وجريان كرامة؛ وما تضمنته الجنة من حور وقصور وأنهار وثمار، وكان به أهلها فيها من رضى عن الله؛ ورضى من الله؛ ورؤية له؛ فكل ذلك إنما هو من نتائج الإيمان؛ ووجود آثاره وإمداد أنواره.

جعلنا الله وإياك من المؤمنين بربوبية الإيمان الذي رضيه لخاصة عبادته؛ وبسطننا وإياك بالتسليم له في مراده.

واعلم أن من الناس من واجهه الخذلان من الله فأنكر كرامات أولياء الله أصلاً، فنعود بالله من

(١٥١) سقسطاً؛ وعاء يحى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء مفتوح الآول والوسط.

هذا المذهب؛ وهو حقيق بأن لا يذكر؛ لكن سبب ذكره أن تعلم أن الله إذا أراد أن يضل عبداً لم ينصره عقل ولم ينقده (١٥٢) علم.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُردِ اللهَ فتنتهُ قلنَ قلَّكْ له مِن الله شيئاً﴾ (١٥٣).

وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾ (١٥٤).

وقال سبحانه: ﴿وهو يُجير ولا يُجَار عليه﴾ (١٥٥).

لذلك كانت الأحوال والأقوال والأفعال ومراتب الإنزال موقوفة على توقيفه، لا توجب أنواراً، ولا تستحق قبولاً، ولا يستوجب صاحبها إقبالاً حتى ينصره التوفيق، ولعزازه قدره عند الله لم يذكره في كتابه العزيز إلا في موضع واحد، فقال سبحانه: ﴿وما توفيقى إلا بالله﴾ (١٥٦)، والجالب للتوفيق وعلامته صدق الرجعى إلى الله في أول كل قمل وترك بتحقيق الفقر والفاقة إليه، والانعماس في بحر المذلة والمسكنة بين يديه، واستصحاب ذلك إلى الفراغ ومن بعد ذلك أبداً، وقد قال سبحانه:

﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ (١٥٧).

وقال: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ (١٥٨).

فلا تدخل جنة علمك وعملك وما أعطيت من نور وفتح، فتقول كما قال من خذل فأخبر الله عنه:

﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبعد هذه أبداً﴾ (١٥٩) الآية.

ولكن ادخلها كما بين لك وفل كما رضى لك:

﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ (١٦٠).

وأفهم ههنا قوله عليه السلام: «لا حول ولا قوة إلا بالله كثر من كنوز الجنة» وفي رواية: كثر من كنوز تحت العرش (١٦١).

فالترجمة (١٦٢) ظاهر الكنز والمكنوز فيها هو صدق التبرى من الحول والقوة؛ والرجوع إلى حول الله وقوته.

(١٥٢) وفي ذلك يقول الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى

فسأول ما يعين عليه اجتهد

(١٥٧) آل عمران: ١٢٣.

(١٥٨) التوبة: ٦٠.

(١٥٩) الكهف: ٣٥.

(١٦٠) الكهف: ٣٩.

(١٥٣) المائدة: ٤١.

(١٥٤) البقرة: ٢٠٩.

(١٥٥) المؤمنون: ٨٨.

(١٥٦) هود: ٨٨.

(١٦١) روى البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، ولفظه فيها روى الشيخان عن أبي موسى قال: قال لي رسول الله ﷺ: ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة؟ فقلت: بلى يا رسول الله. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

(١٦٢) أى اللفظ والكلام المنطوق به.

ومن أنكر كرامات أولياء الله فالدلائل الثقلية والعقلية تردّ عليه، ويخشى على من هذا مذهبه سوء الخاتمة.

ومن الناس فرقة أخرى صدقوا بكرامات الأولياء الذين ليسوا في زمينهم كمعروف وسرى والجنيّد وأشباههم وكذبوا بكرامات أولياء زمانهم، فهم كما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه ما هي إلا إسرائيلية صدقوا موسى وعيسى عليهما السلام وكذبوا بمحمد ﷺ لأنهم أدركوا زمانه. وفرقة أخرى يصدّقون بأن في ملكة الله أولياء لهم كرامات من غير أن يسلموا ذلك لأحد من أهل زمانهم معينا، فكل من ذكر لهم أنه وليّ أو نسبت إليه كرامة دافعوا إثبات ذلك بتقاييس اقتضتها عقولهم المعقولة بعقال الفعلة، المخدوعة بتأبئة الهوى، فلن يجرى عليهم هذا التصديق وجود الاقتداء ولا إشراق نور الاهتداء؛ إذ الاقتداء لا يكون بوليّ مجهول العين في كون الله، بل الاقتداء إنما يكون بوليّ ذلك الله عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته في وجود خصوصيته، وألقت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونات نفسك وكماثنها ودقاتنها، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار عما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله، ويوقفك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك، فيفيدك معرفة إساءة نفسك الحارب منها وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه، والقيام بالشكر إليه، والدوام على محرّثات الساعات بين يديه (١٦٣).

فإن قلت: فأين من هذا وصفه؟ لقد دلتني على أغرب من عتقاء مغرب. فأعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالّين، وإنما قد يعوزك وجود الصديق في طلبهم، جد صدقاً تجد مرشدًا، وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله: قال الله سبحانه:

﴿أَمِّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (١٦٤).

وقال سبحانه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (١٦٥).

فلو اضطرت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظعان للقاء، والحائف للأمن؛ لوجدت ذلك

(١٦٣) يجب على المريد أن يتأدب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدًا، يقول أبو يزيد البسطامي: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان.

وقال أبو علي الدقاق: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تروق لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقة نفسًا فنفْسًا، فهو عايد هواء لا يجد نفاذًا.

ويشترط الرازي في الشيخ أن يكون مخلصًا صادقًا قد انتهج الصراط المستقيم وأن يكون سالكًا؛ أما السالك فلأن الوصول تارة بالبدنية: وقال تعالى: «الله يجيبني إليه من يشاء» ويهدي إليه من ينيب، وأخرى بالسلوك.

والأول لا يصح أن يقتدى به لأنه مثل من وجد كنزًا غنيًا، فإنه وإن كان ذا مال لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال. فلا ينفع به التلقية الطالب لتعلم كيفية الاكتساب، وأما الثاني فهو الذي يصلح لتربية المريد لأن من سلك الطريق، وعرف مراحلها ومنازلها، وأطلع على منازلها ومعاييرها أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل، والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل.

(١٦٤) النمل: ٦٢.

(١٦٥) محمد: ٢٦.

أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريباً ولك عجباً، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك؛ ولتوجه الحق بتبيين ذلك إليك؛ فهذا الكلام في طريق الجواز والوقوع جميعاً.

وذكر أعيان الكرامات التي اتفقت للسلف رضى الله عنهم لا يستطيع حصرها؛ وقد أشيع القول فيها الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته وأفرد له باباً.

واعلم أن الكرامة تارة تظهر للولي في نفسه.

وتارة تظهر فيه لغيره.

فإن ظهرت للولي في نفسه فالمراد تعريقه بقدرة الله وفرديته وأحدثته؛ وأن قدرته لا تتوقف على الأسباب؛ وأن العوائد هو حاكم عليها ليس هي حاكمة عليه.

وإنما جعل العوائد والوسائط والأسباب حجب قدرته، وسحب شمس أحدثته؛ فواقف عندها مخدول، وتأخذ منها إليه هو بالعناية موصول.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأولية، بجمع لا يفترق، وأمر لا يتعد كإنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد.

أيستوى من تعرّف الله إليه بتوّه بمن تعرّف إلى الله بعقله.

ولأجل أنها تثبت لمن أظهرت له ربما وجدها أهل البدايات في بداياتهم وفقدوا أرياب النهايات في نهايتهم؛ إذ ما عليه أهل النهاية في الرسوخ في اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى مثبت، وهكذا كان السلف رضى الله عنهم لم يوجههم الحق سبحانه إلى وجود الكرامات الحسية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإلهادية، ولا يحتاج جبل إلى مرسة، فالكرامة دافعة لزلزلة الشك في المنّة، ومعرفة بفضل الله فيمن أظهرت عليه، وشاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه.

والناس في الكرامات على ثلاثة أقسام:

قوم يجعلونها غاية الأمر، فإن وجدوها عظموا من أظهرت عليه، وإن فقدوها لم يتوجهوا بالتعظيم إليه.

وقسم قالوا: وما هي الكرامات؟ إنما هي خدع يخدع بها أهل الإرادة ليقفوا على حدودهم، وحتى لا يلجوا مقاماً ليس هو لهم، حتى قال أبو تراب النخشي لأبي عباس الرقي: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يكرم الله بها عباده؟ فقال: ما رأيت أحداً إلا وهو يؤمن بها. فقال: من لم يؤمن بها فقد كفر، إنما سألتك من طريق الأحوال.

فقلت: ما أعرف لهم قولاً.

فقال: بلى قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع في حالة السكون إليها. فأما من لم يقتصر ذلك ولم يسكنها فذلك مرتبة الربانيين.

وكان هذا من أذى تراب بعد أن عطش أصحابه فضرب بيده الأرض فنبع الماء.  
فقال فتى هنالك: أريد أن أشربه في قدح.  
فضرب بيده إلى الأرض فتناولته قدحاً من زجاج أبيض فشرب وسقانا.  
قال أبو العباس الرقي: وما زال القدح معنا إلى مكة.  
والمقول الفصل في ذلك أنه لا ينبغي أن تطلب، أدباً مع الله، ومن أظهرت عليه عظم لانتها شهادة  
له بالاستقامة مع الله.  
القسم الثاني: وهو أن تظهر الكرامة في الولي لغيره، فالمراد بذلك تعريف ذلك العبد الذي  
شهد بها بصحة طريق هذا الولي الذي أظهرت عليه الكرامة؛ إما أن يكون جاحداً فيرجع إلى  
الاعتراف، أو كافرًا فيعود إلى الإيمان، أو شاكاً في خصوصية ذلك العبد فأظهرت عليه ليعرفك الله  
بما فيه من ودائع الإحسان.  
وقد انبسط الكلام في هذه المقدمة، وما كان لنا باختيار، ولكن قد تضمنت علومًا وأسرارًا،  
وأطلعت على من له نصيب من المنة مشرقاً وأنوار.  
وهذا أو أن ابتدأنا بما قصدنا، وإظهارنا ما إليه صمدنا (١٦٦)، والله هو القائم بالبيان، وهو ولي  
الفضل والإحسان. له الحمد كما يجب لجلاله، والشكر لتوالي نعمه وأفضاله، وهو حسبنا ونعم  
الوكيل.  
وأما الكتاب فهو ينقسم كما تقدم إلى عشرة أبواب:





## الباب الأول

في التعريف بشيخه الذي أخذ عنه هذا  
الشأن، وشهادة من عاصره من أهل زمانه من  
العلماء الأعيان، إنه قطب الزمان والحامل في  
وقته لواء أهل العيان

وهو الشيخ الإمام حجة الصوفية علم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، والمنفرد في زمانه  
بالمعارف السنية والمفاخره العالم بالله، والدائل على الله، زمزم الأسرار ومعدن الأنوار والقطب  
الغوث الجامع: تقي الدين أبو الحسن علي بن عبيد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن  
حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطل بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن  
الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

عرف بالشاذلي.

منشؤه بالمغرب الأقصى.

ومبدأ ظهوره بشاذلة: بلدة على القرب من تونس، وإليها نسب.  
له السياحات الكثيرة، والمنازلات الجلية، والعلوم الغزيرة، لم يدخل في طريق الله حتى كان يعدّ  
للمناظرة في العلوم العظيمة، ذا علوم جمة.

ذكره الشيخ صفى الدين بن أبي المنصور رضي الله عنه في كتابه، وأثنى عليه الثناء الكبير.

وذكره الشيخ قطب الدين القسطلاني رضي الله عنه في جملة من لقيه من المشايخ، وأثنى عليه.

وذكره الشيخ أبو عبد الله بن النعمان رضي الله عنه، وشهد له بالقطبانية.

وذكره الشيخ عبد الغفار بن نوح رضي الله عنه في كتابه الوصيد، وأثنى عليه.

لم يختلف في قطبانيته ذو قلب مستنير، ولا عارف بصير، جاء في هذه الطريق بالعجب العجيب،  
وشرع من علم الحقيقة الأطناب<sup>(١)</sup>، ووسع للمسالكين الرحاب، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتي  
الإسلام تقي الدين محمد بن علي القشيري رحمه الله يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ  
أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه.

وأخبرني الشيخ العارف مكي بن الأسمر رضي الله عنه قال:

(١) الأطناب: جمع طناب وطنب هو حبل الحياء والسرائق ونحوها، وما يشد به البيت من الحبال بين الأرض والفرانق.

حضرت بالنصورة في خيمة فيها الشيخ الإمام مقي الأنام عز الدين بن عيد السلام، والشيخ  
مجد الدين بن تقي الدين علي بن وهب القشيري المدرس، والشيخ محيي الدين بن سراقه،  
والشيخ مجد الدين الأحمسي، والشيخ أبو الحسن الشاذلي، رضي الله عنهم: ورسالة القشيري تقرأ  
عليهم، وهم يتكلمون، والشيخ أبو الحسن صامت، إلى أن فرغ كلامهم فقالوا:

يا سيدي تريد أن نسمع منك.

فقال: أنتم سادات الوقت وكبرأؤه، وقد تكلمتم.

فقالوا: لا بد أن نسمع منك.

قال: فسكت الشيخ ساعة، ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة.

فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال:

اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله (٢).

وأخبرني الشيخ أبو عبد الله بن الحاج قال: أخبرني الشيخ أبو زكرياء يحيى البليسي قال:  
صحبت الشيخ أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه ثم سافرت إلى الأندلس، فقال لي الشيخ  
أبو الحسن عند وداعه إياه: إذا وصلت إلى الأندلس فاجتمع بالشيخ أبي العباس بن مكتون فإن  
أبا العباس بن مكتون اطلع على الوجود، وعرف حيث هو، ولم يطلع الناس على أبي العباس  
فيعلمون حيث هو. قال: فلما جئت إلى الأندلس جئت إلى الشيخ أبي العباس بن مكتون فحين  
وقع بصره علي قال لي ولم يعرفني قبل: جئت يا يحيى، جئت يا يحيى، الحمد لله على اجتماعك  
بقطب الزمان، يا يحيى، الذي أخبرك به الشيخ أبو الحسن لا تخبر به أحدا.

أخبرني رشيد الدين بن الرايس قال: تخصمت أنا وبعض أصحاب المشايخ فأتيت إلى الشيخ  
أبي الحسن فذكرت مقاولتنا له فقال الشيخ: كنت تقول له: أنا رباني القطب، ومن رباه القطب  
ربته أربعون بدلاً (٣).

وأخبرني والدي رحمه الله قال: دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه فسمعت  
يقول: والله لقد تسألوني عن المسألة لا يكون عندي لها جواب فأرى الجواب مسطراً في الدواة  
والحصير والحائط.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي يوماً:

والله إنه ليتزل على المدد فأرى سريانه في الخوف في الماء، والطائر في الهواء، وكان الشيخ أمين  
الدين جبريل حاضراً فقال للشيخ أبي الحسن: فأنت إذا القطب، فأنت إذا القطب. فقال الشيخ

(٢) أي أنه ليس علم كتب ولا دراسة، وإنما هو إلهامات وتجليات من الحق سبحانه في جانب المعرفة، والله سبحانه وتعالى  
يقول عن عبد من عباده: ﴿وعلّمناه من لدنا علماً﴾.

(٣) ورد في السنة المطهرة أحاديث صحيحة وحسنة عن الأبدال تذكر فيها قوله ﷺ: «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلاً،  
قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً» رواه الإمام أحمد: «الأبدال في أمم ثلاثون، بهم  
تقوم الأرض، وبهم تخطرون، وبهم تنصرون» رواه الإمام أحمد.

«الأبدال في أهل الشام، وبهم ينصرون، وبهم يرتقون» رواه الطبراني عن عوف بن مالك، وروى له السيوطي بالحسن.

أبو الحسن: أنا عبدالله، أنا عبدالله.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: والله ما رآني الله ولا وضع حبة في قلبي قبل أن يوليه، ولا رفض عبداً إلا وألقى بغضه في قلبي قبل أن يرفضه. وأخبرني بعض أصحابنا قال: لما رجع الشيخ أبو الحسن من الحج أتى إلى الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام قبل أن يأتي منزله فقال له: الرسول ﷺ يسلم عليك. قال: فاستصفر الشيخ عز الدين نفسه أن يكون أهلاً لذلك، قال: فدعا الشيخ عز الدين إلى خانات الصوفية بالقاهرة وحضر معه محيي الدين بن سراقه وأبو العلم ياسين أحد أصحاب الشيخ العارف بالله محيي الدين بن عربي، فقال الشيخ محيي الدين بن سراقه للشيخ عز الدين: ليهنكم ما سمعنا يا سيدي، والله إن هذا لشيء يفرح به أن يكون في هذا الزمان من يسلم عليه رسول الله ﷺ، فقال الشيخ عز الدين: الله يسترنا. فقال الشيخ أبو العلم ياسين: اللهم افضحنا حتى يتبين الحق من الميطل. ثم أشاروا للقول أن يقول وهو من البعد بحيث لا يسمع ما دار بينهم فكان أول ما قال: صدق المحدث والحديث كما جرى وحديث أهل الحق ما لا يفترى

فقام الشيخ عز الدين وطاب وقته وقام الجميع لقيامه.

وأخبرني الفقيه مكي الدين الأسمر رضي الله عنه قال: سمعت مخاطبة الحق فقلت له: يا سيدي كيف كان ذلك؟ فقال: كان في الإسكندرية بعض الصالحين صاحب الشيخ أبا الحسن ثم كثر عليه ما سمعه منه من العلوم الجليلة والخبرات فلم يسع ذلك عقله، فانتقطع عن الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه، فإذا ليلة من الليالي وأنا أسمع أن فلانا دعانا في هذا الوقت بست دعوات فإن أراد أن يستجاب له فليوال الشيخ أبا الحسن الشاذلي دعانا بكذا دعانا بكذا حتى بعثت لي الست دعوات، قال: ثم انفصل الخطاب عني، فنظرت إلى المتوسط في ذلك الوقت فعرفت الوقت الذي كان ذلك الرجل دعا فيه، ثم أصبحت فذهبت إلى ذلك الرجل فقلت له: دعوت الله البارحة بست دعوات دعوت بكذا، دعوت بكذا، إلى أن عدت له الست دعوات فقال: نعم. فقلت له: أترى أن يستجاب لك؟ قال: ومن لي بذلك؟ فقلت له: قيل لي: إن أراد أن يستجاب له فليوال الشيخ أبا الحسن الشاذلي.

وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: كان الشيخ قد قال لي:

إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تسأل من أحد شيئاً، فمكثت على ذلك سنة ثم قال لي: إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تقبل من أحد شيئاً، فكان إذا اشتد الوقت على أخرج إلى ساحل بحر الإسكندرية ألقط ما يرميه البحر بالساحل من القمح حين يرفع من المراكب، فانا يوماً على ذلك وإذا عبد القادر النقاد - وكان من أولياء الله - يفعل كفعلي، فقال لي: أطلعت البارحة على مقام الشيخ أبي الحسن.

فقلت له: وأين مقام الشيخ؟

فقال: عند العرش.

فقلت له: ذلك مقام تنزل لك الشيخ فيه حتى رأيته.

ثم دخلت أنا وهو على الشيخ، فلما استقر بنا المجلس قال الشيخ رضي الله عنه:  
 رأيت البازحة عبد القادر النقاد في المنام فقال لي:  
 أعرضي أنت أم كرسى؟  
 فقلت له:

دع عنك ذا.

الغاية أرضية.

والنفس سماوية.

والقلب عرشي.

والروح كرسى.

والسر مع الله بلا أين.

والأمر يتنزل فيما بين ذلك ويتلوه الشاهد منه.

وقدم بعض الدالين على الله إلى الإسكندرية فقال الشيخ مكين الدين الأسمر: هذا الرجل  
 يدعو الناس إلى باب الله وكان الشيخ أبو الحسن يدخلهم على الله.  
 وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: كنت مع الشيخ أبي الحسن بالقبروان.

وكان شهر رمضان.

وكانت ليلة جمعة.

وكانت ليلة سبع وعشرين.

فذهب الشيخ إلى الجامع وذهبت معه.

فلما دخل الجامع، وأحرم، رأيت الأولياء يتساقطون عليه كما يتساقط الذباب على العسل، فلما  
 أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ:

ما كانت البازحة إلا ليلة عظيمة، وكانت ليلة القدر، ورأيت الرسول ﷺ وهو يقول:

يا عليّ طهر ثيابك من الدنس، تحفظ بجد الله في كل نفس.

قلت: يا رسول الله: وما ثيابي؟

قال: اعلم أن الله قد خلع عليك خمس خلع:

خلعة المحبة.

وخلعة المعرفة.

وخلعة التوحيد.

وخلعة الإيمان.

وخلعة الإسلام.

فمن أحب الله هان عليه كل شيء.

ومن عرف الله صغر لديه كل شيء.

ومن وحد الله لم يشرك به شيئاً.

ومن آمن بالله آمن من كل شيء.  
ومن أسلم لله ما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره.  
ففهمت حينئذ معنى قوله عز وجل: (وثيابك فطهر).  
وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه:

جلّيت في ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقًا بساق العرش وهو رجل أشقر أزرق العينين، فقلت له: ما علومك وما مقامك؟ فقال: أما علومى فأحد وسبعون علمًا، وأما مقامى فأربع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال، قلت له: فما تقول في شيخى أبا الحسن الشاذلى؟ قال: زائد على بأربعين علمًا، هو البحر الذى لا يحاط به.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: قيل للشيخ أبى الحسن: من هو شيخك يا سيدى؟ فقال: كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسب لأحد، بل أعوم في عشرة أبحر: خمسة من الأدميين النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وخمسة من الروحانيين جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح الأكبر.

وأخبرنى ولده سيدنا ومولانا الإمام العارف شهاب الدين أحمد قال: قال الشيخ عند موته: والله لقد جئت في هذا الطريق بما لم يأت به أحد.

ومن الأمر المشهور أنه لما دفن بحميرا وغسل من مائها كثر الماء بعد ذلك وعذب حتى صار يكفى الركب إذا نزل عليه ولم يكن قبل ذلك كذلك.

وكتب إلى الشيخ أبو عبد الله بن النعمان رضى الله عنه أبحاثًا بوصفها بالشيخ أبى العباس رضى الله عنه:

عطاء إله العرش فى الثغر أحمد سررت به فى الصحب فأله أحمد  
تم يقول فى الشيخ أبى العباس رضى الله عنه:

ووارث علم الشاذلى حقيقسة وذلك قطب فاعلموه وأوحد  
رأيت له بعد المعات عجائبها تدل على من كان للفتح يحدد

قالذى عنى الشيخ أبو عبد الله بقوله: «رأيت له بعد المعات عجائبها» أن الماء حلا فوق ما كان وكثر لما غسل منه.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: قال الشيخ: قيل لى:

ما على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام.  
ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم.  
ولا على وجه الأرض مجلس فى علم الحقائق أبهى من مجلسك.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: لما نزلت بتونس حين أنبت من «مرسية» وأنا إذ ذاك شاب فسمعت بذكر الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه:

فقال لى رجل: تمضى بنا إليه؟

قلت: حتى أستخبر الله، فتمت تلك الليلة، فرأيت كأتى أضعده إلى رأس جبل، فلما علقت فوقه رأيت هنالك رجلاً عليه برنس أخضر وهو جالس، وعن يمينه رجل، وعن يساره رجل، فنظرت إليه فقال لى:

عشرت على خليفة الزمان.

قال: فانتبهت، فلما كان بعد صلاة الصبح، أتانى الرجل الذى دعانى إلى زيارة الشيخ فمست معه.

فلما دخلنا على الشيخ رأيته على الصفة التى رأيته فوق الجبل، قال: فدهشت، فقال لى:

عشرت على خليفة الزمان. ما اسمك؟

فذكرت له اسمى ونسبى.

فقال لى: رفعت إلى منذ عشرة أعوام.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: لما قدمنا من المغرب إلى الإسكندرية نزلنا عند عمود السوارى من ظاهرها، وكان وصولنا عند اصفار الشمس، وكانت بنا فاقة وجوع شديد، فبعث لنا رجل من عدول الإسكندرية طعاماً، فلما قيل للشيخ عنه قال: لا يأكل أحد منه شيئاً، فبتنا على ما نحن عليه من الجوع، فلما كان عند الصبح صلى بنا الشيخ وقال: مدوا السباط وأحضروا ذلك الطعام. ففعلنا وتقدمنا فأكلناه، فقال الشيخ رضى الله عنه: رأيته فى المنام قائلاً يقول لى: أحلّ الحلال ما لم يخطر لك على بال، ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت ليلة من الليالى نائماً بالإسكندرية وإذا قاتل يقول: مكة والمدينة!

فلما أصبحت عزم على السفر.

وكان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه بالمقسم بالقاهرة، فسافرت إليه، فلما مثلت بين يديه قال لى:

مكة والمدينة.

فقلت: لأجل ذلك جئت يا سيدى.

قال: اجلس، فجلست، وإذا رجل داخل عليه وقال:

يا سيدى عزم على الحج، وما معى شىء من الدنيا.

فقال لى الشيخ: أى شىء معك؟

قلت: عشرة دنانير.

قال: ادفعها لهذا الرجل، فدفعتها له.

فقال لى الشيخ: إذا كان غداً أخرج إلى الساحل واشترى لى عشرين أردب قمح.

فأصبحت ونزلت إلى الساحل واشترت عشرين أردبًا قمحًا وحملته إلى المخزن وأتيت إلى الشيخ فقال لي:

هذا القمح قليل لي أنه مسوس ما تأخذ منه شيئًا.

فبقيت متحيرًا لا أدري كيف أصنع فبقيت ثلاثة أيام لا يطالبني صاحب القمح بالثمن فلما كان اليوم الرابع وإذا رجل يطوف عليّ فلما رأيته قال:

أنت صاحب القمح؟

قلت: نعم.

قال: تأخذ فيه غائدة ألف درهم؟

قلت: نعم.

قال: فوزن لي ألف درهم فوضع الله البركة فيها فلو قلت لي أنفق منها إلى اليوم لصدقت.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه:

سافرنا مع الشيخ رضي الله عنه في السنة التي توفى فيها، فلما كنا عند أحميم قال لي الشيخ: رأيت البارحة كائن في جلية وأنا في البحر، والرياح قد اختلقت، والأمواج قد تلاطمت، والمركب قد انفتح، وأشرفنا على الفرق، فأتيت إلى جانب المركب، وقلت: أيها البحر، إن كنت أمرت بالسمع والطاعة لي فالثقة لله السميع العليم، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم، فسمعت البحر يقول: الطاعة الطاعة.

فلما سافرنا، وتوفى الشيخ رضي الله عنه ودفنناه بحمير من صحراء عيذاب وكنا في جلية، فلما صرنا في وسط البحر، اختلقت الأمواج، وتلاطمت الرياح، وانفتح المركب، وأشرفنا على الفرق، ونسيت كلام الشيخ، فلما اشتد الأمر ذكرت ذلك فأتيت إلى جانب المركب وقلت:

أيها البحر إن كنت أمرت بالسمع والطاعة لأولياء الله فالثقة لله السميع العليم، ما قلت كما قال الشيخ بالسمع والطاعة لي، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم، فسمعت البحر يقول: الطاعة الطاعة.

وسكن البحر وطاب السفر.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: كنت مع الشيخ في بحر عيذاب وكنا في شدة من الريح الأزيب<sup>(٤)</sup>، وكان المركب قد انفتح، فقال الشيخ: رأيت السماء قد فتحت ونزل منها ملكان، أحدهما يقول: موسى أعلم من الخضر، والآخر يقول: الخضر أعلم من موسى. ونزل ملك آخر وهو يقول: والله ما علم الخضر في علم موسى إلا كعلم الملهد في علم سليمان حين قال: ﴿أعطيت بما لم تحيط به﴾<sup>(٥)</sup>، ففهمت أن الله سلمنا في سفرنا فإن موسى سخر له البحر<sup>(٦)</sup>.

(٤) الأزيب: الشديد.

(٥) التمل: ٢٢.

(٦) حيث انطلق البحر معجزة وكرامة لموسى ومن آمن معه حينما قرأوا حارون من فرعون وقومه الذين تبوءهم، قال تعالى: ﴿فأتبعهم مثنيين، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال: كلا إن من ربي سيهدين، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم..﴾ (الشعراء: ٦٠ - ٦٣).

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: قال رجل للشيخ: ما تقول في الخضر أحنى هو أم ميت؟ فقال الشيخ رضى الله عنه: اذهب إلى الفقيه ناصر الدين بن الأبيارى فإنه يفتى أنه حي وأنه نبي والشيخ عبد المعطى لقيه. وسكت ساعة وقال: أنا لقيته وسبأته ووسطاه سواء. وأعلم أن بقاء الخضر قد أجمع عليه هذه الطائفة وتواتر عن أولياء كل عصر لقائه والأخذ عنه واشتهر ذلك إلى أن بلغ الأمر إلى حد التواتر الذى لا يمكن جمعه، والحكايات في ذلك كثيرة.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لقيت الخضر في صحراء عذاب فقال لى: يا أبا الحسن أصحبك الله اللطف الجميل، وكان لك صاحباً في المقام والرحيل.

وذكر الشيخ محيي الدين بن عربى رضى الله عنه أن أبا السعود بن الشبل كان يوماً في مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلانى رضى الله عنه يكتس فيها، فوقف الخضر على رأسه وقال: السلام عليكم. فرفع أبو السعود رأسه وقال: وعليكم السلام. ثم عاد إلى شغلها بما هو فيه، فقال له الخضر: ما بالك لم تهتبل بي كأنك لم تعرفنى فقال أبو السعود: بلى قد عرفتك، أنت الخضر. فقال له الخضر: فما بالك لم تهتبل<sup>(٧)</sup> بي؟ قال: فقال له أبو السعود - والتفت إلى: الشيخ عبد القادر الكيلانى لم يترك في هذا الشيخ فضلة لغیره.

وقال الشيخ محيي الدين بن عربى رضى الله عنه مخبراً عن نفسه كنت أنا وصاحب لى بالمغرب الأقصى بساحل البحر المحيط وهناك مسجد يأوى إليه الأبدال، فرأيت أنا وصاحبى رجلاً قد وضع حصيراً في الهواء على مقدار أربعة أذرع من الأرض وصلى عليها فجئت أنا وصاحبى ووقفت تحتها وقلنا:

شغل المحب عن الحبيب سره      في حب من خلق الهواء وسخره  
العبارفون عفسولهم معقولة      عن كل كون ترتضيه مطهره  
فهم لديه مكرمون وعنده      أسرارهم محفوظة ومحرره<sup>(٨)</sup>

قال: فأوجز في صلاته وقال: إنما فعلت هذا المنكر الذى معك وأنا أبو العباس الخضر. ولم أكن أعلم أن صاحبى ينكر كرامات الأولياء فالتفت إلى صاحبى وقلت: يا فلان أكنت تنكر كرامات الأولياء؟ قال: نعم. قلت: فما تقول الآن؟

قال: فما بعد العيان ما يقال، وقال الشيخ عبد المعطى الإسكندراني لتلميذه عند موته: خذ هذه الجبة فطال ما عانت فيها الخضر.

وقالت زوجة القرشي رضى الله عنه: خرجت من عند الشيخ ولم أترك عنده أحدًا فسمعت عنده رجلاً يكلمه، فوفقت حتى انقطع كلامه ثم دخلت فقلت: يا سيدى! خرجت وما كان عندك

(٧) يحر: لم لم تهتبل بي وتفتنم فرجة وبدوى.

(٨) معنى كلام ابن عربى رضى الله عنه: أن المعارف لا يهتم بخوارق العادات، فإنها في الكون ومن الكون. واعتناء المعارف كل اهتمامه - أن يكون سره مع الله وسعاده - كل سعاده - أن يكون مع الكون، وكان ابن عربى بشعره هذا ينتقد هذا الذى يرتفع في الهواء، ولكن هذا الذى يرتفع في الهواء لم يكن يفعل ذلك لهوى في نفسه؛ ولذلك علق قوله تعليقاً لأرضى ابن عربى.



أحد والآن سمعت كلاماً عندك فقال الشيخ: الخضر أتاني بزيتونة من أرض نجد فقال لي: كل هذه الزيتونة ففيها شفاؤك.

فقلت له: اذهب أنت وزيتونتك لا حاجة لي بها.  
وكان الشيخ به داء الجذام.

وقد جاء أنه لما توفي رسول الله ﷺ سمعوا قائلاً يقول من جوف البيت، يسمعون صوته ولا يرون شخصه: إن في الله خلفاً من كل هالك، وعوضاً من كل فائت، وإن المصاب من حرم الثواب. قال الراوي: كانوا يرون أنه الخضر<sup>(٩)</sup>.

واعلم رحمك الله أن من أنكر وجود الخضر فقد غلط.  
أو من قال إنه غير خضر موسى.

أو من قال لكل زمان خضر وأن الخضرية رتبة يقوم بها رجل في كل زمان.  
والمنكر لوجود الخضر معترف على نفسه بأن مئة الله بقاء الخضر لم تواجهه وليته إذ فاته الوصول إليها لا يفوته الإيمان بها.

ولا تقتر بما عساك أن تقف عليه من كلام أبي الفرج بن الجوزي في كتاب سماه: «عجالة المنتظر في شرح حال الخضر» أنكر فيه وجود الخضر وقال: من قال إنه موجود فإنما ذلك هواجس ووساوس وهوس قام به واستدل على عدم وجوده بقوله سبحانه:

﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾<sup>(١٠)</sup>.

فمعجب لهذا الرجل كيف استدلل بهذه الآية ولا دليل فيها! لأن الخلد هو بقاء لا موت بعده، وليس هو المدعى في الخضر، إنما المدعى في الخضر طول إقامة يكون الموت بعدها.  
فاعجبوا رحمكم الله لرجل يصدّق بطول بقاء إبليس وينكر طول بقاء الخضر.

(٩) قال الحافظ البيهقي: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفقيه حدثنا شافع بن محمد، حدثنا أبو جعفر بن سلامة الطحطاوي، حدثنا المزي، حدثنا الشافعي، عن القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص عن جعفر بن محمد عن أبيه - الحديث بطوله - وفيه:

قلما توفي النبي ﷺ وجاءت التعمية سمعوا صوتاً من ناحية البيت: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودرهماً من كل فائت، فبأهله نفوا، وبأهله فارجوا، فإنما المصاب من حرم الثواب، فقال على رضي الله عنه: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر عليه السلام.

وهذا الحديث مرسل وفي إسناده ضعف بحال القاسم العمري هذا، فإنه قد ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه بالكيفية آخرون. ورواه الربيع عن الشافعي عن القاسم عن جعفر عن أبيه عن جده، وفي الإسناد العمري المذكور.

وروى البيهقي عن الحاكم عن أبي جعفر البغدادي حدثنا عبد الله بن الحارث أو عبد الرحمن بن المرتبة الصفاني، حدثنا أبو الوليد الخزرجي، حدثنا أنس بن عياض عن جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله قال: لما توفي رسول الله ﷺ ناداهم مناد، يسمعون الحسن ولا يرون الشخص فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وخلفاً من كل فائت، ودرهماً من كل هالك، فبأهله نفقوا، وبأهله فارجوا، فإنما المحروم من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ثم قال البيهقي: هذان الإسنادان وإن كانا ضعيفين فأحدهما يتأكد بالآخر، ويدل على أن له أصلاً من حديث جعفر.. والله أعلم.

(سيرة ابن كثير)

وما يروونه عن رسول الله ﷺ: لو كان الخضر حياً لزارني فلم يثبتته أهل الحديث.  
فإن قالوا: لو كان ذلك لنقل.

فاعلم أنه ليس كل شيء أطلع الله عليه رسوله ﷺ يلزمه الإعلام به.  
كيف، وقد روى عنه ﷺ أنه قال: علّمني ربي ثلاثة علوم: علم أمرني بإفشائه، وعلم نهائي عن  
إفشائه، وعلم خيرني في إفشائه.

وقال بعض عارفين: إن الله سبحانه أطلع الخضر على أرواح الأولياء فسأل ربه أن يبقيه في  
دائرة الشهادة حتى يراهم شهادة كما رآهم غيباً.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: كنت مع الشيخ في سفر ونحن قاصدون إلى  
الإسكندرية حين مجئنا من المغرب، فأخذني ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله، فأتيت إلى الشيخ  
أبي الحسن رضي الله عنه فلما أحس بي قال: أحمد قلت: نعم يا سيدي قال: آدم خلقه الله بيده  
وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة نصف يوم خمسمائة عام<sup>(١١)</sup> ثم نزل به إلى الأرض، والله ما نزل  
الله بآدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن  
يخلق بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾<sup>(١٢)</sup> ما قال في الجنة ولا في السماء فكان نزوله إلى  
الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده  
بالتكليف، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة، وأنت أيضاً لك قسط من آدم: كانت  
بدانتك في سماء الروح في جنة المعارف فأنزلت إلى الأرض النفس لتعبده بالتكليف، فلما توفرت  
فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة.

وأخبرني بعض أصحاب الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه قال: قال الشيخ ليلة: اجتمع بي  
الشريف البوني، وشرف الدين بن المجلى وأخبراني أنها دخلا على امرأة بغري الإسكندرية، قالوا:  
فقال لنا: أرياني أيديكما فشممت أيدينا، وقالت: أخوان صالحان، ثم قالت: انتهيت في المعرفة إلى  
مقام الحيرة. فقلت: إلهي بم يخرج العارفون من الحيرة؟ فقلت لي: بالتوحيد، فهل فيكم من يعرف  
هذا التوحيد الذي يخرج به العارفون من الحيرة؟ قالوا: فقلنا لها: إنما جئنا لتلمس بركتك، قال:  
ثم قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: ألا دلوها علي من ضيق عليه، ألا دلوها علي من ضيق  
عليه؟ ثم توجه إلى جهتها وقال: التوحيد الذي يخرج به العارفون من الحيرة لا إله إلا هو، يخرج  
العارفون من الحيرة بلا إله إلا هو، فأصبح بعض أصحاب الشيخ فذهب إليها فوجدها وهي  
تقول: استغنيت استغنيت، فعلمنا أن الشيخ أمدها في تلك الساعة.

وأخبرني بعض أصحاب الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه قال: دخل على الشيخ أبي الحسن  
عبد القادر النقاد فقال له الشيخ: يا عبد القادر أيعصى الولي؟ فقال عبد القادر: أي والله الذي  
لا إله إلا هو وهو يطالع عين الحقيقة. فقال الشيخ أبو الحسن: أشهد أنك ولي الله.

(١١) يقول الله تعالى: ﴿وَإِن يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَّا تَعُدُّونَ﴾.

(١٢) الآية: ٣٠.

وقال الشيخ أبو الحسن: كنت في بعض سياحى قد أويت إلى مغارة بالمغرب من مدينة للمسلمين فمكثت ثلاثة أيام لم أذق طعاماً فبعد الثلاثة الأيام دخل على ناس من الروم كانت قد أرسلت سفينتهم هناك فلما رأوني قالوا: فسيس من المسلمين. ووضعوا عندي طعاماً وإداماً كثيراً، فمعبيت كيف رزقت على أيدي الكافرين ومُنعت ذلك من المسلمين، فإذا قائل يقول لى: ليس الرجل من نصر بأحيائه إنما الرجل من نصر بأعدائه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لمت ليلة في سياحى على راية من الأرض فجاءت السباع فطافت بي وأقامت إلى الصباح، فلما وجدت أنسا كأنس وجدته في تلك الليلة فلما أصبحت خطر لى أنه قد حصل لى من مقام الأنس بالله شيء، فبهطت وأدياً، وكان هنالك طيور حجل لم أرها، فلما أحسست بي طارت برة فحقق قلبي رعباً فإذا قائل يقول لى: أيا من كان البارحة بأنس بالسباع، مالك توجه من خفقان الحجل<sup>(١٣)</sup>، ولكنك البارحة بنا والآن أنت بنفسك.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قلت يوماً وأنا في مغارة في سياحى:

إلهى متى أكون لك عبداً شكوراً؟ فإذا قائل يقول لى:

إذا لم تر منعماً عليه غيرك.

فقلت: إلهى كيف لا أرى متعماً عليه غيرى وقد أنعمت على الأنبياء، قد أنعمت على العلماء، وقد أنعمت على الملوك؟ فإذا قائل يقول لى:

لولا الأنبياء لما اهتديت.

ولولا العلماء لما اقتديت.

ولولا الملوك لما أمنت، فالكل نعمة منى عليك.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: جعت مرة ثمانين يوماً فخطر لى أن قد حصل لى من هذا الأمر شيء، وإذا بامرأة خارجة من مغارة ووجهها كأنه الشمس حسناً وهى تقول منحوس منحوس، جاع ثمانين يوماً فأخذ يدل على الله بعمله، وبها أنا لى ستة أشهر لم أذق طعاماً.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كنت في سياحى في مبدأ أمرى حصل لى تردد: هل ألزم البرارى والقفار للتفرغ للطاعة والأذكار، أو أرجع إلى المدائن والديار لصحبة العلماء والأخبار؟ فوصف لى ولى هناك، وكان برأس جبل فصعدت إليه، فلما وصلت إليه إلا ليلاً، فقلت في نفسى: لا أدخل عليه في هذا الوقت، فسمعتة يقول من داخل المغارة: اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك، قرضوا منك بذلك، اللهم وإنى أسألك اعوجاج الخلق على حقى لا يكون ملجئى إلا إليك، قال: فالتفت إلى نفسى وقلت: يا نفس انظرى من أى بحر يغترف هذا الشيخ، فلما أصبحت دخلت إليه فأرعبت من هيئته.

فقلت له:

يا سيدى كيف حالك؟

(١٣) الحجل: يقتضي: إناء اليعاقبة، واليعاقبة ذكورها.

فقال: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار.  
فقلت: يا سيدي أما شكواي من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك من  
برد الرضا والتسليم فلماذا؟  
فقال: أخاف أن تشغلي حلواتها عن الله.

قلت: يا سيدي سمعتك البارحة تقول: اللهم إن قوما سألوكم أن تسخر لهم خلقك، فسخرت لهم  
خلقك، فمضوا منك بذلك، اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون ملجئى إلا إليك،  
فتبسم ثم قال:

يا بني، عوض ما تقول: سخر لي خلقك، قل: يارب كن لي، أتري إذا كان لك أبفوتك شيء؟  
فيا هذه الجناية.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كنت أنا وصاحب لي قد أويتا إلى مغارة تطلب الوصول  
إلى الله فكنا نقول غدا يفتح لنا، بعد غد يفتح لنا، قد دخل علينا رجل له هيبة فقلنا له: من أنت؟  
فقال: أنا عبد الملك، فعلمنا أنه من أولياء الله، فقلنا له: كيف حالك؟ فقال: كيف حال من يقول  
غدا يفتح لي بعد غد يفتح لي؟ فلا ولاية ولا فلاح، يا نفس، لم لا تعبدن الله؟ قال فتفطنا من  
أين دخل علينا فتبنا إلى الله واستغفرنا ففتح لنا.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كنت يوما بين يدي الأستاذ فقلت في نفسي: ليت  
شعري هل يعلم الشيخ اسم الله الأعظم؟ فقال ولد الشيخ وهو في آخر المكان الذي أنا فيه: يا أبا  
الحسن ليس الشأن من يعلم الاسم الأعظم، إنما الشأن من يكون هو عين الاسم، فقال الشيخ من  
صدر المكان: أصاب وتفرس فيك ولدي.

وقيل للشيخ أبي الحسن رضى الله عنه: لم لا تسمع السماع؟ فقال: السماع من الخلق جفاء.  
وأخبرني بعض أصحابنا قال: استشفع طالب بالشيخ أبي الحسن إلى القاضي تاج الدين بن  
بنت الأعرز أن يزداد على مرتبه عشرة دراهم، فذهب الشيخ إليه، فأكبر القاضي تاج الدين بحجىء  
الشيخ وقال يا سيدي قيم جئت؟

قال: من أجل فلان الطالب لزيد في مرتبة عشرة دراهم.  
قال: فقال له القاضي تاج الدين: يا سيدي هذا له في المكان الفلاني كذا، وله في المكان الفلاني  
كذا، وفي موضع كذا وكذا.

قال: فقال له الشيخ أبو الحسن: يا تاج الدين، لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده إياها  
قل أن الله لم يفتع بالجنة للمؤمن جزاء حتى زاده النظر إلى وجهه الكريم فيها.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه سمعت الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ:  
«إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة» (١٤).

فأشكلك على معناه، فرأيت رسول الله ﷺ وهو يقول لى: يا مبارك ذاك غيب الأنوار لا غيب الأغيار.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: سمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ: «من سكن خوف الفقر قلبه قل ما يرفع<sup>(١٥)</sup> له عمل»، فمكنت سنة أظن أنه لا يرفع لى عمل أقول: ومن يسلم من هذا؟ فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام وهو يقول لى: «يا مبارك أهلك نفسك، فرق بين خطر وسكن».

وقال رضى الله عنه: رأيت الصديق فى المنام فقال لى: أتدرى ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قال: قلت: لا أدري. قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد ووجود الراحة منها عند فقد.

وقال رضى الله عنه: استنار قلبي يوما فكنت أشهد ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، فوفعت من هفوة فحجبت عن شهود ذلك، فتعجبت كيف حجبتى هذا الأمر الصغير عن هذا الأمر الكبير، فإذا قائل يقول لى: البصرة كالبحر أدنى شيء يحل فيها يعطل النظر.

ولتقيض عنان المقال لئلا نخرج عن غرض الكتاب، وإلا فكلام الشيخ رضى الله عنه أشهر من أن تنبه عليه، وأكثر ما ذكرته هنا لا يوجد فى الكلام المنسوب إليه، وقد مضى من كلامه فى المقدمة، وسيأتى فى أثناء الكتاب إن الله<sup>(١٦)</sup>، وحسبك من كلامه ما ذكره من كرامات القطب، وما ذكره من طريق الخصوص والعموم، والعلوم والحقائق والأسرار، وحلاوة اللفظ ووجاهته، مع الاشتمال على المعانى الكثيرة، وإهية التى تجدها عند ذكر كلامه أو سماعك إياه، قل أن نجد ذلك فى شيء من كلام أهل الطريق.

أما ما قال فى كرامات القطب فقال رضى الله عنه: للقطب خمس عشرة كرامة فمن ادعاها أو شيئا منها فليبرز يمد الرحمة والعصمة والخلافة والنبابة ومدد حلة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة الحكم والفصل بين الوجودين، وانفصال الأول عن الأول، وما انفصل عنه إلى منتهاه، ومن ثبت فيه، وحكم ما قبل وما بعد، وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم البدء وهو العلم المحيط بكل علم ولكل معلوم بدءا من السرى الأول إلى منتهاه ثم يعود إليه. فهذا معيار أعطاه الله الشيخ يحتج به من ادعى هذه الرتبة العظيمة القائمة بكفالة الأسرار، والمحيطه بمد الأنوار.

وهذا نحو ما ذكره العارف بالله أبو عبد الله الترمذى الحكيم فى كتاب ختم الأولياء له: إن من ادعى الولاية فيقال له: صف لنا منازل الأولياء فذكر مسائل معيارا على من ادعى الولاية<sup>(١٧)</sup>.

(١٥) ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد ضمن الرزق وأقسم على ذلك فقال تعالى: «وروى السماء رزقكم وما نرعدون، فرب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون».

(١٦) انظر سيرة الإمام الشافعى - رضى الله عنه - بالتفصيل فى كتابنا الذى كتبناه عنه - نشر دار الكتب الجديدة (١٧) كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذى، وهو من الكتب التى أثارت اهتمام الكثيرين فى عالم الفكر الإسلامى، واعتُمِدَ به اهتماما كثيرا الإمام محمى الدين بن عربى وتحدث عنه أكثر من مرة - وقد طبع هذا الكتاب حديثا فى بيروت.

ولقد أخبرني الشيخ مكين الدين الأسمر قال: مكثت أربعين سنة يشكل على الأمر في طريق القوم، فلا أجد من يتكلم عليه ويزيل عني إشكاله، حتى ورد الشيخ أبو الحسن فأزال كل شيء أشكل علي.

ولما قدم الشيخ صدر الدين القونوي إلى ديار مصر رسولا اجتماع بالشيخ أبي الحسن، وتكلم بحضرته بعلوم كثيرة، والشيخ مطرق إلى أن استوفى الشيخ صدر الدين كلامه، فرفع الشيخ أبو الحسن رأسه وقال: أخبروني أين قطب الزمان اليوم، ومن هو صديقه وما علومه؟ قال: فسكت الشيخ صدر الدين ولم يرد جوابا.

وطريقه رضى الله عنه طريق الغنى الأكبر، والتوصل العظيم، حتى أنه كان يقول: ليس الشيخ من ذلك على تمبلك، إنما الشيخ من ذلك على راحتك. ونشأ على يده رضى الله عنه رجال.

منهم من أقام بالمغرب كأبي الحسن الصقلي وكان من أكابر الصديقيين، وعبد الله الجببي وكان من أكابر أولياء الله.

ومنهم من أتى معه وهاجر إلى ديار مصر منهم سيدنا ومولانا حجة الصوفية علم أهل الخصوصية شهاب الدين أحمد بن عمر الأنصاري المرسى رضى الله عنه.

ومنهم الحاج محمد القرطبي وأبو الحسن البجاوي وأبو عبد الله البجائي والوجهاني والخراساني ومنهم من صحبه بديار مصر منهم الشيخ مكين الدين الأسمر والشيخ عبد الحكيم، والشيخ الشريف البوني، والشيخ عبد الله اللقاني، والشيخ عثمان البورنجي، والشيخ أمين الدين جبريل. ولكل من هؤلاء علوم وأسرار وإشارات وأصحاب أخذوا عنهم، تركنا تتبع كراماتهم وخصوصياتهم، لئلا نخرج عن غرض الكتاب.

وطريقته رضى الله عنه تنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، والشيخ عبد السلام ينتسب إلى الشيخ عبد الرحمن المدني، ثم واحد عن واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه. وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: طريقتنا هذه لا تنسب للمشاركة ولا للمغاربة، بل واحد عن واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه وهو أول الأقطاب. وإنما يلزم تعيين المشايخ الذين تستند إليهم طريق الإنسان من كانت طريقته يلبس الحرقة فإنها رواية، والرواية يتعين تعيين رجال سندها، وهذه هداية، وقد يجذب الله العبد إليه فلا يجعل عليه منه لأستاذ<sup>(١٨)</sup>. وقد يجمع شمله برسول الله ﷺ فيكون أخلا عنه، وكفى بهذا منه.

ولقد قال لي الشيخ مكين الدين الأسمر رضى الله عنه: أنا ما رباني إلا رسول الله ﷺ وذكر عن الشيخ عبد الرحمن القناري رضى الله عنه أنه كان يقول: أنا لأمته لأحد على إلا لرسول الله ﷺ، وإذا أراد الله أن يتفضل على عبد يغنيه عن الأستاذ حتى لا يكون له فيه سلف.

(١٨) يقول تعالى: هو الله يحيى إني من يشاء.

وقال ملك لبعض جلسائه: إني أريد أن أجعلك وزيراً قال: ليس لي في هذا سلف. قال: إني أريد أن أجعلك سلفاً لمن يعذك.  
ولنقتصر على هذا القدر فإنه كافٍ في التعريف بقدر الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه.  
وما الأمر إلا كما قال القائل:

وقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل  
وبدأنا بذكر الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه وإن كان غرضنا في وضع هذا الكتاب ذكر مناقب  
شيخنا أبي العباس رضي الله عنه، لكن فعلنا ذلك لأمرين:  
أحدهما أن ذلك تعريف بقدر الشيخ أبي العباس رضي الله عنه، لأن شرف التابع بشرف  
المتبوع.

ولأن الشيخ رضي الله عنه هكذا كان شأته: ذكر الشيخ رضي الله عنه والدلالة عليه  
والإعراض عن ذكر خصائصه هو في نفسه، حتى قال له إنسان: يا سيدي، نراك تقول: قال  
الشيخ: وقال أن تسند لنفسك شيئاً، فقال له الشيخ: لو أردت على عدد الأنفاس أن أقول قال الله  
قلت: قال الله، ولو أردت على عدد الأنفاس أن أقول قال رسول الله قلت: قال رسول الله ﷺ،  
ولو شئت على عدد الأنفاس أن أقول: قلت أنا، قلت أنا، ولكن أقول: قال الشيخ وأترك ذكر  
نفسى أدباً معه.

وقد تم الكلام في الباب الأول والحمد لله رب العالمين.





## السَّابُّ الثَّانِي

في شهادة الشيخ له أنه الوارث للمقام  
والحائز قصب السبق بالتمام وإخباره هو عن  
نفسه بما مَنَّ به عليه من النعم الجسام  
وشهادة الأولياء له بأنه بلغ من الوصول إلى  
الله لأفضل مرام

ولنقدم أمام ذلك مقدمة:

اعلم أن الوارث للرجل هو الظاهر بعلمه وحاله، وهو الذي تظهر طريق الموروث على يديه  
يفسّر مجملها وييسط مختصرها، يرفع منارها ويثّ أنوارها، يُعرّف الناس بما كان ذلك الرجل الكبير  
عليه من العلم بالله والمعرفة والنفوذ إليه والاحتطاء من توره، حتى إذا فرط الناس في محبة ذلك  
الرجل الكبير وتعظيمه في حال حياته استذكروا ذلك بعد وفاته؛ لأن كل ما هو مقدور عليه مزهود  
فيه وكل معجوز عنه متطّلع إليه بالشغف، حتى لقد سمعت الشيخ أبا العباس رضي الله عنه يقول:  
يكون الرجل بين أظهرهم فلا يلقون إليه بالا، حتى إذا مات قالوا كان فلان، وربما دخل في طريق  
الرجل بعد وفاته أكثر مما دخل فيها في حياته، والذي ظهر بهذه الأوصاف هو: الشيخ أبو العباس  
رضي الله عنه.

هو الذي بَتّ علوم الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه، ونشر أنوارها، وأبدى أسرارها، وسار  
الناس إليه من أقاصي البلاد، وأقبلوا مسرعين إليه من كل ناد، ففتشأت على يديه الرجال، ونصرها  
وأظهرها بالمقال والفعال، حتى انتشرت في الأفاق الأصحاب، وأصحاب الأصحاب، وظهرت علوم  
الشيخ في مظهرى لسان وكتاب.

وأخبرني الشيخ الصالح الأمين العدل زكي الدين الأسواني قال: قال لي الشيخ أبو الحسن  
رضي الله عنه: يا زكي عليك بأبي العباس فوالله إنه ليأتيه الهدى يقول على ساقية فلا يسي عليه  
المساء إلّا وقد وصله إلى الله، يا زكي عليك بأبي العباس فوالله ما من وليّ له كان أو هو كائن  
إلّا وقد أطلعه الله عليه، يا زكي أبو العباس هو الرجل الكامل.

وسمعت الشيخ أبا العباس يقول عن نفسه: والله ما سار الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف  
حتى يلقوا واحداً مثلنا فإذا لقوه كان يغيتهم، ثم قال: وبالله الذي لا إله إلّا هو ما من وليّ له كان  
أو هو كائن إلّا وقد أطلعتني الله عليه وعلى اسمه ونسبه وكم حظّه من الله.

وبلغني عن الشيخ أبي الحسن أنه كان يقول: أبو العباس شمس وعبد الحكيم قمر،

وعبد الحكيم هذا وليّ كبير من أصحاب الشيخ أبي الحسن وقد تقدّم ذكره.

وسمعت الشيخ أبا العباس يقول: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: سمعت يقال لى: لى تملك أمة فيها أربعة إمام وولى وصديق وسخى.

قال الشيخ أبو الحسن: الإمام هو أبو العباس.

وسمعت الشيخ أبا العباس يقول: ليس الشأن من ملك، الشأن من ملك وملك أن يملك، وأنا والله ملكت وملكك أن أملك من ست وثلاثين سنة.

وسمعت رضى الله عنه يقول: الولي إذا أراد أغنى.

وسمعت يقول: والله ما بيني وبين الرجل إلّا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته.

وسمعت يقول: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: يا أبا العباس ما صحبتك إلّا لتكون أنت أنا، وأنا أنت.

وسمعت يقول: قال لى الشيخ يا أبا العباس فيك ما فى الأولياء، وليس فى الأولياء ما فيك.

وقد أخبرنى بعض أهل البهنا قال: قدم علينا الشيخ أبو العباس فقال: لى الآن خمس وعشرون سنة ما صحبت فيها عن طاعة الله طرفة عين قال: ثم غاب عنا خمس عشرة سنة ثم قدم علينا فقال: لى الآن أربعون سنة ما صحبت فيها عن الله طرفة عين.

وقال يوماً: والله لو صحبت عنى رسول الله ﷺ طرفة عين ما عدت نفسى من المسلمين.

وأخبرنى بعض أصحابه قال: دخل عليه بدمهور إنسان، فلما أراد أن يخرج قال: يا سيدى صافحنى، فإنك قد لقيت بلاداً وعباداً فلما خرج. قال الشيخ: ما الذى يعنى بهلاد وعباد، فقال إنسان: يريد أنك صافحت عباداً وسلكت بلاداً اكتسبت بركاتها، فإذا صافحك حصل له منك بركة، فضحك الشيخ ثم قال: والله ما صافحت بهذه اليد رسول الله ﷺ.

وكان بنشيل القناطر رجل يقال له خليل وهو الآن مدفون بها وكان من أولياء الله قال: دخل على الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فتوضأ عندى، ثم أخذ قوساً لى فجرها ثلاث مرات، فقلت له: يا سيدى من هو الخليفة بعدك؟ فقال: من يأتىك إلى ههنا ويتوضأ نحو وضوئى هذا ويمجر هذا القوس ثلاث مرات، فهو الخليفة بعدى، قال: فدخل على أصحاب الشيخ أجمعهم وأنا أترصد هل يفعل ذلك أحد فلم يتفق، حتى دخل الشيخ أبو العباس رضى الله عنه على فى ذلك المكان وتوضأ نحو وضوء الشيخ ورفع بصره فرأى القوس معلقة فقال: فأولى تلك القوس، فتأولته إياها فجرها ثلاث مرات ثم قال: يا خليل جاءك وعد الشيخ.

ويبلغنى عن الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه أنه قال: هذا أبو العباس منذ نفذ إلى الله لم يحجب ولو طلب الحجاب لم يجده.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت ليلة من الليالى جالساً بالإسكندرية أكتب كتاباً لبعض أصحابنا وإذا بالشيخ خليل هذا فى الهواء، فقلت له: إلى أين انتهت سياحتك فى هذه الليلة؟ فقال: خرجت من نشيل وانتهيت إلى جبال الزيتون بالمغرب الأقصى وأنا أريد أن أذهب إلى

البيت المقدس وأعود إلى بلدتي ولو بسط لي أكثر من ذلك لانهبطت.  
قال الشيخ: فقلت له: ليس الشأن أن تذهب إلى جبال الزيتون وتعود في ليلتك ولكن أنا  
الساعة لو أردت أن أخذ بيدك وأضعك على قاف وأنا ههنا لفعلت.

وأخبرني أبو عبد الله بن سلطان وكان من أولياء الله قال: أردت أن أرسل إلى الشيخ أبي  
العباس عسلًا فقلت لبعض أصحابي فقال لي: عندي نصفتان عسل فإرخ أي جرتان صغيرتان،  
وأني إلى بهما فسدتها وكتبت عليها: وديعة الشيخ أبي العباس المرسى وأتيت بهما إلى بحر تونس  
فأدليت بهما فيه فجاءني الخير من عنده أنها وصلت إلي، وأخبرني بعض أصحابه قال: كان الشيخ يومًا  
جالسًا فقال لبعض أصحابه: قم بناه فأتى إلى بحر السلسلة وأدلى يده وأخرج الجوزين منه.

وأخبرني عبد الدائم ابن الشيخ ماضي، وماضي هذا أحد أصحاب الشيخ أبي الحسن رضي الله  
عنه وهو آخر أبي عبد الله بن سلطان قال: صليت ليلة عند الشيخ أبي العباس قيام رمضان، فلما  
خرج من الصلاة قال لولده: خذ ابن عمك واصعد به إلى فوق، قال: فطلعتنا عند الشيخ فوضع لنا  
قطايف وعسلًا وقال: هذا العسل من عند عمك، فلما ذهبت إلى والدي قال لي: أبطأت الليلة لقد  
شغلت قلبي، قلت له: كنت عند الشيخ أبي العباس وأطعمني قطايف وعسلًا، وقال: هذا العسل من  
عند عمك، فقال أبي: عجيب هذا لي في ديار مصر عشرون سنة ما أرسل إلى أخى شيئًا قط، حتى  
يلغى أن وصول العسل كان على الوجه الذي تقدم.

وكان يقول: والله لو حجبت عن جنة الفردوس طرفة عين ما عذبت نفسي من المسلمين.  
وكان يقول: والله لو فائق الوقوف بعرفة سنة ما عذبت نفسي من المسلمين.  
وسمعت يقول: كان الشيخ إذا أوديت من بعض أصحابه يقول: اصبر فوالله ما هي إلا لك أي  
ما الوراثة إلا لك.

ووجدت بخط ابن ناشئ: أخبرنا الشيخ جلال الدين عن الشيخ أبي الحسن النشاذلي رضي الله  
عنه أنه قال: أليس اليوم أبو العباس ثياب البدلية حين يجيئهم من الحجاز بالمراسي بالجديد، قال  
ابن ناشئ: فكتبت إلى شيعي أبي العباس رضي الله عنه في ذلك:

على ذلك الوجه الجميل تحيي	فيارب بلغني إلى باب قدوق
أقبل أقدمًا سحت نحو خلوة	بها جلوة للشيخ أعظم جلوة
فأخرج من ضيق الضلال إلى الهدى	وصحح لي عقدي وعهدي وثقي
وأشرقت الأنوار من كل وجهة	بتلقيته الأذكار في كسل زورة
وأبصرت ما أبصرت من ذلك الذي	فلا تسألوا يا قوم عن تكلم التي
أنرح عليها لا أبسوح ببعضها	ولكنني إن بحت نحت بعسرق
فسبحان من أعمى القلوب عن الذي	نصسرف في سر القلوب بهمتي
ومن ذا الذي ربي بحضرة شيخه	فأكرم بها من حضرة بعد حضرة
وكان جديراً في الجديد بحلة	غدت حلة الأبدال أول سفرة
كذلك قال الشيخ وهو مسافر	بلا وقفة للركب في عام وقفة

أفى الوقت ربانى كأحمد الذى أتانى قريانى على حين فطرة  
ومدحى له مدح لأحمد الذى علا فى العلا أعلام مقام المحبة  
فصلنى عليه ما سار سائر إلى قبره بعد القيسام بحجسة

وأخبرنى الشيخ الإمام العارف نجم الدين عبد الله الأصهبانى نزىل مكة قال: قال لى شيخ  
صحبه - وأنا ببلاد العجم - : إنك ستلقى القطب بديار مصر فخرجت من بلادى قاصداً لذلك،  
فأنا فى بعض الطريق وإذا بجماعة من التتار قد لاقونى فأمسكونى، وقالوا: هذا جاسوس،  
فكنفونى ثم تشاوروا فى قتلى، فقال بعضهم: نقتله. وقال آخرون: لا تقتله، فبت مكتوفاً ففكرت فى  
أمرى وقلت: خرجت من بلادى أريد لقاء من يعرفنى بأقرب، والله ما جزعى من الموت، ولكن كيف  
أموت قبل أن أتل ما قصدت، فعملت آياتاً ضمنت فيها شعراً لامرئ القيس:

وقد أوطأت نعل كل أرض وقد أتيت نفسى باغتصاب  
وقد طوّفت فى الآفاق حتى رزيت من الغنيمة بالإيساب

فما استنمت الإنشاد إلا وأنا أرى رجلاً كثر اللحية ظاهر الهيبة أتى إلى كلبازى إذا انقض  
على الفريسة فحل كئافى، وقال: قم يا عبد الله فأنا مطلوبك. ثم إنى قدمت ديار مصر فقيل لى: هنا  
رجل يقال له أبو العباس المرسى، فذهبت إليه فإذا هو ذلك الرجل الذى حلّ وثاقى وقال: لقد  
أعجبتى نظمك ليلة أسرت وقولك وذكر الأبيات إلى آخرها.

وأخبرنى الشيخ نجم الدين أيضاً قال: قال لى شيخى: إذا لقيت القطب فلا تصلين وهو وراءك،  
فجئته يوماً إلى الشيخ أبى العباس رضى الله عنه وهو بالإسكندرية عند صلاة العصر فلما دخلت  
عليه قال: أصليت العصر؟ قال: قلت: لا. قال: قم فصل، وفى المكان الذى هو فيه إيوان قبلى  
وبحرى، وكان الشيخ جالساً فى البحرى منها، فلما قمت لأصل ذكرت ما قاله لى شيخى: «إذا  
لقيت القطب فلا تصلين وهو وراءك» وعلمت أنى إذا صليت كان الشيخ خلف ظهري، فأقام الله فى  
قلبي حاله وقلت: حيث ما كان الشيخ هنالك القبلة، فتوجهت لتاحية الشيخ وأردت أن أكبر فقال  
الشيخ: لا، لا، هو لا يرضيه خلاف السنة.

وقال رضى الله عنه: ما أصنع بالكيمياء والله لقد صحبت أقواماً يعبر أحدهم على الشجرة  
البيايسة فيشير إليها فتنثر رمثاً للوقت، فمن صحب هؤلاء الرجال ماذا يصنع بالكيمياء<sup>(١)</sup>.

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: كنت أصحب بمدينة «قوص» الشيخ أبى عبد الله البجائى، أحد  
أصحاب الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، فكان يقع لى الأمر، فأسأل عنه الشيخ  
أبى عبد الله، فيقول لى: ليس هذا الأمر لى، ولكن إن جمع الله بينك وبين الشيخ أبى العباس المرسى  
نجد عنده ما تريد.

قال: ورأيت فى المنام كأن معى طبقاً فيه بسر وحوارى تأكل منه، فعبرت، فقيل لى: هذا رجل  
كبير لك على يديه علوم كثيرة بعدما أتى وقتها، فلما ورد الشيخ أبى العباس إلى مدينة «قوص»

(١) إن الكيمياء بالمعنى القديم - وهو المراد هنا - هى: تحويل العناصر إلى بعضها، كتحويل النحاس مثلاً إلى ذهب، وهذا  
هو المعنى المقصود من كلمة «الكيمياء»، هنا وكان كثير من القدماء يعتقدون أن ذلك ممكن، ويسعون وراء تحقيقه.

دخلت عليه فسألته عما كان يقع له، فأجابني عن ذلك وقال: تذكر رؤياك اليسر والحواري تأكل منه، أنا ذلك الحواري<sup>(٢١)</sup>.

وتجارت الكلام يوماً مع الشيخ مكيين الدين الأسمر رضى الله عنه فقلت له عن الشيخ أبي العباس قال الشيخ كذا وقال كذا إلى أن تمادى بنا الكلام والفقير مكيين الدين يستغرب تلك الحقائق التي أقولها عن الشيخ، إلى أن قال: تقول لك الحق: ما عرفنا الشيخ أبا العباس. فهذا اعتراف من الشيخ مكيين الدين<sup>(٢٢)</sup> الأسمر بعظيم شأن الشيخ أبي العباس وأنه لم يعرفه مع أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي رضى الله عنه شهد للشيخ مكيين الدين الأسمر أنه من السبعة الأبدال.

وكنيت يوماً عند الشيخ أبي العباس الدمهورى، وعنده إنسان من أصحاب الشيخ أبي العباس فقال له إنسان: يا سيدى هذا من أصحاب الشيخ أبي العباس المرسى. فقال له الشيخ أبو العباس الدمهورى: سيدى أبو العباس المرسى ملك من ملوك الآخرة. وأخبرنى سليمان بن الباخس قال: دخلت على الشيخ أبي العباس الدمهورى فسمعتة يقول: يارب هذاك أبو العباس وأنا أبو العباس ويكرر ذلك فقلت: يا سيدى من أبو العباس؟ قال المرسى، يابى ما بين أسوان إلى الإسكندرية رجل مثله.

ثم قال: ما بين أسوان إلى دمياط إلى الإسكندرية رجل مثله.

وأخبرنى سليمان هذا قال: فقيت يوماً الشيخ أبا العباس المرسى، وقد خرج من الحمام فعزمت عليه، فطلع عندي فقدمت له من البطيخ الصالحى، فهو في أثناء أكله سألته عن رجل كان كثير الشهرة يرسل بالخلق الكثير والرايات ولا يحضر صلاة الجمعة، فلما ذكرته للشيخ تغير وقال: والله لو أعلم أنك تذكره لى ما طلعت عندك، تذكرون بين يدى الأبدال والأولياء أهل البدع. وسمعتة يقول: والله ما كان اثنان من أصحاب هذا العلم في زمن واحد قط إلا واحداً عن واحد إلى الحسن.

وأخبرنى جماعة من أهل أشموم قالوا: قدم علينا الشيخ أبو العباس الهجائى من أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه، وكان يتكلم علينا فيعجبنا كلامه فإذا رأى إعجابنا بذلك

(٢١) والبسر: جمع بسرة - أسير النخل صار ما عليه بسر - أى بعد أن يكون: طلقاً ثم خلاً ثم يلبس ثم يسراً، والحوارى بالضم وتشديد الواو - وقبح الرأى - الدقيق الأبيض وهو لباس الدقيق وأجوده وأخلصه.

(٢٢) والشيخ مكيين الأسمر كما في جماع الكرامات العلية هو القطب الربانى صاحب المكاشفات والمجاهدات، الخازن لأسرار أهل الحقائق والتمكين، شيخ المشايخ الراشدين الفقيه البحت سبى ومولاه أبو عبد الله بن منصور الإسكندرقى الشاذلي المقرئ الشهير بمكيين الدين الأسمر، كان من أرباب المجاهدات، وله مكاشفات عجيبة وأحوال غريبة، ولد بالإسكندرية وصا نبشاً، وحفظ القرآن، وبرع فيه وفي علومه حتى صار أوسع أهل زمانه، وشئت إليه الرجال، وودعت عليه أكابر الرجال، كان في بدايته يحيط الملايس ويتقوت من ذلك وهو مع ذلك يطلب العلم، قال فيه أبو الحسن الشاذلي: الشيخ مكيين الأسمر أحد السبعة الأبدال، وله كرامات ومكاشفات، كان رضى الله عنه في زمنه شيخ القراء، قرأ عليه ناس كثيرون وجماعة آخرون، توفي ثلثنا الله به بالإسكندرية سنة ٦٩٢ ومولده بها سنة ٦١٠.

قال: كيف لو رأيتم الشيخ أبا العباس المرسى، لو أطلق الشيخ أبو العباس لسألت لتكلمت بالعلم الغريب.

وسمعه يقول: كان يتكلم في هذا العلم ثلاثة شيوخ: أبو الحسن وصاحبه الشيخ أبو الحسن الصقل وأنا، توفي الشيخ رضى الله عنه وتوفي أبو الحسن الصقل ولا أعلم اليوم على وجه الأرض أحداً يتكلم في هذا العلم غيرى.

وكنيت أنا حين توفي الشيخ أبو العباس بالقاهرة فدخلت يوماً زاوية الشيخ صفى الدين بن أبي المنصور فجلست فيها، فقال واحد من الفقهاء (٤) يخاطب آخر: يا أخى قدم مات رجل كبير اليوم، فقال له الآخر: من هو؟ قال: الشيخ أبو العباس المرسى، وهما لا يعلمان أتى من أصحاب الشيخ، تدرى ما اتفق له من شيخنا صفى الدين؟ قال: لا. قال: سمع الشيخ ليلة ههنا ذكراً لا يعمده فقال لى: اذهب فانظر من هذا؟ فذهب فإذا هو الشيخ أبو العباس وأصحابه، فرجعت إلى الشيخ صفى الدين فأخبرته فقال: يأتى هذا الرجل إلى هنا ولا يزورنا؟ ما هذا إلا أمر عجيب. قال: ثم أصبح الشيخ صفى الدين فقال لأصحابه: رأيت البارحة كائن في فلاة من الأرض وأبو العباس في موضع مرتفع وهو يقول لى: يا أخى يأتى الله أن نجتمع إلا هكذا. وقال الشيخ أبو عبد الله بن النعمان، الشيخ أبو العباس المرسى وارث علم الشيخ الشاذلى حقيقة.

وأخبرنى بعض الفقهاء من أهل البهسا قال: قال لى الشيخ أمين الدين جبريل: تريد أن أريك ولياً من أولياء الله؟ قلت: نعم، قال: امض بنا، فأقى لى إلى الشيخ أبى العباس وقال: هو هذا. وأخبرنى بعض أصحابه قال: عزم على الشيخ إنسان، فقدم له طعاماً يخبثه به، فأعرض الشيخ عنه ولم يأكله، ثم التفت إلى صاحب الطعام فقال: إن كان الحارث بن أسد المحاسبى كان في أصبعه عرق إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه، فأنا في يدى ستون عرقاً تتحرك على إذا كان مثل ذلك، فاستخفى صاحب الطعام واعتذر إلى الشيخ.

ومن المشهور بين أصحاب الشيخ أبى الحسن وغيرهم أن الشيخ كان يوماً بالقاهرة في دار الرضى السراج وكتاب المواقف (٥) للتقزى قرأ عليه، فقال: أين أبو العباس؟ فلما جاء قال: يا بنى تكلم، يا بنى تكلم بارك الله فيك تكلم ولن تسكت بعدها أبداً، فقال الشيخ أبو العباس: فأعطيت في ذلك الوقت لسان الشيخ.

ولقد كان علماء الزمان يسلمون له هذا الشأن، حتى كان شيخنا الإمام العلامة سيق المناظرين، حجة المتكلمين شمس الدين الأصبهاني، والشيخ العلامة شمس الدين الأيكى يجلسان بين يديه جلوس المستفيد، آخذين عنه ومتلقين ما يديه حتى سأله أحدهما عن بعض المشايخ الظاهرين في الوقت: ياسيدى أتعرفه؟ فقال الشيخ: أعرفه هنا - وأشار إلى الأرض - ولا أعرفه هناك - وأشار إلى السماء.

(٤) المقصود: الفقهاء إلى الله وهم الصوفية.

(٥) كتاب «المواقف» من أعمق كتب التصوف بحيث لا يتناولها إلا خاصة الخاصة وهو مطبوع إلا أنه من الندرة بمكان.

وسأله أحدهما عن إنسان كان يهتف الغالب عليه السكر والغلبة، فقال الشيخ رضى الله عنه: كل من لا يكون له في هذه الطريق شيخ لا يُفرح به. وكان من مذهبه رضى الله عنه: أنه لا يلزم أن يكون القطب شريفاً حسنياً، بل قد يكون من غير هذا القليل.

وتكلم يوماً في القطب وأوصافه ثم قال: وما القطبانية بعيدة من بعض الأولياء وأشار إلى نفسه. وأخبرني بعض أصحابه قال: استلقى الشيخ يوماً على ظهره وأمسك بلحيته وقال: لو علم غلباء العراق والشام ما تحت هذه الشجرات لأثروا ولو سعيًا على وجوههم. وكان يقول: والله ما نطالع كلام أهل الطريق إلّا لترى فضل الله علينا، وقال في الإمام أبي حامد الغزالي رضى الله عنه: إنا لنشهد له بالصدقية العظمى.

وكان الشيخ أبو الحسن يقول: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد. وكان يقول عن شيخه أبي الحسن رضى الله عنه: كتاب الإحياء يورثك العلم، وكتاب القوت<sup>(٦)</sup> يورثك النور.

وكان يقول عن الشيخ أبي الحسن: عليكم بالقوت فإنه قوت. وكان هو والشيخ أبو الحسن كل منهما يعظم الإمام الرباني محمد بن علي الترمذى<sup>(٧)</sup>. وكان لكلامه عندهما الخطوة الثامنة، وكان يقول عنه: إنه أحد الأربعة الأوتاد. ودخلت عليه يوماً فوجدته مقبوساً في وادٍ ورد عليه فقال: سمعت البارحة يقال لى: السلام

(٦) كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب الحكيم، وهو من الكتب التي تعتبر من عند المتصوف، وقد قرأه الإمام الغزالي واستفاد منه، وكان الإمام الشاذلي يدرسه لمريديه، ويحثهم على قراءته - وهو مطبوع متداول.

(٧) هو صاحب كتاب «ختم الأولياء» الذي أثار ثورة فكرية في الجبل الصوفي وقد طبع له هذا الكتاب أخيراً في لبنان، وطبع له من قبل كتاب «توابع الأصول» وكتاب «الصلة» وله كتب كثيرة تحت الطبع وقد كتب عنه أصحاب الطبقات، فيقول عنه صاحب الرسالة القشيرية:

«من كبار الشيوخ وله تصانيف في علوم القوم، صاحب أبا قراب النخشي وأحمد بن خضورية، وابن الجلاء وغيرهم. سئل محمد بن علي عن صفة الخلق فقال:

«ضعف ظاهري، ودعوى عريضة».

وقال محمد بن علي:

ما صنعت حرفاً عن تدبير، ولا لينسب إلي شئ منه، ولكن كان إذا اشتد علي ربحي اتسل به؟

والترمذى: نسبت إلى (ترمذ): مدينة على طرف نهر بلخ المسمى (بيجون)، قال الحافظ بن النجار في تاريخه: كان أئمة المسلمين، وله التصانيف الكثيرة في التصوف وأصول الدين، ومعاني الحديث.

وقال الكلاباذي - في الترف - هو من أئمة الصوفية، وقال ابن عطاء الله:

كان الشاذلي والمرسي معظمانه ويقولان: هو أحد الأوتاد الأربعة؟

ومن حكمه: إذا سكنت الأرواح بالنفس، تطلعت الجوارح بالير.

وقال: الولى أبدأ في ستر حاله، والكون ناطق بولايته، ومدعى لإلويته ناطق بولايته، والكون كله يكذبه.

وقال: ما استصغرت أحداً من المسلمين إلّا وجدت نقصاً في معرفتي وإيماني، وما منح الناس من الوصول إلّا تركضهم في الطريق بغير دليل؟

عليكم يا عبادى ثم قال: وهذا قد أسمعُ في السنة مرةً أو مرتين.

وهذا من الحديث الذى قال فيه أبو العباس بن العريف:

بدأ لك سرٌّ طال عنك اكتتاه	ولاح صباح كنت أنت ظلامه
فأنت حجاب القلب عن سرٍّ وحيه	ولولاك لم يطبع عليه ختامه
فإن غبت عنه حل فيه وطنيت <sup>(٨)</sup>	على مركب الكشف المصون خيام
وجاء حديث لا يمل سماعه	شهى إلينا نشره ونظامه

(٨) طنبت: أى شدت بأطنابها، وهى المبال الطويلة.



## البَابُ الثَّالِثُ

فِي مَجْرِيَّاتِهِ وَمَنَاظِلَاتِهِ وَمَا اتَّفَقَ لِأَصْحَابِهِ مَعَهُ  
وَمَكَاشِفَاتِهِ

سمعت الشيخ أبا العباس رضي الله عنه يقول: كنت أنا وصيبي عند المؤدّب إذ جاء رجل فوجدني أكتب في لوح فقال لي: الصوفي لا يسود بياضاً، قال: فقلت له: ليس الأمر كما زعمت، ولكن لا يسود بياض الصعائف بسواد الذنوب.

وسمعه يقول: عمل إلى جانب دارنا خيال للستارة وأنا إذ ذاك صبي فحضرته، فلما أصبحت وأتيت إلى المؤدّب، وكان من أولياء الله أتشدني حين رأي:

يا ناظرًا صور الخيال تعجبًا وهو الخيال بعينه لو أبصرنا

وقال رضي الله عنه: رأيت ليلة كافي في سماء الدنيا وإذا برجل أسمر اللون قصير الطول كبير اللحية، فقال قل:

اللهم اغفر لأمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم استر أمة محمد، اللهم اجبر أمة محمد.

هذا دعاء الحضر، من قاله كل يوم كتب من الأبدال، فقبل لي: هذا الشيخ ابن أبي شامة، فلما انتهيت أتيت إلى الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه فجلست ولم أخبره بشيء، فقال: اللهم اغفر لأمة محمد، واللهم ارحم أمة محمد، واللهم استر أمة محمد، اللهم اجبر أمة محمد، هذا دعاء الحضر من قاله كل يوم كتب من الأبدال.

وقال رضي الله عنه: كنت أخرج كل يوم من باب البحر إلى نحو المنارة فخرجت يوما إلى المنارة، فتمت عند الجانب الشرقي، وكان قد خطر في نفسي: ما سبب قلّة رواية أبي بكر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ مع كثرة ملازمته له؟

فإذا قائل يقول لي: أعلم الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وإنما قلته روايته عنه لتحققته به.

وقال رضي الله عنه: طالعت مقام الرحمة فإذا قائل يقول لي: والله ليكون من رحمة الله يوم القيامة ما ينال منها ابن أبي الطوابع، وكان ابن أبي الطوابع هذا قد قتل الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما.

وقال رضي الله عنه: كنت مع الشيخ في مدينة الرسول ﷺ فأردت أن أزور حمزة رضي الله عنه، فخرجت من المدينة، فتبعني رجل قاتينا إلى التربة، فإذا الباب مغلق، فأنفتح ببركة رسول الله ﷺ فدخلنا فوجدنا هناك رجلا من الأبدال فقلت للرجل الذي تبعني: ادع في هذا الوقت بما تريد، فإنه

يستجاب لك، فدعا ذلك الرجل أن يعطيه الله ديناراً، فلما رجعنا إلى المدينة لقى رجل فأعطاه ديناراً، فلما دخلنا على الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه قال له: يا بطلان صادقت وقت إجابة فسألت الله ديناراً هلا سألت الله كما سأله أبو العباس، سأله أن يكفيه هم الدنيا وعذاب الآخرة وقد استجاب الله له في ذلك.

وقال رضى الله عنه: كنت يوماً جالسا بين يدي الأستاذ فدخل عليه جماعة من الصالحين فلما خرجوا من عنده قال: هؤلاء أبدال، فنظرت ببصري فلم أجدهم أبداً، فتحيرت بين ما أخبر به الشيخ، وبين ما شهدته ببصري، فبعد ذلك بأيام قال الشيخ: من بدلت سياته حسنات فهو بدل، فعلمت أن الشيخ أراد أول مراتب الهداية.

وأخبرني الشيخ العارف نجم الدين الأصبهاني، قال: قال لي الشيخ أبو العباس يوماً: ما اسم كذا؟ وكذا بالعجمية؟ فخطر لي أن الشيخ يجب أن يقف على لغة العجم، فأتيت إليه بكتاب «الترجمان» قال: فقال الشيخ: ما هذا الكتاب؟ فقلت: كتاب «الترجمان» قال: فضحك الشيخ وقال: سل بالعجمية ما شئت أجبك بالعربية، وسل ما شئت بالعربية أجبك بالعجمية، فسألته بالعجمية فأجابني بالعربية، وسألته بالعربية فأجابني بالعجمية، وقال: يا عبد الله ما أردت بقولي ما اسم كذا إلا مباسطتك، وإلا فلا يكون صاحب هذا الشأن، ويخفى عليه شيء من الألسنة.

وأخبرني أيضاً قال: قال الشيخ أبو العباس يوماً: كم بين بلدة كذا وبلدة كذا من نهر لبلدين من بلاد العجم؟ فقلت: أربعة أمهر. فقال: والنهر الذي غرقت فيه؟ فذكرت أني نسيت نهراً أتيت لأخوضه فكذبت أن أغرق فيه.

وأخبرني الشيخ العارف ياقوت: قال: عزم على إنسان فقدم لي طعاماً، فرأيت عليه ظلمة كالكمب فقلت في نفسي: هذا حرام فامتنعت من أكله، ثم دخلت على الشيخ أبى العباس رضى الله عنه فقال: أول ما جلست: ومن جهلة المريدين من يقدم له طعام فيرى عليه ظلمة فيقول هذا حرام، يا مسكين ما يساوى ورعك سوء ظنك في أخيك المسلم، هلا قلت هذا طعام لم يردن الله به. ودخلت أنا عليه يوماً، وفي نفسي ترك الأسباب والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر قائلاً: إن الوصول إلى الله لا يكون إلا على هذه الحالة.

فقال من غير أن أبدي له شيئاً: صحنى بقوص إنسان يقال له: ابن ناشئ وكان مدرساً بها ونائب الحكم، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا. فقال: يا سيدى أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟

فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن أمكت فينا أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك وأصل.

ثم قال: وهذا شأن الصديقين، لا يفرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولى إخراجهم.

فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى وكأنما كانت ثوباً نزعته، ورضيت عن الله فيها أقامنى فيه.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: رأيت وأنا بالمغرب دائرة من الرجال، ورجلا في وسطها، وكل من في تلك الدائرة متوجه إليه، فقلت في نفسي: هذا هو القطب، وعرفت ذلك الرجل بصفته وبقية كلها ذكر لي عن رجل أتى إليه وأقول: عسى أن يكون ذلك الرجل الذي رأيته في وسط الدائرة، حتى قيل لي عن الشيخ أبي العباس، فأتيت إليه فإذا هو ذلك الرجل الذي رأيته في وسط الدائرة فأخبرته، فقال: نعم أنا القطب، أما الذين يقابلون بطيى لهم المدد من باطن حقيقتي، والذين يقابلون ظهرى لهم المدد من ظاهر علمي، والذين يقابلون جنبي لهم المدد من العلوم التي بين جنبي. وأخبرني بعض أصحابنا قال: رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلي ينزل من السماء، والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله، متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبت رجله في الأرض، وتنبأ لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه، ودخل من رأسه، حتى غاب فيه واستيقظت.

وأخبرني الشيخ محمد السراج رحمه الله قال: كنت قبلة من الليالي نائما وأنا أرى في المنام قائلا يقول لي: اذهب إلى خارج الإسكندرية من باب السدرة، فأول بستان تلقاه من الجانب الأيسر فادخل فيه فإنك تجد فيه جماعة من الناس، الجالس منهم تحت أطول نخلة هناك رجل من الرجال، ثم قيل: إن في الجامع حلقة من دخل فيها فهو آمن، فلما أصبحت خرجت إلى ظاهر الإسكندرية ودخلت أول بستان من الجانب الأيسر، فوجدت حلقة هناك، فركعت بصرى لأنظر إلى أطولها نخلة، فإذا قائل يقول لي: كلها طول؛ فإذا الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه، فسلمت عليه وجلست وقلت: يا سيدي رأيت البارحة كذا وكذا وقصصت عليه الرؤيا فقال: الجامع أنا، والحلقة هم أصحابي، ومن دخل فيها فهو آمن، أي من دخل في شروطنها فهو آمن. ثم قال: أنا الليلة آتاك فقلت: يا سيدي أنتظر على الباب، أو أترك الباب لك مفتوحا؟ فقال: لا ولكن أغلق بابك، وأنا آتاك.

قال: فلما كان الليل أخذني شبيه الوهم، وصرت أقول: من أين يأتي؟ من هنا يأتي، لا بل من هنا يأتي، فلم أطق المكث، فخرجت إلى رياط الواسطي، وصعدت الماذنة، ووقفت أصل، فأنا في الصلاة، وإذا الشيخ أبو العباس قد أتى في الهواء وقال: يا محمد، أنتظن أنك إذا جئت هنا يخفى على مكانك؟ فقلت: يا سيدي إنما جئت هنا لأني لم أطق المكث، وهالتي الأمر، وكان المخاطب له مني لسانا آخر غير الذي كنت أقرأ به.

وأخبرني بعض أصحابه قال: كنا مع الشيخ بمدينة «قوص»، وكان من أصحاب الشيخ أبي العباس أبو الحسن المرسى، وكان في خلقه حدة فنزل ولد الشيخ يوما يلعب كما يلعب الصبيان، فقال له الشيخ أبو الحسن المرسى: أطلع لا أطلعك الله، فسمعه الشيخ أبو العباس فنزل وقال: يا أبا الحسن حسن خلقك مع الناس، بقي لك عام وتوت، فمات إلى تمام العام.

وأخبرني أبو عبد الله الحكيم المرسى رحمه الله قال: قدم علينا الشيخ بأشموه، فلما جن الليل دعاني الشيخ وقال: ادن مني يا حكيم فدنوت منه فوضع يده خلف ظهري، وفعلت أنا كذلك،

وضمني إليه وبكى: فيكيت ليكائه ولم أدر مم بكى؟ فقال: يا حكيم ما جئتمكم إلا مودعا، يا حكيم نذهب إلى المقسم نودع أخى ثم نعود إلى الاسكندرية نبيت بها ليلة، وندخل في اليوم الثاني قبري، فسافر فأقام عند أخيه مدة يسيرة، ثم انحدر إلى الاسكندرية فأقام بها ليلة، ودخل في اليوم الثاني قبره كما قال، رحمه الله.

وأخبرني سيدي جمال الدين ولد الشيخ رضى الله عنها: قال: ورد رسول الإفرنج إلى الإسكندرية فذهبت لأنظروه، ولم أعلم بالشيخ، فلما جئت قال: أين كنت؟ قلت: ههنا. قال: بل ذهبت تنتظر رسول الإفرنج، أتظن أن شيئا من أحوالك يخفى على؟ كان الرسول لابساً كذا وكذا، راكباً على كذا عن يمينه فلان، وعن يساره فلان فوصف الحال على ما كانت عليه؟ وأخبرني عبد العزيز المدبولي قال: قال لي الشيخ: يا عبد العزيز سقيت الفرس؟ فقلت: نعم، فكرر ذلك مراراً وأنا أقول نعم، ففى المرة الأخيرة قال بالله، وطار في الهواء حتى غاب عن بصرى، فلما كان في اليوم الثاني قال: يا عبد العزيز ما الذي يهوج الإنسان منكم أن يقول غير الحق، كنت تقول ما سقيتها، وماذا كنت أصنع بك إذا لم تسقها؟

وكننت أنا سمعت الطلبة يقولون: من يصحب المشايخ لا يبيى منه في العلم الظاهر شيء، فشق على أن يفوتنى العلم، وشق على أن تفوتنى صحبة الشيخ رضى الله عنه. فأتيت إلى الشيخ فوجدته يأكل لحماً يخلُّ فقلت في نفسي: ليت الشيخ يطعمني لقمة من يده فما استسمت الخاطر إلا وقد دفع في فمى لقمة في يده ثم قال:

نحن إذا صحبنا تاجراً ما نقول له اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له اترك طلبك وتعال، ولكن نقر كل أحد فيها أقامه الله غيه، وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه.

وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ فما قال لتاجر اترك تجارتك ولا لذى صنعة اترك صنعتك بل أقرهم على أسبائهم وأمرهم بتقوى الله فيها.

وسمعه يقول: سافرت إلى «قوص» ومعى خمس أنفس: الحاج سليمان، وأحمد بن الزين، وأبو الريم، وأبو الحسن المرسى، وفلان، فقال لي إنسان: ما الذى تقصد بسفرك يا سيدي؟ فقلت له: أدفن هؤلاء بقوص وأجىء؛ فدفنت الخمسة بها، أما الحاج سليمان فما مات حتى شرب من حوض الكوثر، وأخبرني بعض أصحابه قال: نزل عنده بعض الأعيان فقال في نفسه: أشتهي من ينهى قبل الفجر بمنزلة ويأتى بإبريق ماء سخن ويأتيني بسراج ويربني محل الطهارة قال: فما كان قبل الفجر إلا وطارق يطرق الباب؛ فخرجت فإذا هو الشيخ فقال: الوقت قبل الفجر بمنزلة وهذا إبريق فيه ماء سخن وهذه شمعة تعال حتى أريك محل الطهارة.

وكننت قلت لبعض أصحاب الشيخ: أريد لو نظر إلى الشيخ بعناية وجعلنى في خاطره؛ فقال ذلك للشيخ؛ فلما دخلت على الشيخ رضى الله عنه فقال: لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا في خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ في خاطركم، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم تكونون عنه.

ثم قال: أى شيء تريد أن تكون، والله ليكونن لك شأن، والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك كذا، والله ليكونن لك كذا، لم أثبت منه إلا قوله «ليكونن لك شأن عظيم»، فكان من فضل الله سبحانه ما لا ننكره.

وأخبرني سيدى جمال الدين ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ، هم يريدون يصدرون ابن عطاء الله فى الفقه، فقال الشيخ:

هم يصدرونه فى الفقه، وأنا أصدره فى التصوف.

ودخلت أنا عليه فقال لى: إذا عوفى الفقيه ناصر الدين يجلسك فى موضع جدك؛ ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية؛ وتكلم إن شاء الله فى العلمين فكان ما أخبر به رضى الله عنه.

سمعته يقول: أريد أن أستنسخ كتاب التهذيب لولدى جمال الدين، فذهبت أنا فاستنسخته من غير أن أعلم الشيخ، وأتيته بالجزء الأول فقال: ما هذا؟ قلت: كتاب التهذيب استنسخته لكم، فأخذته فلما نهض ليقوم قال: اجعل بالك؛ الولي لا يتفضل عليه أحد تجد هذا إن شاء الله فى ميزانك، فلما أتيته بالجزء الثانى لقيت بعض أصحابه بعد نزولى من عنده؛ وقال: قال الشيخ عنك: والله لأجعلنه عينا من عيون الله يقتدى به فى العلم الظاهر والباطن، فلما أتيته بالجزء الثالث ونزلت من عنده لقيت بعض أصحابي وقال: طلعت عند الشيخ فوجدت عنده مجلدة حمراء، فقال: هذا كتاب استنسخه لى ابن عطاء الله، فوالله ما أرضى له بمجلسه جده، ولكن بزياة التصوف.

وأخبرني بعض أصحابه قال: قال الشيخ يوماً: إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية، فأعلموني به. فلما أتيت أعلمنا الشيخ بذلك، فقال: تقدم فتقدمت بين يديه، ثم قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ، ومعه ملك الجبال حين كذبت قريش، فقال له جبريل عليه السلام: هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك فى قريش. فسلم عليه ملك الجبال وقال: يا محمد إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ففعلت. فقال رسول الله ﷺ: لا، ولكن أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحّد الله ولا يشرك به شيئاً، ففعلهم رسول الله ﷺ رجاء من يخرج من أصلابهم<sup>(١)</sup>، كذلك صبرنا على جدّ هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه.

وخزجت يوماً من عند الفقيه مكيين الدين الأسمر رضى الله عنه وخرج معي أبو الحسن الجزيرى - وكان من أصحاب الشيخ أبى الحسن - فسلمت عليه فسلم على بيضاء وإقبال، فقلت له: من أين تعرفنى؟ فقال: وكيف لا أعرفك! كنت يوماً جالساً عند الشيخ أبى العباس

(١) عندما لقي رسول الله ﷺ من أهل الطائف الكثير من الأذى ودعا دعاءه المشهور: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس». عند ذلك نزل عليه جبريل ومعه ملك الجبال وكما روى البيهقي بسنده عن عائشة قالت لذي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من أحد؟ فقال:

لقد لقيت من قومك، وكان أشدّ ما لقيت منهم بعد يوم العقبة إذ عرضت نفسي على عيب باليل بن عبد كلال، فلم يجبي إلى ما أردت فانطلقت على وجهي وأنا مهموم فلم أستقي إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، ووافوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم على فقال: يا محمد ذلك لك؛ إن شئت أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً. وانظر الروض الأنف ٥٧/٢ - ٥٧.

وكنت أنت عنده فلما نزلت قلت له: يا سيدى إته ليحبنى هذا الشاب انتقطع فلان وفلان عن الملازمة، وهذا الشاب ملازم قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله. فكان كما قال الشيخ والله الحمد.

وأخبرنى أبو الحسن هذا قال: كنت ليلةً عند الشيخ أبى الحسن، وكان يقرأ عليه كتاب «ختم الأولياء» للترمذى الحكيم، فرأيت واحداً جالساً لم يطلع معنا. ولم يكن عند الشيخ وقت طلوعنا، فقلت لإنسان إلى جانبى: من هذا الرجل الجالس إلى جانب فلان؟

فقال: ما مهنا أحد غير الجماعة الذين تعرفهم، فسكتُ وعلمتُ أنه لم يره فلما انصرف الجميع سألت الشيخ أبا الحسن رضى الله عنه فقلت: يا سيدى رأيت هنا رجلاً لم يطلع معنا ولم يكن عندك قبل طلوعنا، فقال الشيخ: ذاك أبو العباس المرسى يأتي كل ليلة من المقسم حتى يسمع الميعاد ثم يعود من ليلته إلى مكانه والشيخ أبو الحسن إذ ذاك بالإسكندرية.

وكنت كثيراً ما يطرأ على الوسواس فى الطهارة فبلغ ذلك الشيخ أبا الحسن فقال: بلغنى أن بك وسواساً فى الوضوء.

قلت: نعم.

فقال رضى الله عنه: هذه الطائفة تلعب بالشیطان، لا الشيطان يلعب بها، ثم مكثت أياماً ودخلت عليه فقال: ما حال هذا الوسواس؟ فقلت: على حاله.

فقال: إن كنت لا تترك هذه الوسوسة لا تعد تأنيباً، فشق ذلك على وقطع الله الوسواس عنى، وكان رضى الله عنه يلقن للوسواس: «سبحان الملك الخلاق، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز».

وعملت فيه قصيدة أمدحه بها سياتى ذكرها إن شاء الله آخر الكتاب فقال - حين أنشدت - : أيدك الله بروح القدس. ثم عملت قصيدة أخرى بإشارته - جواباً لقصيدة مدحه بها إنسان من بلاد أخميم وسياتى ذكرها أيضاً آخر الكتاب إن شاء الله تعالى - فلما قرئت عليه قال: هذا الفقيه صبحى وبه مرضان، وقد عافاه الله منها، ولا بد أن يجلس، ويتحدث فى العلمين.

يشير الشيخ إلى مرض الوسوسة فقد انتقطع عنى ببركة الشيخ حتى صرت أخاف أن أكون لشدة التوسعة التى أجدها قد تساهلت فى بعض الأمور.

والمرض الآخر: كان بى ألم برأسى فشكوت ذلك إليه فدعا لى، فعافانى الله وشفانى. وبت ليلةً من الليالى مهموماً، فرأيت الشيخ فى المنام فشكوت إليه ما أنا فيه، فقال: اسكت والله لأعلمنك علماً عظيماً، فلما استيقظت أتيت إلى الشيخ رضى الله عنه، فقصص عليه الرؤيا فقال: هكذا تكون إن شاء الله.

وقدم يوماً من السفر فخرجنا للقاءه فلما سلمت عليه قال: يا أحمد كان الله لك، ولطف بك، وسلك بك سبيل أوليائه، وبهاك بين خلقه. فلقد وجدت بركة هذا الدعاء، وعلمت أنه لا يمكننى الانقطاع عن الخلق، وأنى مراد بهم، لقوله: «وبهاك بين خلقه».

وكنيت أنا لأمره من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا لشيء صح نقله عنه، حتى جرت بيني وبين بعض أصحابه مقالة، وذلك قبل صحبتي إياه، وقلت لذلك الرجل: ليس إلا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظيماً وظاهر الشرع يابها. فقال ذلك الرجل: بعد أن صحبت الشيخ، تدري ما قال لي الشيخ يوم تخاصمنا؟ قلت: لا. قال: دخلت عليه فأرأى ما قال لي: هؤلاء كالخجر ما أخطأك منه خير مما أصابك، فعلمت أن الشيخ كوشيف بأمرنا، ولعمري لقد صحبت الشيخ اثني عشر عاماً فما سمعت منه شيئاً ينكره ظاهر العلم، من الذي كان ينقله عنه من يقصده بالأذى.

وكان سبب اجتماعي به أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل: دعني أذهب أرى هذا الرجل قصاص الحق له أمارات لا يحفى شأنه. فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها فقال:

الأول: إسلام.

والثاني: إيمان.

والثالث: إحسان.

وإن شئت قلت: الأول عبادة.

والثاني: عبودية.

والثالث: عبودية.

وإن شئت قلت: الأول شريعة.

والثاني: حقيقة.

والثالث: تحقق، أو نحو هذا.

فما زال يقول: «وإن شئت قلت» «وإن شئت قلت» إلى أن بهر عقلي وعلمت أن الرجل إنما يغتر من قبض بحر إلهي، ومدد رباني، فأذهب الله ما كان عندي، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد في شيتا يقبل الاجتماع بالأهل على عادي، ووجدت معنى غريباً لا أدري ما هو، فاتفردت في مكان أنظر إلى السماء وإلى كواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى، فأتيت إليه فاستؤذن عليّ قلماً دخلت عليه، قام قائماً وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك، فكان أول ما قلت له: ياسيدي أنا والله أحبك.

فقال: أحبك الله كما أحببتني، ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان فقال رضى الله عنه:

أحوال العبد أربعة لا خامس لها:

النعمة واللبية والطاعة والعصية.

فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر.

وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر.  
 وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منته عليك.  
 وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار.  
 ففقت من عنده وكأنما كانت العموم والأحزان ثوباً نزعته ثم سألتني بعد ذلك بمدة كيف حالك ؟  
 فقلت: أفتش على الهم فلا أجده، فقال رضى الله عنه:  
 ليلى بسوجهك مقمر وظلامه فى الناس سار  
 والناس فى سدف الظلام ونحن فى ضوء النهار  
 الزم. فوالله لئن لزم لتكون مفتياً فى المذهبين، يريد  
 مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر  
 ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن.



## الباب الرابع

في علمه وزهده وورعه ورفع همته وحلمه  
وصبره وسداد طريقته

كان رضى الله عنه لا يتحدث معه في علم من العلوم إلا تحدث معك فيه، حتى يقول السامع: إنه لا يحسن غير هذا العلم - لاسيما علم الحديث والتفسير.

وكان يقول: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه.

وكان كتابه في أصول الدين «الإرشاد»، وفي الحديث كتاب «المصابيح»، وفي الفقه «التهذيب والرسالة» وفي التفسير كتاب ابن عطية<sup>(١)</sup>.

ولقد كان يقرأ عليه بعض المخرفين في العربية فيرد عليه اللحن.

وأما علوم المعارف والأسرار فقطب رحاها وشمس ضحاها، تقول إذا سمعت كلامه: هذا كلام من ليس وطنه إلا غيب الله، هو بأخبار أهل السماء أعلم منه بأخبار أهل الأرض.

وسمعت أن الشيخ أبا الحسن قال عنه: أبو العباس بطرق السماء أعرف منه بطرق الأرض.

كنت لا تسمعه يتحدث إلا في العقل الأكبر، والاسم الأعظم، وشعبه الأربع، والأسماء والحروف، ودوائر الأولياء، ومقامات الموقنين، والأملك المقربين عند العرش، وعلوم الأسرار وأمداد الأذكار، ويوم المقادير، وشأن التدبير، وعلم اليده، وعلم المشيئة، وشأن القبض، ورجال القبض، وعلوم الأفراد وما سيكون يوم القيامة من أفعال الله مع عباده من حلمه وإنعامه، ووجود انتقامه، حتى لقد سمعته يقول:

والله لولا ضعف العقول لأخبرت بما يكون غدا من رحمة الله.

وإن تنزل إلى علوم المعاملة ففي الزمن اليسير حاجة الخلق إلى ذلك؛ ولذلك قل أتباع من هذه علومه، وقد يكثر المشتري للمرجان، وقل أن يجتمع على شراء الياقوت اثنان؛ ولذلك كان يقول رضى الله عنه:

أتباع أهل الحق قليلون وقد قال الحق سبحانه:

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

(١) كتاب ابن عطية: هو كتاب المحرر الوجيز، وله من اسمه نصيب، فهو محرر، وهو لي عرف ابن عطية وجيز، وإن كان متوسط الحجم، وما زال الكتاب مخطوطا، ولكن عدة جهات تعمل على نشره، ونرجو الله له التوفيق.

وقال سبحانه: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وقال في أهل الكهف: ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾.

فأولياء الله أهل كهف الإيواء فقليل من يعرفهم.

وسمعه رضى الله عنه يقول: معرفة الولي أصعب من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجماله. ومتى حتى تعرف مخلوقاً مثلك، يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب.

وأما زهده في الدنيا فيستدل على الزهد في الدنيا بالزهد في الرئاسة، ويستدل على الزهد في الرئاسة بالزهد في الاجتماع بأهلها، ولقد مكث رضى الله عنه بالإسكندرية ستاً وثلاثين سنة ما رأى وجه متوكلها ولا أرسل إليه، وطلب ذلك المتوكل بالإسكندرية فأبى الشيخ من ذلك. وقال له الزكي الأسواني: يا سيدى متولى الإسكندرية. قال: إنه يريد الاجتماع بك، ويأخذ بيدك فتكون شيخه.

فقال له الشيخ: يا زكى، لست ممن يلعب به، والله إنى ألقى الله، ولا يرانى (المتوكل) ولا أراه فكان كذلك.

وكان إذا نزل بلدة وقيل له: متولى البلد يريد أن يأتبك غداً، سافر هو ليلاً. ولقد كان يأتى إليه متوكل الثغر وناظره ومشد الدواوين به، قليلة إتيانهم، يغلب القبض عليه، ولا ينيسط للكلام كحالها في عدم حضورهم، حتى كُتِبَ قول: ليت ذلك الكلام الذى كان في غيبتهم كان ليلة حضورهم.

ولقد أتى إليه الشجاعى في بحيرة عزه، ومكثته من السلطنة، فما أقوى إليه عنان همته، ولا فوق إليه سهام عزيمته، حتى لقد بلغنى أن الزكى الأسواني لما استعرض للشجاعى حوائجه قال للشيخ: يا سيدى اطلب منه أوضاً يزرعها أصحابك. فقال: يا زكى هذا ما لا يكون أبداً.

ومن زهده رضى الله عنه أنه خرج من الدنيا وما وضع حجراً على حجر، ولا اتخذ بستاناً؛ ولا افتتح سبباً من أسباب الدنيا؛ ولا خلف وراءه ورقة مع أن الزهد وصف من أوصاف القلوب يصف الله به قلب من أحبه، ولكن له علامات تدل عليه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: رأيت الصديق في المنام؛ فقال لى: أندرى ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قلت: لا أدرى؛ قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد، ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه في المنام؛ فقلت: يا أمير المؤمنين ما علامة حب الدنيا؟ قال: خوف المذمة وحب الثناء.

فإذا كان علامة حبها خوف المذمة؛ وحب الثناء، فعلمة الزهد فيها وبغضها أن لا يخاف المذمة ولا يحب الثناء.

وأما ورعه فلقد أخبرني بعض أصحابه أنه دخل يوماً بيت واحد من الجماعة في البرج الذي هو فيه فوجده يضرب فيه وتدًا؛ قال: فاتفق للشيخ من الحرج الأمر الكبير، وقال كيف يحل لك أن تنصرف في الحبس<sup>(٢)</sup> بأمر لم يؤذن لك فيه.

وكان يقول: والله ما دخل بطني حرام قط.

وكان يقول: الورع من ورعه الله.

وقال رضى الله عنه: عزم علينا بعض صلحاء الإسكندرية في بستان له بالزمل. فخرجت أنا وجماعة من صلحاء الثغر، ولم يخرج معنا صاحب البستان ذلك الوقت، بل وصف لنا المكان فتجاربنا ونحن خارجون الكلام في الورع، فكل قال شيئاً، فقلت لهم: إنما الورع من ورعه الله، قلنا أئينا البستان، وكان زمن ثمرة التوت كلهم أسرع إلى الأكل وأكل، وكنت كلما جئت لأكل أجد وجعاً في بطني، فأرجع حينئذ الوجع عني، فعلت ذلك مراراً فجلست ولم أكل شيئاً، فهم يأكلون، وإذا بإنسان يصيح: كيف يحل لكم أن تأكلوا من ثمرة بستانى بغير إذن، فإذا هم قد غلطوا بالبستان، فقلت لهم: ألم أقل لكم إن الورع من ورعه الله سبحانه؟

واعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يقهه إلا قليل فإن من جملة ورعهم ورعهم عن أن يسكنوا لغيره أو أن يملوا بالحب لغيره أو يتحد أطعماعهم بالطع في غير فضله وغيره.

ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب. وخلع الأنداد والأرباب.

ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات، والاعتماد على الطاعات، والسكون إلى أنوار التجليات.

ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة، تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الوقوف مع الآخرة صفاء.

قال الشيخ عثمان بن عاشوراه: خرجت من بغداد أريد الموصل فأنا أسير وإذا بالدنيا قد عرضت عليّ: بعزها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشتهياتها، فأعرضت عنها، فعرضت على الجنة: بحورها وقصورها وأنهارها وتمارها فلم أشتغل بها.

فقبل لي: يا عثمان لو وقفت مع الأولى لمحبتك عن الثانية، ولو وقفت مع الثانية لمحبتك عنّا، فيها نحن لك وقسطك من الدارين يأتبك.

وقال الشيخ عبد الرحمن المغربي - وكان مقبلاً بشرقي الإسكندرية - حجبت سنة من السنين، فلما قضيت الحج عزمتم على الرجوع إلى الإسكندرية، فإذا قاتل يقول لي: إنك العام القابل عندنا، فقلت في نفسي: إذا كنت العام القابل ههنا فلا أعود إلى الإسكندرية، فخطر لي الذهاب إلى اليمن، فأتيت إلى «عدن» فأنا يوماً على ساحلها أمشي، وإذا أنا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم، ثم نظرت فإذا رجل قد فرش سجادة على البحر، ومشى على الماء فقلت في نفسي: لم أصلح للدنيا ولا للآخرة، فإذا قاتل يقول لي: من لا يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا.

(٢) الحبس: هو الوقف - والمراد أنه يبق وتدًا في بناء الوقف.

وقال الشيخ أبو الحسن:

الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه.

فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله، وعن الله، والقول بالله، والعمل لله وبالله، على اليقظة الواضحة والبصيرة الفائقة.

فهم في عموم أوقاتهم، وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا يتطرقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله والله من حيث يعلمون، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم يجمعون في عين الجمع لا يتفرقون فيها هو أعلا، ولا فيها هو أدنى، وأما أدنى الأدنى: فأنه يورعهم عنه ثواباً لورعهم، مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى، وميراثه التعزز لحلقه، والاستكبار على مثله، والمبالغة على الله يعلمه، فهذا هو الحسبان المبين، والعياذ بالله العظيم من ذلك.

والأكياس يشورعون عن هذا الورع، ويستعيذون بالله منه، ومن لم يزد بعلمه وعمله افتقاراً لربه، وتواضعاً لحلقه فهو هالك، فسبحان من قطع كثيراً من الصالحين بصلاحهم عن مصلحتهم كما قطع كثيراً من المفسدين بفسادهم عن موجدتهم، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم.

فانظر فهمك الله سبيل أوليائه، ومن عليك يتابعة أحيائه هذا الورع الذي ذكر الشيخ رضى الله عنه: هل كان فهمك يصل إلى مثل هذا النوع من الورع؟ ألا ترى قوله: «فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على اليقظة الواضحة والبصيرة الفائقة».

فهذا هو ورع الأبدال والصدّيقين لا ورع المنتظمين الذي ينشأ عنه سوء الظن وغلبة الوهم. وأما رفع همته فكان آتياً من ذلك بالعجب العجيب، وقد تقدم من رفع همته عن ولاية الأمر مع استعراضهم لحوائجهم وتطارحهم عليه.

وقال رضى الله عنه يوماً لأصحابه: جاءني اليوم الطواشي بهاء الدين وهو مشدّ الدواوين إذ ذاك والفقير شمس الأدين الخطيب - وهو يومئذ ناظر الأحباس (٣) - فقالا لي: إن هذه القلعة تحتاج إلى حصر وزيت، وقناديل، ويحتاج الفقراء فيها ما يأكلون ونحن حكام الوقت نطلق لها شيئاً في كل شهر.

قال: فقلت لهم: حتى أشاور أصحابي، وأنتم أصحابي فماذا تشيرون؟

فلم يرجع إليه أحد جواباً، فأعاد الأمر مراراً فلم يجبه أحد.

فقال: اللهم اغننا عنهم، ولا تقننا بهم إنك على كل شيء قدير، ولم يجبههم إلى ما ذكروا، ومات الشيخ رضى الله عنه، وليس للمكان مرتب ولا معلوم.

وسمعت رضى الله عنه يقول: والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق.

وسمعت يقول: رأيت كلباً في المحجة، ومعنى شيء من الحبز فوضعت بين يديه، فلم يلتفت إليه.

فقرينه من قيه فلم يلتفت إليه، فإذا قائل يقول لي: أفه لمن يكون الكلب أزهده منه. وسمعت يقول: خرجت يوماً أشتري حاجة من بعض من يعرفني بنصف درهم، فقلت في نفسي: ولعلّه لا يأخذني مني، فإذا قائل يقول لي: السلامة في الدين يترك الطمع في المخلوقين، قال: فأتيت إلى الموضع الذي كنت مقيماً به، ودخلت وأغلقت الباب، فأنا جالس، وإنسان قد فتح الباب بمرّة (٦)، وقال: ياذا تكون السلامة في الدين؟

قال: فقلت: يترك الطمع في المخلوقين، فأخذها كأنما كانت ضالّة وجدها، فتبين من حاله أن الشيخ أبا الحسن كان قد قال له: اذهب إلى موضع الغلة، فاكنل لك ثلاث وبيات، فذهب فاكنل لنفسه إردباً، فبلغ ذلك الشيخ فقال: دعوا ما اكناله في موضعه، وأعطوه ثلاث وبيات التي كنّا أعطيناه إياها.

وقال رضى الله عنه: الطمع ثلاثة أحرف، كلها بخوفة فهو بطن كله؛ فذلك صاحبه لا يشيع أبداً.

وكان يقول رحمه الله: للناس أسباب وسببنا نحن الإيمان والتقوى قال الله سبحانه: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ (٥)، تنبيه وإعلام:

اعلم أن رفع الهمة عن الخلق شأن أهل الطريق، وصفة أهل التحقيق، ولقد سئل الجنيد: آيزنى العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ولعمري لو سئل: أيطمع العارف في غير الله؟ لقال: لا، وإنما مراد الحق سبحانه أن يعيده العباد في كل شيء حباً وثقةً، وتوكلاً وخوفاً ورجاءً، وذلك الذي تستحقه فرديته.

وكان بعض العارفين ينشد:

حرام على من وحد الله ربه	وأفردته أن يجتدي (٦)	أحدًا رفداً
ويا صاحبي قف لي مع الحق وقفة	أموت بها وجداً وأحيى بها وجداً	
وقل للملوك الأرض تجهد جهدها	فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى	

ورفع الهمة إنما ينشأ عن صدق الثقة بالله.

وصدق الثقة بالله إنما ينشأ عن الإيمان بالله على سبيل المعايضة والمواجهة، فيوجب لهم إيمانهم الإعرار بالله، قال الله سبحانه:

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (٧).

والنصر من عند الله، قال سبحانه:

﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (٨).

(٧) المنافقون: ٨.

(٨) الروم: ٤٧.

(٦) مرّة بكسر الميم أى قوة.

(٥) الأعراف: ٩٦.

(٦) يجتدي: يطلب العطاء.

والنجاة من العوارض الصّادة عن الله قال سبحانه:

﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٩)</sup>.

فعزّ المؤمن بالله ثقته بمولاه. وتصرّته على نفسه وهواه. ونجاته من العوارض أن تقطعه عن سبيل هده.

وشعار أهل الإرادة وذاورهم الاكتفاء بالله، ورفع الهمة عما سواه. وصيانة ملابس الإيمان من أن تدنس بالميل إلى الأكوان، والطمع في غير الملك الثّان.

ولنا في هذا المعنى:

بكرت تلوم على زمان أجحفا	فصدفت <sup>(١٠)</sup> عنها علّها أن تصدفا
لا تكسرى عنها لدهرك إنه	ما أن يطالب بالوفاء ولا الصفا
ما ضرني أن كنت فيه خاملاً	فالهدر بدر إن تبتى أو خفي
الله يعلم أنسى ذو همة	تأبى الدنيا عفة ونظرًا
لم لا أصون على الورى ديباجي	وأرهم عزّ الملوك وأشرفا
أرهم أنى الفقير إليهم	وجيعهم لا يستطيع تصرفا
أم كيف أسأل رزقه من خلقه	هذا - لعمرى إن فعلت - هو الجفا
شكوى الضعيف إلى ضعيف مثله	عجز أقام بحامليه على شفا
فياسترزق الله الذى إحسانه	عمّ البرية مئة وتعطفًا
والجأ إليه تحبده فيها ترحمى	لا تعد عن أبوابه متحرفًا

والذى يوجب لك رفع الهمة عما سوى الله: علمك بأنه لم يخرجك إلى مملكته إلّا وقد كفأك، ومنحك وأعطاك، ولم يبق لك حاجة عند غيره، وإذا كان قد اقتضى لهم القهم عن الله أن يكتفوا بعلمه عن مسألتهم، فكيف لا يوجب لهم القهم عن الله الاكتفاء بعلمه عن سؤال خلقه؟ ومن فاته الحق سبحانه بشيء مما فاتح به أحياءه فقد اقتضى منه رفع همه إليه كما اقتضاه من غيره وأولى.

ألم تسمع قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سُبُحًا مِنَ الْمُنَى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ. لَا تَحْذَرُنَّ عَيْنِي﴾<sup>(١١)</sup> الآية. وكيف لا تكون مثته فيك ومواهبه وقواتح عنايته وخصائص ولايته، ناهية لك عن التعلق بغيره؟

وكان بعض العارفين يتشد:

أبعد نفوذى فى علوم الحقائق	وبعد انبساطى فى مواهب خالقى
وفى حين إشرافى على ملكوته	أرى باسطًا كفًا إلى غير رازقى؟

(٩) يونس: ٦٠٣.

٩

(١١) الحجر: ٨٧، ٨٨ - وقام الآتين: ﴿لَا تَحْذَرُنَّ عَيْنِي﴾ إلى ما مثله به أزواجًا منهم، ولا تحزن عليهم، واغضى جناحك للمؤمنين.

فإن كل ذى رتبة من المخلوقين لا يرضى منك أن تنسب له رتبة تضيف المنع والعطاء والولاية والعزل فيها لغيره؟

فاحذر أن تكون من الذين قال الله سبحانه فيهم:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٢).

وقيح أن تكون في دار ضيافته وتوجه وجه طمعك لغيره.

ولنا في هذا المعنى:

أحسن بي أقي تزيل ذراكم (١٣) أوجه يومًا للعباد وجسايا  
بلى إنسى ألسى إليك أخلق فيها ما سواك وراثيا

ولا تطلب من هو بعيد عنك، وتترك الطلب من مولى هو أقرب إليك من حبل الوريد.

ألم تسمع قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (١٤) الآية.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ (١٥) الآية.

وقال سبحانه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (١٦).

وقال سبحانه: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (١٧).

وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ (١٨).

كل ذلك ليجمع هم عباده عليه، وكيلا يرفعوا حوائجهم إلا إليه.

وأما حلمه رضى الله عنه فكان من شأنه أنه لا ينتقم لنفسه ولا ينتصر لها.

ولقد دخلت عليه يومًا فقال لي: ما تقول في فلان - رجل كان قد آذى الشيخ الأذى البالغ، أتى إلى أصحاب فلان بعض من كان له الأمر في ذلك الزمن، وكان يتردد إلى الشيخ وقالوا: يا سيدى هذا الرجل الذى آذاك نسعى في ضربه وإشهاره في البلدين مصر والقاهرة فماذا تقول أنت؟ قلت: مصلحة.

فقال كالمنكر: لأى شيء؟ قلتُ ذاك حتى يُتشفى منه. قال: أنا ما أنشفتى من أحد. قلت: إفا أردت الأتباع، قال: ولا نحمل أتباعي على التشفى. فأطرقت خجلًا فبا توجه أحد لنا بالأذى بعد ذلك، فنزلت به نارًا، فهتت النفس بالتشفى منه إلا وذكرت كلام الشيخ: «أنا ما أنشفتى من أحد» حتى كأتى قد سمعته ذلك الوقت، فتخمد النفس عن التشفى بذلك، واتفق بعد مدة نحو

(١٢) يوسف: ١٠٦.

(١٣) النرى: الكنف والضيافة والستر والعناء.

(١٤) البقرة: ١٨٦ وقامها: «أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا له وليؤمنوا بى لعلمهم برشدون».

(١٥) النساء: ٣٣.

(١٦) ق: ١٦.

(١٧) الحجر: ٢٦.

(١٨) طه: ٦٠.

خمسة عشر عاماً أن الذي كان قد سعى في أذية الشيخ سعى في إذابتنا فاتفقت له نازلة، فصانني الله من التشقي منه وسلم.

وكان الشيخ يقول: هذا الذي استشرتك فيه سيتق لك معه مثل ما اتفق لي، فأفعل معه كما فعلت معه، وهذا هو كلام الأكابر يطوى في صحائف قلوب المريدين، حتى إذا جاء وقته أظهره الحق سبحانه، كأنك قد سمعته في ذلك الوقت.

وربما أحضر الله بفكرك شيخك الذي خاطبك به بهيته وزيه، وربما تمثل ذلك في الخيال المنفصل. وربما حضر بوجوده الحسي عند وجود النوازل شيئاً للمريد ومعلماً.

وسمعتة رضى الله عنه يقول: ما سمعتموه مني ففهمتموه فاستودعوه الله يرده عليكم وقت الحاجة، وما لم تفهموه فكلوه إلى الله يتولى الله بيانه.

فكلام الأكابر مردود على المريدين وقت حاجاتهم فيظن المريد أنه ما أخذ ولقد أخذه، ولكن للحكمة بذرونيات، ووقت البذر غير وقت النبات، وقد يبذر فيك بذر الحكمة ويبقى النبات موقفاً على عجيء سحابة ماطرة، فإذا جاءت أظهرت من الأرض ما كان فيها كامناً، فبقى الودائع مطوية في العباد حتى تبيء أوقاتها.

وبلغني عن الشيخ أبي الحسن أنه كان يقول: لا حجاب إلا الوقت.

وسمعتة يوماً يقول: كان إذا أذاني إنسان يهلك للوقت وأنا الآن لست كذلك، فرأى رضى الله عنه مستشرقاً لسبب ذلك، فقال: اتسعت المعرفة. وسمعتة يقول: لحوم الأولياء مسمومة! وأعلم علمك الله من العلم الذي يدل عليه، وجعلك من الدائمين بين يديه. أن انتصار الحق لأوليائه ليس ذلك لهم لأنهم طلبوه من الله، ولكن لما صدقوا التوكل عليه، وأرجعوا الأمر إليه انتصر الحق لهم، ألم تسمع قوله تعالى:

﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾.

وقوله عز وجل:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.

ولا تقولن هم من ينتصر لنفسه منك، بل عدهم من ينتصر الله له، فإنه الغالب الذي لا يفلح والقادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا قبل لأهل السموات والأرض بظنه من بلائه، ولو وضع ذرات قهره على الجبال لأذابتها.

ومعنى قول الشيخ: «اتسعت المعرفة» أن المريد في مبدأ إرادته بهيمته، وفي نهايته بوجود معرفته، فإذا كان في مبدأ إرادته توجهه بصدق الهمة إلى الله لاجئاً إليه في الانتقام من آذاه فينتصر الحق له لتوجهه بصدق الهمة في طلب النصرة، والضيق عطشه عن الصبر على تأخر الانتقام له، والعارف اتسع عليه بحر المعرفة، فأنطوت هتته وإنشاءته وتديبره في إشاعة الحق له، وتديبره إياه. ومن غلب عليه شهود المشيئة قاتى همة تبقى له!



وأيضاً؛ إنه إذا أخرجت عقوبة من آذاه شهد حسن اختيار مولاه، فلم يجعل له الانتصار؛ لأنه لا يخشى عليه ما يخشى على المريد من عدم الصبر إذا أخرج الانتقام له.  
وأيضاً؛ إن العارف لما توجه لطلب الانتقام من ظلمه قامت الرأفة والرحمة القائمتان به لتخليقه بخلق معروفه<sup>(١٩)</sup> فمنعاه من الانتصار وإن كان على ذلك قادراً، وكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعلاً فيهم؟

ثم أولياء الله إذا ظلموا على طبقات:

داع يدعو على من ظلمه، استنار الأذى منه القرح، واستخرج منه الاضطراب، فهذا الذي لا يرد دعوته ومنه قوله ﷺ:

«واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بيننا وبين الله حجاب»<sup>(٢٠)</sup>.

القسم الثاني: وهم الذين إذا ظلموا لجئوا إلى الله سبحانه في طلب النصرة وتعميل الإجابة، غير أنهم علموا أن الله يعلم السر وأخفى فرفعوا أمرهم إلى الله سرّاً وسراً وهؤلاء أولى بانتصار الحق لهم لتوكلهم عليه، ولإرجاعهم الأمر إليه، وقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾<sup>(٢١)</sup>.

وقد ذكر أن امرأة كان لها دجاجة، ليس عندها غيرها، وكانت تنقوت من بيضها فجاء سارق فسرقتها، فلم تدع عليه، وأرجعت الأمر إلى الله سبحانه، فأخذ السارق الدجاجة فذبحها وتنف ريشها فبنت جميعه بوجهه، فمضى في إزالة ذلك فلم يستطع، وسأل الناس فلم يقدر أحد على إزالة ما نزل به، إلى أن أتى حبراً من أحبار بني إسرائيل، فقال: لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك المرأة التي سرقت دجاجتها، فإن فعلت ذلك شفيت.

فأرسل إليها من قال لها: أين دجاجتك التي كانت عندك؟

قالت: سرقت.

قالوا: لقد آذاك من سرتها.

قالت: قد فعل.

قالوا: وقد فجعتك في بيضها.

قالت: هو كذلك.

فما زالوا بها حتى أناروا الغضب منها، فدعت عليه، فتساقط الريش من وجهه.

ف قيل لذلك الحبر: من أين علمت هذا؟

قال: إنها لما سرقت دجاجتها لم تدع عليه، ورجعت إلى الله في أمره، فانتصر الله لها، فلما دعت

(١٩) أي تخلقه بخلق الله سبحانه من الرحمة والرأفة.

(٢٠) رواه أحمد والبخاري في الزكاة والجهاد والظلم والمغازي، ومسلم في الإيمان، وأبو داود في الزكاة، والترمذي في الزكاة، والنسائي في الزكاة، وابن ماجه في الزكاة، والدارمي في الزكاة.

(٢١) الطلاق: ٣.

انتصرت لنفسها، فسقط الريش من وجه السارق.

القسم الثالث: عباد لما ظلموا لم يدعوا ولم يلجئوا إلى الله في طلب الانتقام من ظلمهم، ولكن فوضوا الأمر إلى الله، فكان هو المختار لهم.

القسم الرابع: وهم الطبقة العليا وهم الذين إذا ظلموا رحبوا من ظلمهم.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه.

وإذا آذاك ظالم فعليك بالصبر والاحتمال، واحذر أن تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان، ظلم غيرك لك، وظلمك لنفسك؟

فإذا فعلت ما أكرهت به من الصبر والاحتمال أنايك سعة الصدر حتى تغفو وتصفح، وربما أنايك من تور الرضا ما ترحم به من ظلمك فتدعو له، فتجانب فيه دعوتك.

وما أحسن حالك إذا رُحِم بك من ظلمك، فنلك درجة الصديقين الرحماء: ﴿فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ (٢٢).

ومن هذا القليل الذى ذكره الشيخ أبو الحسن: ما اتفق لإبراهيم بن أدهم - رضى الله عنه - أنه قال له جندى: أين العمران؟ فأشار إلى المقابر، فظن أنه يهزأ به، فضربه فشيجه، فطأ رأسه، وقال: اضرب رأساً طال ما عصت الله تعالى.

ف قيل للجندى: هذا إبراهيم بن أدهم زاهد خراساني، فأنكب على رجله يقبلها، ويعتذر إليه، فقال له إبراهيم بن أدهم: والله مارفعت يدك من ضربي إلا وأنا أسأل الله لك المغفرة لأني علمت أن الله يبيئني على ما فعلت بي، ويؤاخذك على ما فعلت: فاستحييت أن يكون حظي منك الخير وحظك مني الشر.

فقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: ليس هذا عين الكمال، ما فعله الصحابي سعد أحد العشرة وهو عين الكمال، ادعت عليه امرأة أنه احتاز شيئاً من بستانها، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعصها وأمتها في مكانها، فعميت وجاءت يوماً تمشى في بستانها، فوقع في يثر فماتت، فلو كان ما فعله إبراهيم عين الكمال لكان الصحابي أولى به ولكنه كان سعد أميناً من أمناه الله نفسه ونفس غيره عنده سواء، فما دعا عليها لأنها آذته، ولكن دعا عليها لأنها آذت صاحب رسول الله ﷺ، وإبراهيم لم يصل إلى هذه المرتبة، فترك الدعاء على الجندى لئلا يكون ذلك انتصاراً لنفسه، وسعد رضى الله عنه قد خلصه الله من نفسه وأبرزه إلى الخلق، يخلص به من يشاء من عباده، والصوفي لا يستقضى الحق لنفسه ولكن يستقضى الحق لربه.

فائدة:

أعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم في بداياتهم أن تسلط الخلق عليهم ليظهروا من البقايا، وتكمل فيها المزاي، وكلا يساكنوا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد ومن آذاك فقد اعتنك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: جُبلت

القلوب على حب من أحسن إليها.  
وقال ﷺ: من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا (٢٣) له. كل ذلك ليتخلص القلب من إحسان الخلق، ويتعلق بالملك الحق.  
وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

أهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك، وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك خير لك من أن تصاب في قلبك، ولعند متصل به إلى الله، خير لك من حبيب يقطعك عن الله، وعد إقبالهم عليك ليلاً وإعراضهم عنك نهاراً ألا تراه إذا أقبلوا فتتوا؟ وتسليط الخلق على أولياء الله في مبدأ طريقهم سنة الله في أحبائه وأصفيائه، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا، فكل عز يمنع دونك قنسالك بدله ذلاً تصحبه لطائف رحمتك، وكل وجد يحجب عنك قنسالك عوضه فقد تصحبه أنوار محبتك.

وبما يدل على أن هذه سنة الله في أحبائه وأصفيائه قوله الله سبحانه: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نَصْرَ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢٤)، وقال عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرِّسْلَ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا نَصْرَنَا﴾ (٢٥).  
وقوله عز وجل:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلُكَ الْوَارِثِينَ. وَتُكِنُّ هُمَ فِي الْأَرْضِ﴾ (٢٦)، وقوله عز وجل:  
﴿أَلَمْ يَلْمِزْ لَكُمْ الْيَهُودَ بِمَا كَفَرُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغيرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ (٢٧).

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.  
فمن حالهم في بداياتهم طأطأ إبراهيم رأسه حين ضربه الجندي وقال: اضرب رأساً طال ما عصت الله تعالى.

وقوله: فرحت من عمرى مرتين.  
مرة كنت في مسجد فأصابني البطن فكنت أقوم وأقع، فجاء صاحب المسجد وأمرني أن أخرج فلم أستطيع لقوة الضعف، فأخذ برجلي يجربني حتى أخرجني؟  
والمرة الثانية: ركبنا في سفينة وكان هناك مضحك، فكان يقول: كنا تأخذ الملح في بلاد الروم

(٢٣) رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح نحوه.

(٢٤) البقرة: ٢١٤.

(٢٥) يوسف: ١١٠.

(٢٦) القصص: ٥.

(٢٧) الحج: ٣٩، ٤٠.

هكذا ويعد يده إلى الخبى فيهبها فأعجبنى ذلك إذ لم ير في السفينة من هو أحقر منى. وهذا شأنهم في بداياتهم علما منهم بوجود البقايا فيهم فخافوا أن ينتصروا فينتصروا لأنفسهم، فيسقطون من عين الله تعالى، فرجعوا إلى وجود الحلم كافرين أيديهم عن الانتصار؛ لعلمهم بأفان الانتصار للنفس، وشرعة الحق سبحانه وعادته في أصفائه كثرة الأعداء والنصرة منه لهم عليهم. قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

أذاني إنسان مرة فضقت ذرعا بذلك فنمت قرأت قائل يقول لى: «من علامة الصديقية كثرة أعدائهم ثم لا يبالي بهم».

ويجب أن تعلم أن النفوس شأنها استحلاء الإقامة في مواطن العز والرقعة، فلو تركها الحق سبحانه وما تريد هلك، فأزعجها عن ذلك بما يسلط عليهم من أذى المؤذين ومعارضة الحاسدين. وقال بعض العارفين: الصيحة من العدو سوط الله يضرب به القلوب، إذا ساكنت غيره، لولا ذلك لرقد القلب في ظل العز والجساء، وهو حجاب عن الله عظيم. وصدق رضى الله عنه.

وهذا الصنع من حسن نظر الله تعالى لأوليائه وأحبابه، وإظهار لأتار ولايته فيهم لقوله عز وجل: ﴿والله ولى الذين آمنوا﴾.

فإنما تمت أنوارهم وتظهرت من البقايا أسرارهم حكمهم في العباد، فحينئذ يكون العبد المجتنب سيفاً من سيوف الله تعالى ينتصر الله به لنفسه.

من هذا الباب دعا سعد على المرأة التى ادعت عليه كذبا وقال: اللهم أعم بصرها وأمتها في مكانها، فاستجيب له، ولما دخل على عثمان بن عفان رضى الله عنه الدار لعظم إنسان وجه زوجته، فقال له عثمان رضى الله عنه: قطع الله يدك ورجلك وأدخلك في النار.

فرمى ذلك الرجل بالشام وقد قطعت يده ورجلاه، وهو يقول: دعوة عثمان استجيبت في اثنتين. وبقيت الثالثة، ولذلك قد تلتبس أحوال الرجال على عموم العباد فلا تفضل وليا ظلم فصفع على ولي ظلم فانتصر أو دعاء فقد يكون صفح من صفح لعلمه بالبقايا في نفسه، ودعاء الداعي لعلمه بتطهيره من البقايا فدعا انتصارا لربه.

وأما صبره، فكان رضى الله عنه من الثابتين في مركز الصبر، وكان به أمراض عديدة لو وضع بعضها على الجبال لذابت؛ كان به برد الكلى، وكان به الحصى، وكان به اثنا عشر بأسورا وهو يجلس للناس، ولا يقطع الجلوس لهم ولا يتأوه في حين جلوسه، ولا يعلم الجالس عنده أن به شيئا من الأمراض، ولم تكن الأمراض أورقة صفرة في الوجه، ولا تغيرا في البدن حتى كان يقول: لا تنظروا إلى حمرة وجهي فحمرة وجهي من قلبي.

ودخل عليه إنسان فوجد ألما به، فقال ذلك الرجل: عافاك الله يا سيدى. فسكت الشيخ رضى الله عنه ولم يجاوبه، ثم مكث ذلك الرجل ساعة، وقال: الله يعافيك يا سيدى. فقال الشيخ: وأنا سألت الله العافية، أنا قد سألت العافية والذي أنا فيه هو عين العافية.

رسول الله ﷺ قد سأل العاقية، وقد قال رسول الله ﷺ: ما زالت أكلة خبير تعنادني فالآن قد قطعت أبهرى (٢٨).

عمر رضى الله عنه قد سأل الله تعالى العاقية وبعد ذلك مات مطعونا.  
عثمان رضى الله عنه قد سأل الله العاقية وبعد ذلك مات مذبحا.  
على رضى الله عنه سأل الله العاقية وبعد ذلك مات مقتولا.  
فلذا سألت الله العاقية فإسألة العاقية من حيث يعلمها لك إنها عاقية.  
وكان رضى الله عنه يقول: الصبر مشتق من الأصبار، وهو الغرض الذى يرمى عليه بالسهم،  
فالأصبار من نصب نفسه غرضاً لسهم القضاة.  
وكان هجيراه يسألى الله اللطف قل أن يفتر عن ذكر ذلك.  
ودخلت عليه يوماً فوجدت ألماً به فقلت: يا سيدى أظنك ضعيفاً فقال رضى الله عنه: الضعيف من لا إيمان له ولا تقوى.  
واعلم أن الصبر على ثلاثة أقسام:

صبر على الواجبات، وصبر على المحرمات، وصبر فى الليليات.  
وصبر الأكيار على كتم الأسرار، وقد ركون إلى الآثار، وعدم الوقوف مع الأنوار.  
صبرهم على حمل الأذى، والثبوت تحت مجارى القضاة.  
صبرهم على حمل أفعال العباد، والصبر مع الله فيما أراد.  
صبرهم على القيام بأحكام العبودية، والثبوت لمجارى أحكام الربوبية.  
صبرهم على مكارم الأخلاق؛ والقيام مع الله بشرط الوفاق.  
صبرهم على جمع المهم عليه، والرجوع فى كل أمرهم إليه.  
صبرهم على الجلوس للخلق، والدلالة على الملك الحق.  
وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول: وإله ما جلست للخلق حتى هددت بالسلب.  
وقيل لى: لئن لم تجلس للناس لتسليتك ما وهبتك.

وأما سداد طريقته، فكان رضى الله عنه شديد التحرز من حقوق العباد، مسرعاً للوفاء بها حتى أنه يوفى الشيء قبل استحقاقه، ويحمل أصحابه على التخلص من حقوق العباد.  
إذا كان عليه دين أحسن القضاء، وإذا كان له حق أحسن الاقتضاء، منقطعاً عن أبناء الدنيا  
والتردد إليهم، لا يرفع قدمه لأحد منهم، ولا يبعث إليهم، ولا يكاتبهم إذا طلب منه أن يكتب  
إليهم، قال لطالب ذلك: أنا أطلب لك ذلك من الله، فإن رضى الطالب بذلك نجح مسعاه، ولطف به

(٢٨) الأمير: عرق فى الظهر، يقال هو الوريد فى العنق، وقال أبو عبيد: «الأمير: عرق مستطير فى الصلب، والقلب متصل به فإذا انقطع لم تكن معه حياة» اهـ.

مولاه متيناً إلى الجلوس للخلق، لا تأتية ليلاً ولا نهاراً إلا وجدته.  
ولقد آتيته يوماً واستأذنت عليه، فقيل لي: اصبر قليلاً، فنشوت من ذلك، وقلت: قد يكون بلغ  
الشيخ عني ما أوجب تغيره.

فبعد ساعة أذن لي فدخلت، فقال الشيخ رضى الله عنه: اعدري، كانت أئنة الشيخ أبى الحسن  
رضى الله عنه عندي فكرهت أن أقطع كلامها، والله ما أعد نفسي إلا خادماً من خدامهم  
وكان ينهى أن يعوق المريد إذا جاءه ويقول: المريد بأق بشملة هتته، فإذا قيل له: قف ساعة؛  
طَفِيتَ ما جاء به.

وكان لا يدل المريد على المتاعب والمشقات ولا يلزمه ذلك.  
وكان يقول عن شيخه أبى الحسن: ليس الرجل من ذلك على تعبك، إنما الرجل من ذلك على  
راحتك.

ومبنى طريقته رضى الله عنه على الجمع على الله، وعدم التفرقة؛ وملازمة الخلوة والذكر.  
ولكل مريد معه سبيل يعمل كل واحد على السبيل التي تصلح له.  
وكان لا يحب المريد الذى لا سبب له.

وكان يدل المريدين على الانجماع في حبه، ولا يلزم المريد أن لا يرى غيره.  
وكان يقول عن شيخه رضى الله عنه: أصحبوني ولا أمنعكم أن تصحبوا غيري، فإن وجدتم  
منهلاً أعذب من هذا المنهل فردوا.

وكان إذا دخل المريد في أرواده بنفسه وهواه أخرجه عنها.  
وكان إذا مدح بقصيدة أو أبيات يميز المادح بإقواله، وربما واجهه بثوابه. وكان مكرماً للفقهاء،  
ولأهل العلم وطلبته، إذا جاءوه؛

وكان يقول لأصحابه إذا جاء رئيس أو ذو وجهة: عَرِّفُونِي بِهِ.  
وكان أزهّد الناس في ولاية الأمور، فإذا جاءوه أكرمهم وربما مشى لهم خطوات.  
وكان شديد التعظيم لشيخه أبى الحسن رضى الله عنه، حتى إنك كنت تشهد منه أنه لا ثبات منه  
لنفسه معه.

وكان ينشد إذا ذكر الشيخ رضى الله عنه هذه الأبيات:  

في سادة من عسّرهم	أقدامهم فسوق الجباه
إن لم أكن منهم فلي	في حيتهم عسّر وجباه

وكان من شأنه أن ما عني به لا يأكله.  
وكان يكره أن يعلم بطعام أو هدية قبل إتيانها.  
وكان لا يدعو للمحسن بحضرته، بل إذا غاب دعا له بظهر الغيب.

وكان إذا أهدى له شيء يسير تلقاه ببشاشة وقبول، وإذا أهدى إليه شيء كثير تلقاه بالعز.  
وكان لا يمين على مرید ولا يرفع له علمًا بين إخوانه خشيةً عليه أن يُحسد.  
وكانت صلاته موجزةً في تمام، وكان يقول: صلاة الأبدال خفيفة.  
وكان إذا تلا تقول الكون كله مستمع له، وصلى قيام رمضان سنةً، فقال: قرأت القرآن في هذه السنة، كأنما أقرؤه على رسول الله ﷺ، ثم جاء رمضان الثاني، فقال: قرأته في هذه السنة: كأنما أقرؤه على جبريل عليه السلام، ثم جاءت السنة الثالثة فقال: قرأته في هذه السنة كأنما أقرؤه على الله عز وجل.

وكان إذا كانت ليلة القدر أخبر بها أصحابه، ودعا فيها بمقدار ما يدعو كل ليلة ثلاث مرات.  
وكان يقول: أوقانتا كلها والحمد لله ليلة قدر (٢٩).

وأنشدنا بعض إخواننا لبعض أهل الطريق في المعنى:

لولا شهود جمالكم في ذاتي ما كنت أرضى ساعة بحياتي  
ما ليلة القدر المعظم شأنها إلا إذا عَمَسَتْ بكم أوقاساتي  
إن المصيب إذا تمكَّن في الهوى والحُب لم يحسج إلى ميسقات

وجاء الفقيه مكي بن الأسمر رضى الله عنه سنةً، فقال له: يا سيدي رأيت ليلة القدر، ولكن ليس كما أراها كل سنة، رأيتها هذه السنة لا نور لها، فقال له الشيخ رضى الله عنه: نورك طمس نورها يا مكي بن الدين.

(٢٩) كانت هناك محاولات طريفة من بعض العلماء والصالحين لتحديد ليلة القدر: فمثلاً قال بعضهم: إن عدد كلمات سورة القدر ثلاثون كلمة كعدد أيام رمضان، وكلمة «هي» التي تشير إلى ليلة القدر في قوله تعالى في السورة نفسها «سلام هي» هذه الكلمة تمام سبعة وعشرين. هذه محاولة.

ومحاولة أخرى هي:

إن حروف ليلة القدر تسعة حروف، وقد ذكرت ليلة القدر في السورة ثلاث مرات، وثلاث في تسع وسبع وعشرين.  
أما الشيخ أحمد ذروي رضى الله تعالى عنه فإنه يقول فيها:  
إنها لا تفارق جمعة من أواخر شهر، وقد روى هذا أيضاً عن ابن العربي. هذه محاولات أما الثابت المتيقن فهو: أن القرآن لم يبينها تعييناً واضحاً، وأن الرسول ﷺ لم يحددنا تحديداً تاماً.

ولقد قال أسلافنا رضى الله عنهم:

أخفى الرب أموراً في أمور حكيم:

ليلة القدر في الليالي لتحيى جميعها - وساعة الإجابة في الجمعة يدعو في جميعها، والصلاة الوسطى في الصلوات ليحافظ على الكل - والاسم الأعظم في أسائه يدعو بالجميع، ورضاه في طاعته ليحرص العيد على جميع الطاعات، وغضبه في معاصيه، لينتجزر عن الكل، والوفاة في المؤمنين ليحسن الظن بكل منهم، ويجريه الساعة في الأوقات للخوف منها دائماً، وأجلى الإنسان عنه ليكون دائماً على أهبة.

ويقرب الشيخ أحمد الصاوي على ذلك في حاشيته على الجلالين فيقول:

«فعل هذا يحصل ثواباً لمن قامها، ولو لم يعلمها، نعم! العالم بها أكمل. هذا الأظهر».

ولقد رأينا في عصرنا الحاضر عن تجربة أكثر من واحد يطمون ليلة القدر، بعضهم يعلمها قبل إتيانها، وبعضهم يعلمها في ليلتها، ويفضل الله أوسع من ذلك وأعظم.

ولقد كنت مع الشيخ مكيين الدين هذا بالجامع المغربي من الإسكندرية في العشر الأخير من رمضان ليلة ست وعشرين، فقال الشيخ مكيين الدين: أنا الساعة أرى ملائكة صاعدة وهابطة في هيئة وتعبئة، أريت تأهب أهل العرس بليلة قبله؟ كذلك رأيتهم فلما كانت الليلة الثانية، وهي ليلة سبع وعشرين، وكانت ليلة جمعة، قال: أنا الساعة أرى ملائكة معها أطباق من نور، الطبق يوازي مثدنة الجامع، وفوق ذلك وبدون ذلك، وهذه هي ليلة القدر، فلما كانت الليلة الثالثة، وهي ليلة ثامن وعشرين، قال: رأيت هذه الليلة كالمختبئة وهي تقول: هب أن ليلة القدر حقاً يرعى، أما لي حق يرعى؟

وكان الشيخ مكيين الدين - رضى الله عنه - من أرباب البصائر ومن النافذين إلى الله عز وجل، كان أفتشخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه يقول عنه: بينكم رجل يقال له عبد الله بن منصور، أسمر اللون، أبيض القلب، والله إنه ليكاشفني، وأنا مع أهلي، وعلى فراشي مرة أخرى قال الشيخ أبو الحسن أيضاً فيه: ما سلكت غيباً من غيوب الله إلا وعامته تحت قدمي.

ولقد أخبرني الشيخ مكيين الدين هذا، قال: دخلت مسجد النبي ﷺ بالإسكندرية (٣٠) «بالدياس» فوجدت النبي المذنون هناك قائماً يصلي، عليه عباءة مخططة، فقال لي: تقدم فصل. فقلت له: تقدم أنت وصل، قال: تقدم أنت وصل، فإنكم من أمة نبي لا ينبغي لنا التقدم عليه. قال: فقلت له: بحق هذا النبي إلا ما تقدمت فصلت.

قال: فأنا أقول: بحق هذا النب إلا وهو قد وضع فمه على قمي إجلالا للقطعة النبي كيلا يبرز في الهواء.

قال: فتقدمت فصلت.

وأخبرني الشيخ مكيين الأسمر أيضاً: قال: يت بالقراءة ليلة الجمعة، فلما قام الزوار قبت معهم، وهم يتلون إلى أن انتهوا في التلاوة إلى سورة يوسف عليه السلام، ومنها إلى قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ﴾ وانتهوا في الزيارة إلى قبور إخوة يوسف، فرأيت القبر قد انشق وطلع منه إنسان طويل، خفيف شعر اللحية صغير الرأس آدم اللون، وهو يقول: من أخبركم بقصتنا؟ هكذا كانت قصتنا.

ولقد كنت يوماً مضطجعاً وأنا ساكن مطمئن وأجد في قلبي انزعاجاً على بفته وباعثاً يبعثني على الاجتماع بالشيخ مكيين الدين الأسمر رضى الله عنه، فقممت مسرعاً فدققت الباب فخرج، فلما وقع بصره على قال: أنت ما تحيي حتى تسير الناس خلفك. وتبسم قلت: يا سيدي قد جئت، فدخل وأخرج لي وعاء، وقال: هذا الوعاء اذهب به إلى الشيخ أبي العباس وقل له: قد كتبت فيه آيات من القرآن ومحوتها بما زمزم وشيء من العمل، فذهبت بذلك للشيخ أبي العباس رضى الله عنه فقال: ما هذا؟ قلت أرسله إليكم الفقيه مكيين الدين الأسمر، فأدلى فيه إصبعا واحداً وقال: هذا



بحسب البركة وفرغ الوعاء وملاه غسلًا، وقال اذهب به إلى الققيه. فذهبت بذلك إليه ثم عدت إليه بعد ذلك فقال لي: رأيت البارحة ملائكة أتوني بأوعية من زجاج مملوءة شرابًا وهم يقولون خذ هذا عوض ما أهديت للشيخ أبي العباس رضى الله عنهم أجمعين.

وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه كثير الرجاء لعباد الله، الغالب عليه شهود وسع الرحمة. وكان رضى الله عنه يحرم الناس على نحو رتبهم عند الله حتى إنه ربما دخل عليه مطيعٌ فلا يهتيل (٣١) به وربما دخل عليه عاصرٌ فأكرمه، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله ناظر لفعله، وذلك العاصي دخل عليه بكسر معصيته وذلة مخالفته (٣٢).

وكان شديد الكراهة للوسواس في الطهارة والصلاة، ويثقل عليه شهود من كان ذلك وصفه، سئل يومًا وأنا حاضر فقبل له: يا سيدى فلان صاحب علم وصلاح كثير الوسوسة فقال: وأين العلم والصلاح يا فلان؟ العلم هو الذى ينطبع في القلب كالبياض في الأبيض والسواد في الأسود.

(٣١) أى: لا يحتم به.

(٣٢) ولابن عطاء الله في ذلك حكمة جليقة يفرها فيها:  
«معصية أوردت ذلًا وانتقارًا، خير من طاعة أوردت عزًا واستكبارًا».



## السَّابِقُ الْخَامِسُ

في آيات من كتاب الله تعالى  
تكلم على تبيين معناها وإظهار فحواها

قال الله سبحانه:

﴿الحمد لله رب العالمين﴾<sup>(١)</sup>.

قال الشيخ رضى الله عنه: علم الله عجز خلقه من حمده فحمد نفسه بنفسه في أوله، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمده بحمده، فقال: الحمد لله رب العالمين، أى قولوا الحمد لله رب العالمين، أى الحمد الذى حمد به نفسه بنفسه هو له لا ينبغي أن يكون لغيره، فعلى هذا تكون الألف واللام عهدتين.

وسمعه يقول في قوله عز وجل:

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾<sup>(٢)</sup>.

إياك نعبد شريعة، وإياك نستعين حقيقة.

إياك نعبد إسلام، وإياك نستعين إحسان.

إياك نعبد عبادة، وإياك نستعين عبودية.

إياك نعبد فرق، وإياك نستعين جمع.

واعلم وحكم الله بإقباله عليك بوجه، وجعلك من المراعين لعهد، أن الله سبحانه طلب من العباد أن يعبدوه، واقتضى منهم أن يسجلوا بذلك على أنفسهم تطلقاً كما قاموا به على. واقتضى منهم أن يفردوه.

واقتضى منهم أن تنتظم العبادة جميع جوارحهم الظاهرة وحقائق وجوداتهم الباطنة.

واقتضى منهم الرجعى إليه من دعوى القيومية في العبادة التبرى من الحول والقوة. فلما قام العبد لله بالعبادة عملاً، اقتضى الحق أن يعترف بها نطقاً: ليكون ذلك معاهدة بينه وبين الحق عز وجل، حتى إذا انفلتت نفسه عن القيام بالعبادة وثقلت عليها ملامة التكليف، قامت الحاجة على العبد بما أعطى الله سبحانه من الاعتراف بالعبادة له وأنه لا يعبد غيره لقوله: ﴿إياك نعبد﴾، واقتضى من العباد أن تستوعب العبادة جميع جوارحهم الظاهرة وعوالمهم الباطنة بإتيانه بالصيغة هكذا: ﴿نعبد﴾ وإعراضه عن التعبير بالهمزة المفردة بالتكلم لأن النون إنما تكون للواحد المعظم نفسه، أو العظيم في نفسه، وليس هذا موضع هذين المعنيين؛ إذ العبد لا يبتدئ بين يدي الله بوصف

عظمة، فلم يبق إلا أن يكون للواحد ومعه غيره، وذلك ما أشرنا إليه من الجوارح الظاهرة والحقائق الباطنة.

ولما أنه اقتضى منهم الرجعى إليه من دعوى القيومية في العبادة لأنه لما قال: ﴿إياك نعبد﴾ فأضاف العبادة إليهم، واقتضى منهم أن يعترفوا بذلك قياماً بدائرة الفرق التي عليها يترتب التكليف، أردف ذلك بقوله: ﴿وإياك نستعين﴾ كيلا يدعى العباد معه أنهم قاموا بالعبادة بأنفسهم فأراد منه أن يوفروا الحقيقة حقها والشرعة حقها؛ فلذلك جمع بين الأمرين: القيام بالعبادة لربوبيته، والتبرئ من الجول والقوة مع إلهيته.

ثم قال سبحانه وتعالى:

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (١).

فقال الشيخ رضى الله عنه: بالثبوت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل. وهذا الجواب ذكره ابن عطية في تفسيره وبسطه الشيخ رضى الله عنه فقال: عموم المؤمنين يقولون: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أى: بالثبوت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين.

والمصالحون يقولون: اهدنا الصراط المستقيم. معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء. والشهداء يقولون: اهدنا الصراط المستقيم أى بالثبوت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل فإنهم حصل لهم درجات الشهداء وفاتهم درجات الصديقية.

والصديقون يقولون: اهدنا الصراط المستقيم أى بالثبوت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم درجات الصديقية وفاتهم درجات القطبية.

والقطب يقول: اهدنا الصراط المستقيم، أى بالثبوت فيما هو حاصل، والإرشاد بما ليس بحاصل، فإنه قد حصل وبة القطبانية وفاته علم إذا شاء الله أن يطلعه عليه أطلعه. وقال في قوله عز وجل:

﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ (٢).

كل موضع ذكر فيه المصكون في معرض المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة إما بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها، قال الله سبحانه:

﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾.

(١) الفاتحة: ٦.

(٢) البقرة: ٣.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ (٥).

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ (٦).

﴿وَأَقَامِ الصَّلَاةَ﴾ (٧).

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (٨).

﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ (٩).

ولما ذكر المصلين بالغفلة قال:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (١٠).

ولم يقل: وويل للمعتمين الصلاة.

والإقامة هو أنه إذا صلى المؤمن صلاة فتقلبت منه خلق الله من صلاته صورة في ملكوته راكمة ساجدة إلى يوم القيامة وثواب ذلك لصاحب الصلاة (١١).

وقال في قوله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ (١٢).

«بقرة كل إنسان نفسه، والله أمرك بذبحها» (١٣).

وقال في قوله عز وجل:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ (١٤).

قيل: إنما وقع التفصيل في العبارة تأديباً من الله لنا فأضاف المحاسن إليه وأضاف المساوئ إلينا وإن كان فعل العبد كله خلق الله تعالى؛ حسنه وسيئه. كما قال:

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ (١٥).

فأضاف ذلك إلى الله، وقال في السفينة:

﴿فَأَرَادَتْ أَنْ أُعْيِيَهَا﴾ (١٦).

ولم يقل: فأراد ربك أن يعييبها أديباً في التعبير، كما قال إبراهيم عليه السلام:

(٥) إبراهيم: ٤٠.

(٦) الإسراء: ٧٨.

(٧) التوبة: ١٨.

(٨) فاطر: ٢٩.

(٩) الحج: ٣٥.

(١٠) المؤمن: ٤، ٥.

(١١) إقامة الصلاة: أدائها، كما يحبب الله ورسوله، وهو أن يتجزأ فيها الله سبحانه وتعالى تيمناً كاملاً وانقطاعاً بين يديه مستشعراً عظمته وجلاله وجماله، وهذا النوع من الصلاة هو المأمور به، وهو الذي ينهي عن الفحشاء والمنكر، وهو الذي يفرج إليه الإنسان إذا حزبه أمر أو سزته كما كان يفعل الرسول ﷺ، فيبشّر الله الأمر ويقضى الحاجة.

(١٢) البقرة: ٦٧.

(١٣) إن أبا العباس رضي الله عنه يقول بالمعنى الأصلي للآية الكريمة: وباب الإشارات إليه متسع، ولا ضير ما دام المعنى الأصلي يقره المفسر، ويشير المؤلف إلى ذلك بعد.

(١٤) النساء: ٧٩.

(١٥) الكهف: ٨٢.

(١٦) الكهف: ٧٩.

﴿وَإِذَا مَرَضْتَ فَهُوَ يَشْفِيكَ﴾ (١٧).

فأضاف المرض لنفسه، والشفاء لله تعالى.

ومتهم من قال: إن ذلك داخل في مضمون القول، وإن هذا التفصيل حكاه الله عنهم، والتقدير: فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً في قولهم:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾.

ورد عليهم بقوله:

﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

وقال رضى الله عنه في قوله سبحانه:

﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ (١٨).

يولج المعصية في الطاعة ويولج الطاعة في المعصية (١٩)، يطيع العبد الطاعة فيعجب بها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يفعلها ويطلب من الله العوض عليها، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات، ويذنب الذنوب فيلجأ إلى الله فيه ويعتذر منه ويستصغر نفسه ويعظم من لم يفعله، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات، فأيهما الطاعة وأيها المعصية؟

وقال رضى الله عنه: ألقى من كسر الأصنام، قال الله تعالى:

﴿فَقَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٢٠).

وقال رضى الله عنه في قوله عز وجل:

﴿وَأَمِنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (٢١).

الولى لا يزال مضطراً.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن العامة اضطرابهم بثورات الأسباب، فإذا زالت زال اضطرابهم، وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرابهم إلى الله دائم؛ لأن الاضطراب تعطيه حقيقة العبد إذ هو ممكن، وكل ممكن مضطر إلى ممد يده، وممد يده به، وكما أن الحق سبحانه هو الغنى أبداً، فالعبد مضطر إليه أبداً، ولا يزال العبد هذا الاضطراب لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو دخل الجنة، فهو محتاج إلى الله فيها، غير أنه غمس اضطرابه في

(١٧) الشرح: ٨٠.

(١٨) الحج: ٦١ - لقمان: ٢٩ - قاطر: ١٣ - الحديد: ٦.

(١٩) نعود فنقول: إن المعنى الملقى العادى للآية الكريمة، يقر به أمير العباس رضى الله عنه، ويعتده، وهناك إشارات تفيض بها الآية الكريمة لا تتعارض مع المعنى العادى، ولا تنقضه، وقطع الله في هذه الإشارات واسع، وهذا الذى يقوله يصنف على كل ما يأتي من باب الإشارة في الآية الكريمة أو الأحاديث النبوية الشريفة وهو الذى سيئنه عليه ابن عطاء الله بعد قليل.

(٢٠) الأنبياء: ٦٠.

(٢١) النمل: ٦٢.

الملة التي أفرغت عليه ملاسها، وهذا هو حكم الحقائق: أن لا يختلف حكمها لاني الغيب ولا في الشهادة ولا في الدنيا ولا في الآخرة.

فالعلم صفته الكشف أى علم كان وفي أى وقت كان، والإرادة صفتها التخصيص أى إرادة كانت، وفي أى وقت كانت، ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره.

وقد عاتب الله قومًا اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الاضطراب فلما زالت زال اضطرابهم، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا تَجَاكَمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ (٢٣) الآية. وقال سبحانه:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحُتَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِلًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُصْرَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٢).

وقال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿قُلْ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٢٤).

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى.

ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم، سلط الحق عليهم الأسباب المثيرة للاضطراب ليعرفوا قهر ربوبيته وعظمته وإلهيته وكبريائه.

ومن الدليل على فحامة رتبة الاضطراب أن الحق سبحانه أوقف الإجابة عليه فقال:

﴿أَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا﴾ (٢٥).

وإذا أراد الله سبحانه أن يعطي عبداً شيئاً وهبه الاضطراب إليه فيه، فيطلب باضطراب، فيعطى، وإذا أراد الله أن يمنع عبداً أمراً منعه الاضطراب إليه فيه، ثم منعه إياه وقامت حجة الله على العبد: لو اضطرت إلينا لأعطيناك، فلا يخاف عليك أن تضطر وتطلب فلا تعطى، بل يخاف عليك أن تحرم الاضطراب، فتحرم الطلب، أو تطلب بغير اضطراب فتحرم العطاء.

وقال في قوله عز وجل: ﴿كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٦).

ثم قال بعد ذلك:

﴿وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ يَجْتَمِعُ النَّخْلَةُ تَسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ (٢٧).

(٢٢) الإسراء: ٦٧، وقامها: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾. (٢٥) النمل: ٦٢.

(٢٣) يونس: ١٢. (٢٦) آل عمران: ٣٧.

(٢٤) الأنعام: ٦٣، ٦٤. (٢٧) مريم: ٢٥.

فذكر بعض الناس في هذا تأويلاً لا يرضى، ولا ينبغي أن يلتفت إليه، وهو أنه كان حيها لله وحده، فلما ولدت انقسم حيها. وليس الأمر كما قال هذا القائل، لأنها صديقة كما أخبر الله عنها: ﴿وأمه صديقة﴾ (٢٨).

والصديق والصديقة لا ينتقلان من حالة إلا إلى أكمل منها، ولكنها كانت في بدايتها متعرفاً إليها بخرق العادات وسقوط الأسباب فلما تكمل يقينها أرجعت إلى الأسباب فالحالة الثانية أتم من الحالة الأولى.

وقال رضى الله عنه: الفتوة: الإيمان والهداية قال الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (٢٩).

وقال رضى الله عنه في قوله سبحانه حاكياً عن الشيطان:

﴿لَوْ أَنِّي دُرِّيٌّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (٣٠).

ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم، لأن فوق: التوحيد، وتحت: الإسلام، والشيطان لا يمكنه أن يأبى المؤمن من توحيد ولا من إسلام.

وقال رضى الله عنه في قوله سبحانه:

﴿وَاتَّقِ اللَّهَ إِبرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣١).

قال سمي خليلاً لأنه خالل سره بحجة الله تعالى قال الشاعر:

قد تَخَلَّلْتُ مسلِكَ الروحِ مَنَ      ولذا سَمِيَ الخليلِ خَلِيلًا  
فإذا ما نطقت كنتَ كلامي      وإذا ما صمت كنتَ العليلاً

وقال رضى الله عنه في قوله تعالى:

﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ (٣٢).

قال: «وفى» بمقتضى قوله:

﴿حسبى الله﴾.

وقال رضى الله عنه في قوله عز وجل:

﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ (٣٣).

قال: من طاعتهم ومن أعاملهم التي قاموا لله تعالى بها في ليالهم أن يشهدوها من أنفسهم.

ودليل ما قال الشيخ رضى الله عنه: أن الله عز وجل وصفهم قبل ذلك بقوله:

﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ (٣٤).

(٢٨) الأعراف: ١٧.

(٢٩) النساء: ١٢٥.

(٣٠) الأعراف: ١٧.

(٣١) التيسير: ٣٧.

(٣٢) الكهف: ١٣.

(٣٣) الأعراف: ١٨.

(٣٤) الأعراف: ١٧.



ثم قال :

﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾.

فلم يتقدم منهم في ليلهم ذنوب يكون استغفارهم منها.

وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا سلم من صلاته استغفر الله ثلاثاً.  
وقال الواسطي :

العبادات إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الأعراض عليها.

وقال رضى الله عنه في قوله تعالى :

﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ (٣٥).

أى من طاعتهم وأعمالهم، ومثل ذلك :

﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ (٣٦).

وقال رضى الله عنه في قوله عز وجل :

﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً﴾ :

ولم يقل بنبيه ولا برسوله وهو نبيه ورسوله.

وإنما كان كذلك لأنه أراد أن يفتضح باب السرمان للأتباع فأعلمنا بأن الإسراء من بساط  
العبودية، فالنبي ﷺ كان له كمال العبودية فكان له كمال الإسراء، أسرى بروحه وجسمه وظاهره  
وباطنه.

والأولياء لهم قسط من العبودية فلهم قسط من الإسراء، يسرى بأرواحهم لا بأشباحهم.

وسمعه رضى الله عنه يقول في قوله سبحانه وتعالى :

﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر (٣٧).

﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ في هذه الدار وفى تلك الدار، في الدنيا، في جنات العلوم وأتعار  
المعارف، وفى الآخرة، فى الجنة التى وعدوا بها، فى مقعد صدق، فى هذه الدار وفى تلك الدار عند  
ملك مقتدر فى هذه الدار وفى تلك الدار.

وبسط كلام الشيخ رضى الله عنه هو :

أن نعيم الجنة الكائن فيها يكون رقائقه معجّلة للمتقين فى هذه الدار، فما كان لهم فى الجنة حساً  
يكون لهم فى هذه الدار معنى.

ومثل هذه الآية قوله سبحانه :

﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ (٣٨).

(٣٧) القمر: ٥٤، ٥٥.

(٣٨) الانفطار: ١٣، والطهين: ٢.

(٣٥) يونس: ٥٨.

(٣٦) الزمر: ٣٢.

أى فى هذه الدار وفى تلك الدار فى الدنيا، فى نعيم الشهود وفى الآخرة فى نعيم الرؤىة. وكذلك قوله:

﴿وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفَى جَعِيمٌ﴾.

أى فى هذه الدار وفى تلك الدار فى هذه الدار فى جعيم القطيعة وفى تلك الدار فى جعيم العقوبة، وقوله:

﴿فَى مَقْعَدٍ صَدَقَ﴾.

أى فى هذه الدار وفى تلك الدار فى هذه الدار فى مَقْعَدٍ صَدَقَ العبودية وفى تلك الدار فى مَقْعَدٍ صَدَقَ التخصصية.

﴿عِنْدَ مَلِيكَ مَقْتَدِرٌ﴾.

فى هذه الدار وفى تلك الدار فى هذه الدار لهم عندية الإمداد وفى تلك الدار لهم عندية الإسهاد. وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (٣٩):

الحق الذى خلق الله به كل شىء كلمة:

كن.

قال الله سبحانه:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ (٤٠).

وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه:

﴿أَنْ أَشْكُرَ لِمَنْ وَلِيَ الدَّيْكَ﴾ (٤١):

إنما قرن شكرها بشكره لأنها أصل فى وجودك.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلَى فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى، قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى، قَالَ: خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (٤٢).

يقال للولى: وما تلك يمينك أيها الولى؟

قال: هى دنياى، أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمى. وخنمه أعضاؤه، ولَى فيها مآرب أخرى.

فيقال له: ألقها فناء عنها.

فألقاها.

فيكشف له عن حقيقتها فإذا هى حية تسمى.

(٤١) لقمان: ٦٤.

(٤٢) طه: ١٧ - ٢١.

(٣٩) يونس: ٥.

(٤٠) الأنعام: ٧٣.

ثم يقال له:

﴿أخذها ولا تحفظ﴾.

فلا يضروه أخذها؛ لأنه أخذها بإذن الله كما ألقاها بإذن الله، فأخذها من الوجه الذي به ألقاها، قاطاع الله في أخذها كما أطاعه في إلقائها.

وقال رضى الله عنه في قوله سبحانه:

﴿ويوم نَشْقُ السَّاءَ بالغمام، ونَزَلَ الملائكة تنزيلاً، الملكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمن﴾ (٤٣).

إنما قال للرحمن ولم يقل للقهار ولا للمعز؛ لأن تشقق الساء بالغمام وتنزل الملائكة مظهران من مظاهر القهر والسطوة، فلو قال للقهار أو للمعز لم يطق ذلك العباد وتفطرت قلوبهم، فترقق بهم أن قال:

﴿الملك يومئذٍ الحقُّ للرحمن﴾.

وهكذا قوله:

﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ (٤٤).

ولم يقل إلى القهار ولا إلى المعز؛ لأن الحشر وهو المطلع شديد فلاطفهم برحمانيته في ظهور سلطان قهره.

وقال رضى الله عنه وقد سئل عن قوله تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمون﴾ (٤٥).

فقال له القائل: من أين للعبد أن يتقى الله حق تقاته، ومن أين له أن لا يموت إلَّا وهو مسلم؟ فقال الشيخ رضى الله عنه: قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى:

﴿فأتقوا الله ما استطعتم﴾.

فكانوا قد خاطبوا أولاً أن يتقوا الله حق تقاته، وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ثم خفف عنهم بقوله:

﴿فأتقوا الله ما استطعتم﴾.

قال الشيخ رضى الله عنه: ويمكن الجمع بين الآيتين:

﴿فأتقوا الله ما استطعتم﴾.

أى فى جانب الأعمال وقوله:

﴿أتقوا الله حق تقاته﴾.

أى فى جانب التوحيد، وقوله:

﴿ولا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمون﴾.

أى لا تتعاطوا من الأعمال إلا أفعالاً إذا متم عليها متم مسلمين.  
وقال رضى الله عنه: صليت خلف الشيخ صلاة الصبح فقرأ بحم عسق حتى انتهى إلى قوله تعالى:

﴿يحب لمن يشاء إناثاً﴾.

فخطر لي أنها الحسنات.

﴿ويحب لمن يشاء الذكور﴾.

فخطر لي أنها العلوم.

﴿أو يزوجهم ذكراً وإناثاً﴾.

علومًا وحسنات.

﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾.

لا علم ولا حسنة.

فلما سلم الشيخ من الصلاة استدعاني وقال: لقد وجدت فهمك في الصلاة يهب لمن يشاء إناثاً الحسنات، ويحب لمن يشاء الذكور العلوم، أو يزوجهم ذكراً وإناثاً علومًا وحسنات ويجعل من يشاء عقيماً لا علم ولا حسنة.

فعجبت من اطلاع الشيخ على ذلك.

فقال: أعجب من اطلاعي على فهمك في الصلاة، قد فهم فلان كذا، وفهم فلان كذا، حتى عدّ أنهام الجماعة الذين خلفه.

وقال رضى الله عنه في قوله تعالى:

﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ (٤٦).

فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان، فغشغشهم ذلك عن محبة الحبيب، وقرم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو أى وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبهته فكفاهم من دونه.

فقبل لبعضهم: كيف صنعك مع الشيطان؟ فقال: وما الشيطان، نحن قوم صرقتنا همنا إلى الله فكفانا من دونه.

وقال رضى الله عنه: قرأت مرة ﴿والتين والزيتون﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى:

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين﴾.

فكفرت في معنى هذه الآية، فكشفت لي عن اللوح المحفوظ، فإذا مكتوب فيه: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وروحاً وعقلًا، ثم رددناه أسفل سافلين نفساً وهوى.

وقال في قوله سبحانه:

﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه﴾ (٤٧)؛

همت به هم إرادة وهم بها هم ميل لا هم إرادة.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم﴾ (٤٨)؛

فقال عن شيخه أبى الحسن رضى الله عنه: ذكر توبة من لا يذنب لئلا يستوحش من أذنب لأنه ذكر النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ولم يذنبوا، ثم قال:

وعن الثلاثة الذين خلفوا.

فذكر من لم يذنب ليونس من قد أذنب، فلو قال أولاً لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا لتفطرت أكبادهم.

وقال رضى الله عنه:

التقوى فى كتاب الله على أقسام: تقوى النار، قال الله سبحانه:

﴿واتقوا النار﴾ (٤٩).

وتقوى اليوم:

﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ (٥٠).

وتقوى الربوبية:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ (٥١).

وتقوى الألوهية:

﴿واتقوا الله﴾ (٥٢).

وتقوى الآتية:

﴿واتقون يا أولى الألباب﴾ (٥٣).

وقال رضى الله عنه فى قوله عز وجل:

﴿يسمعون للكذب أكالون للسحت﴾ (٥٤)؛

نزلت فى اليهود.

ومن كان من قراء هذا الزمان مؤثراً للسمع جهلاء آكلأ بما حرّمه مولاة، فهى نزعة يهودية؛

(٤٧) يوسف آية: ٢٤ - ويفسر بعضهم الآية الكريمة فيقول: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، وهو تفسير سيئه ألفه. ونبيته: أنه لم يهم بها لأنه رأى برهان ربه.

(٥٢) النساء: ١.

(٤٨) التوبة: ١١٧.

(٥٣) البقرة: ١٩٧.

(٤٩) آل عمران: ١٣١.

(٥٤) المائدة: ٤٢.

(٥٠) البقرة: ٢٨١.

(٥١) النساء: ١.

لأن القَوْلَ يذكر العشق وما هو بعاشق، والمحبة وما هو محب، والوجد وما هو متواجد، فالقَوْلُ يقول الكذب والمستمع سَماع له، ومن أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى إلى السماع فهو يصدق عليه قول الله تعالى:

﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلْحَسَنِ﴾.

وقال رضى الله عنه:

عبر بعض الصحابة على بعض اليهود فسمعهم يقرءون التوراة، فتخشعوا، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال: اقرأ.

قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ:

﴿أَو لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ (٥٥).

فموتوا إذ تخشعوا من غيره، وهم إنما تخشعوا من التوراة وهى كلام الله، فما ظنك بمن أعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهي والفناء؟

وقال رضى الله عنه وقد سأله سائل: ياسيدى لم قال عيسى عليه السلام:

﴿إِن تَعْبُدُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَتَّقِهِمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥٦).

ولم يقل: الغفور الرحيم؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: إنما عدل عن قوله إنك أنت الغفور الرحيم إلى قوله:

﴿فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

لأنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم لكان شفاعته من عيسى عليه السلام لهم في المغفرة ولا شفاعته في كافر، ولأنه عُدَّ من دون الله فاستحى من الشفاعته عنده وقد عُدَّ معه.

وقال رضى الله عنه في قوله تعالى:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (٥٧).

في هذه الآية مدح لسيد المرسلين ﷺ أى أن هذا القرآن لا تثبت له الجبال لو أنزل عليها وأنت يا محمد ثبت لتزوله بالقوة الربانية التى أودعناها فيك، وفيها ذم للكافرين أى أن هذا القرآن لو أنزل على جبل لخشع وتصدع وأنت ما خشعتم ولا تصدعتم.

قائدة:

اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله تعالى ولكلام رسوله ﷺ بالمعاني الغربية كما مضى من فهم الشيخ رضى الله عنه: يجب لمن يشاء إثبات الحسنة، ويجب لمن يشاء الذكور العلوم، أو يزوجهم

ذكرنا وإنا علوماً وحسنات، ويجعل من يشاء عقيباً لا علم ولا حسنة، وكما مضى أيضاً من قوله عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

فقال الشيخ: بقرة كل إنسان نفسه، والله أمركم بذبحها، وكما سيأتي إن شاء الله في تفسير الأحاديث، فذلك ليس إحالة الظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جليت له الآية ودلت عليه في عرف اللسان، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث، لن فتح الله على قلبه، وقد جاء أنه عليه الصلاة والسلام قال:

«لكل آية ظاهر وباطن وحيد ومطلع».

فلا يصدك عن تلقى هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جندل أو معارضة: هذا إحالة لكلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ.

فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقررون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها، ويقهمون عن الله ما أفهمهم، وربما فهموا من اللفظ ضد ما قصده وأضعفه، كما أخبرنا الشيخ الإمام مفتي الأناضول تقي الدين محمد بن علي القشيري رحمه الله قال: كان ببغداد فقيه يقال له الجوزي، يقرئ اثني عشر علماً فخرج يوماً قاصداً لمدريته، فسمع منشداً يتشد:

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شراب ليك بالنهار  
ولا تشرب بأسفاد صغار فقد ضاق الزمان على الصغار  
فخرج هائماً على وجهه حتى أتى مكة، ولم يزل يجاورها بها حتى مات.

وقرئ على الشيخ مكين الدين الأسمر رضي الله عنه قول القائل:

لو كان لي مسعد بالراح يسعدني لما انتظرت لشرب الراح إبطاراً  
الراح شيء عجيب أنت شاربه فاشرب ولو حملتك الراح أوزاراً  
يامن يلوم على صهياء صافية خذ الجنان ودعني أسكن الناراً

فقال إنسان هناك: لا تجوز قراءة هذه الأبيات. فقال الشيخ مكين الدين الأسمر للقارئ: اقرأ هذا رجل محبوب! ويكنيك في هذا أن ثلاثة سمعوا منادياً يقول: «يا ساعر برى» ففهم كل منهم عن الله مخاطبة خوطب بها في سره.

سمع الواحد: أسمع تر برى.

وسمع الآخر: الساعة ترى برى.

وسمع الآخر: ما أوسع برى.

فالتسموع واحد، واختلفت أفهام السامعين، كما قال سبحانه:

﴿تُسْفَى بِمَا وَاحِدٍ وَنَفَضَ بِعَظْمِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾.

وقال سبحانه:

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِشْرَبِهِمْ﴾ (٥٨).

فأما الذى سمع: اسمع تربرى، فمريدٌ دُلَّ على النهوض إلى الله بالأعمال ليستقبل الطريق بالجد، فقليل له: اسمع إيلينا بصدق المعاملة تربرنا بوجود المواصل.

وأما الثانى فكان سالكا إلى الله طارئة الأوقات فخاف أن تفوته الوصلة فقل له، تروى على قلبه لما أحرقت نار الشغف: الساعة ترى برى.

وأما الآخر، فعارف كشف له عن وسع الكرم فخطب من حيث أشهد نسمع: ما أوسع برى. وقال الشيخ محيى الدين بن عربى رضى الله عنه.

دعانا بعض الفقراء إلى دعوة بزقاق القناديل بمصر، فاجتمع بها جماعة من المشايخ، فقدم الطعام، وعجزت الأوعية (٥٩)، وهناك وعاء زجاج جديد قد اتخذ للبول ولم يستعمل بعد فغرف فيه رب المنزل الطعام، فالجماعة يأكلون، وإذا الوعاء يقول: منذ أكرمى الله يأكل هؤلاء السادة منى لا أرضى لنفسى أن أكون بعد ذلك محلا للأذى، ثم انكسر نصفين.

قال الشيخ محيى الدين: فقلت للجميع، سمعتم ما قال الوعاء؟

قالوا: نعم.

قلت: ما سمعتم؟

فأعادوا القول الذى تقدم.

قال: فقلت: قال قولاً غير ذلك.

قالوا: وما هو؟

قلت: قال: كذلك قلوبكم، قد أكرمها الله بالإيمان فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلاً لتجاسة المعصية وحب الدنيا، جعلنا الله وإياكم من أولى الفهم عنه والتلقى منه بجهنم وكرمه.

(٥٨) البقرة: ٦٠.

(٥٩) أى لم تكن الأوعية كافية.



## البَابُ السَّادِسُ

فيما فسره من الأحاديث النبوية وإبداء أسرار  
فيها على مذهب أهل الخصوصية

قال رضى الله عنه في قوله ﷺ: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل. وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتماعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعت امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله. ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» (١).

فقال الشيخ رضى الله عنه:

الإمام العادل هو القلب.

ورجل قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه، أى ورجل قلبه معلق بالعرش، فإن العرش مسجد قلوب المؤمنين.

ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه أى خاليا من النفس والهوى.

ورجل تصدق بصدقة أى فأخفاها عن نفسه وهواه.

وكذلك قال في قوله عز وجل: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ خَفِيًّا﴾ (٢) أى من النفس والهوى.

فأعلم أن هؤلاء السبعة جازاهم الحق سبحانه من حيث معاملتهم إياه.

أما الإمام العادل فإنه عدل في عبادة الله فأوى المظلوم إلى ظل عدله فأواه الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الشاب الذى نشأ في عبادة الله فإنه آوى إلى الله معرضا عن هواه وآويا إلى كنف مولاه فصنع الحق معه ذلك في الآخرة جزاء كما صنع هو ذلك مع الله في الدنيا معاملة.

وأما الرجل الذى قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه فإنه آثر طاعة الله وغلب عليه حب الله فلذلك صابر قلبه متعلقا بالمسجد لا يحب التبراع عنه؛ لأنه يجد فيه روح القرية وحلاوة المقدمة. فأوى إلى الله مؤثرا لربه يمينته، فأواه الله وأظله بظله يوم لا ظل إلا ظله جزاء لما سبق من معاملته.

وأما الرجلان اللذان تحابا في الله اجتماعا على ذلك وتفرقا عليه، فإنهما توأما بروح الله وتألفا بحبته الله وكان ذلك منهما انحياشا (٣) إلى الله فأواهما الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

(٢) مريم: ٣.

(١) رواه مالك والترمذي وأحمد والشيخان والنسائي ومسلم.

(٣) أى: ميلا ولجوءا إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما الرجل الذي دعت امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله فإنه صلى نار مخالفة الهوى مخالفة من المولى وخالف بواعث الطبع المعارضة للتقوى، فلما خاف من الله هرب إليه ولما هرب إليه ههنا معاملة، أواه الله إليه في الآخرة مواصلة، فأظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله. وأما الرجل الذي ذكر الله خائفا ففاضت عيناه فإنه لم تفيض عيناه إلا من القروح التي أحرقت قلبه إما بحياء من الله أو شوقا إليه أو خوفا من ربه يته أو لشهود التقصير معه، فلما فعل ذلك حيث لا يراه أحد إلا الله الواحد الأحد كان ذلك منه معاملة لله وانحياسا إليه بالاعتذار إليه أو بالشوق إليه فأوى إلى الله فأظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الرجل الذي تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه فإنه قد آثر على نفسه يبذل الدنيا إيثارا لحب الله على ما تحبه نفسه؛ لأن شأن النفس حب الدنيا وعدم البذل لها فلا يبذلها إلا من آثر الله عليها؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ.

«والصدقة برهان»<sup>(٤)</sup>.

أى برهان يدل على أن العبد آثر مولاه على نفسه وهواه، فلما مال هذا العبد إلى الله بالمعاملة من الله عليه بأن أظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وتشترك الأقسام السبعة في معنى واحد؛ فلذلك جوزوا جزاء واحدا.

اشتركت في أن كلا من هؤلاء السبعة صلى حر مخالفة الهوى في الدنيا، فلم يذقه الله حر الآخرة. وقد قال ﷺ حاكيا عن الله تعالى:

«لا أجمع على عبيد خوفين ولا آمنين: إن أمنت في الدنيا أخفت في الآخرة وإن أخفت في الدنيا أمنت في الآخرة».

وقال رضى الله عنه في قوله ﷺ:

«يسرّوا ولا تعسّروا».

أى دلّوهم على الله ولا تدلّوهم على غيره، فإن من دلّ على الدنيا فقد غرّك، ومن دلّ على الأعمال فقد أتبعك، ومن دلّ على الله فقد نصحك.

وقال في قوله ﷺ:

«رأيت الجنة فتناولت منها عنقودا لو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»: فقال رضى الله عنه:

«الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء، والأولياء يطالعون مثلها؛ فلذلك قال الرسول ﷺ:

«رأيت الجنة».

ولم يقل كأتى رأيت الجنة.

وقال حارثة لما قال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحت يا حارثة؟

قال أصبحت مؤمنا حقا.

فقال ﷺ: لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟

قال عَزَّيْتِ (٥) نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتنعمون، وكأنى أنظر إلى أهل النار فى النار يعذبون، وكأنى أرى عرش ربى بارزاً من أجل ذلك أسهرت ليل وأظلمات نهارى.

فقال له الرسول ﷺ: يا حارثة عرفت فالزم.

ثم قال ﷺ: «عبد نور الله قلبه» (٦) بنور الإيمان.

فقال حارثة: كأنى أنظر ولم يقل رأيت؛ لأن ذلك للأنبياء دونه، وكذلك قول حنظلة الأسدى لرسول الله ﷺ: تذكرنا بالجنة والنار حتى كأننا نراها وأى عين (٧). ولم يقل حتى نراها رأى عين لما قدمناه.

وقى حديث حارثة فوائد عشرة:

الأولى: أنه لما سأل النبى ﷺ حارثة فقال له:

كيف أصبحت يا حارثة؟

لم يقل حارثة: غنياً ولا صحيحاً ولا شيئاً من الأحوال البدنية أو الأمور الدنيوية؛ لأن حارثة علم أن رسول الله ﷺ أجمل من أن يسأل عن دنيا، بل فهم عنه أنه إنما سأله كيف حاله مع الله فلذلك قال الصحابى:

أصبحت مؤمناً حقاً.

أما أبناء الدنيا إذا سئلوا فلا يجبرونك إلا عن دنياهم، وربما أخبروك إذا سألتهم عن الضجر بأحكام مولاهم، فالسائل لمن هذا وصفه مشارك له فيها استتاره بسؤاله لجرىان سببه منه. وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه لرجل أتى من الحج: كيف كان حجاجكم؟ فقال ذلك الرجل: كثير الرخاء كثير الماء، قسر كذا وسعر كذا كذا، فأعرض الشيخ عنه وقال: تسألونهم عن حجهم وما وجدوا فيه من الله من علم ونور وفتح فيجيبون برخاء الأسعار وكثرة المياه حتى كأنهم لم يسألوا إلا عن ذلك.

الفائدة الثانية: أنه ينبغي للمشايخ أن يتفقدوا أحوال المريدين، ويجوز للمريدين إخبار الأستاذين وإن لزم من ذلك كشف حال المريدين؛ لأن الأستاذ كالطبيب وحال المريد كالعورة والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى.

الفائدة الثالثة: انظر إلى قوة نور حارثة فى قوله: أصبحت مؤمناً حقاً، فلو لا أنه منور بنور البصيرة الموجبة لمحض اليقين والتحقق بالسنة ما أخبر بذلك وأبداه أثبت لنفسه حقيقة الإيمان بين

(٥) أبى: عزلت وأعرضت كارهة.

(٦) رواه البرزبان بسند ضعيف عن أبى، والطبراق فى الكبير من حديث الحارث بن مالك. وسنده ضعيف أيضاً وكُلُّ منها بتقوى الآخر. والمعنى فى الجوز الإسلامى صحيح.

(٧) رواه مسلم وسأى به ابن عطاء الله بعد ذلك.

يدى صاحب المحر والإتيات، وإنما أبدى ذلك حارثة لأنه علم أن طوابع رسول الله ﷺ واجبة، والرسول قد استخبره عن حاله فلم يسعه الكتم وأبدى ما علم أن الله تفضل به عليه بركات متتابعة رسول الله ﷺ ليفرح له رسول الله ﷺ بجنة الله فيشكر الله عنه ويسأله تثبيت ما أعطاه. مثل هذا ما ذكره بعض العلماء العارفين قال:

وقعت زلزلة بالمدينة زمن خلافة عمر رضي الله عنه، قال عمر: ما هذا، ما أسرع ما أحدثتم، والله إن عادت لأخرجن من بين أظهركم؟

فانظر رحمك الله هذه البصيرة التامة كيف أشهدته أن الزلزلة إنما هي من حدث كان، وأن الحديث منهم، وأنه يرى منه، فهل هذا إلا من نور البصيرة الكاملة التي وهبها عمر رضي الله عنه. وكذلك ضربه لأبي هريرة رضي الله عنها في صدره حين وجد معه نعل رسول الله ﷺ وقد أمره أن من لقيه من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلا الله أن يبشره بالجنة ورجوعها إلى رسول الله ﷺ، وقول عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، أنت أمرت أبا هريرة أن يأخذ نعليك ويبشر من لقي من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: نعم.

قال: لا تفعل يا رسول الله خلهم يعملوا.

فقال رسول الله ﷺ: خلهم يعملوا.

وهاتان الواقعتان تعرفانك بعظيم قدر عمر رضي الله عنه، ووفور أخذه من رسول الله ﷺ، واختطافه من نوره، وهذا الحديث، مروي في صحيح مسلم وإنما ذكرناه ههنا مختصراً (٨).

القائدة الرابعة: يفهم من هذا الحديث انقسام الإيمان إلى قسمين: إيمان حقيقي وإيمان رسمي؛ فلذلك أخبر الصحابي بقوله: أصبحت مؤمناً حقاً والحديث يشهد له أيضاً.

وروى البخاري يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال:

(٨) ونسّه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال:

كنا قمراً حول رسول الله ﷺ معنا أبو بكر وعمر في نفر، فقام رسول الله من بين أظهرنا، فأبطل علينا وخشينا أن يقتلع دوننا، وفزعنا قمعنا، فكنت أول من فزع، فخرجت أبغى رسول الله ﷺ حتى أتيت حائطاً للأندلسيين للتجارة، فعدت به هل أجد له باباً، فلم أجد فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من يثر خارجه - والربيع الجدول - فاحتضرت كما يحتضر الثعلب، فدخلت على رسول الله ﷺ فقال: أبو هريرة! فقلت: نعم يا رسول الله. قال: ما شأنك؟ قلت: كنت بين أظهرنا فهدمت فأبطلت علينا فخشينا أن تقتلع دوننا ففزعنا، فكنت أول من فزع، فأتيت هذا الحائط فاحتضرت كما يحتضر الثعلب، وهؤلاء الناس ورائي، فقال: يا أبا هريرة، وأعطاني نعليه، قال: اذهب بملئ هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة، فكان أول من لقيت عمر، فقال: ما هاتان النملتان يا أبا هريرة فقلت: هاتان نعل رسول الله ﷺ بعنق بها من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه يبشره بالجنة. فضرب عمر بده بين يدي، فخررت لإسقى، فقال: ارجع يا أبا هريرة، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأبجشيت بكاءً، وركبني عمر فإذا هو على أترى، فقال لي رسول الله ﷺ: مالك يا أبا هريرة، قلت: لقيت عمر فأخبرته بالذي بعثنى به، فضرب بين يدي ضربة خروث لإسقى، قال: ارجع. فقال له رسول الله ﷺ: يا عمر، ما حالك على ما فعلت؟ قال: يا رسول الله، بأي أنت وأمي، أبعت أبا هريرة بعمليك أن لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه يبشره بالجنة؟ قال: نعم، قال: فلا تفعل فإني أشقى أن يتكلم الناس عليها، فخلهم يعملوا، قال رسول الله ﷺ: فخلهم.

«ذائق طعم الإيمان من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً».

وروى أيضاً: قال ﷺ:

«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن توقد نار عظيمة فكان أن يقع فيها خير له من أن يشرك بالله».

وقد جاء في الحديث أيضاً قال ﷺ:

«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير» (٩١).

وقد قال الله سبحانه:

﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ (١٠).

وهما صفتان: عباد آمنوا بالله على التصديق والإذعان، وعباد آمنوا بالله على الشهود والعيان. وهذا الإيمان الثانى تارة يسمى إيمانا، وتارة يسمى يقينا؛ لأنه إيمان انبسطت أنواره، وظهرت آثاره، واستمكن في القلب عموده، وداوم السر شهوده، وعنه يكون خالص الولاية، كما أن على القسم الآخر يكون ظاهر الولاية.

وليس يستوى إيمان مؤمن يغلب الهوى، وإيمان مؤمن يغلب الهوى، ولا إيمان مؤمن تعرض له العوارض فيدافعها بإيمانه كإيمان مؤمن غسل قلبه من العوارض فلا ترد عليه لشهوده وعيانه، ولأجل هذا اختلف أهل الطريق في عهدي: أحدهما يرد عليه خاطر الذنب فيجاهد نفسه حتى يذهب ذلك عنه، والآخر لا يخطر له هذا الخاطر أصلا أيها أتم؟ والذي لا شك فيه تفضيل هذا القسم الثانى فإنه أقرب لأحوال أهل المعرفة. والاول هو حال أهل المجاهدة.

ولأنه لا يكون القلب على هذه الصفة إلا والنور قد ملأ زواياه فلا جل ذلك لم يبد خاطر الذنب مساعا.

الفائدة الخامسة: مطابقة رسول الله ﷺ لحارثة بإقامة البرهان على ما أثبتته لنفسه، فبدل ذلك أنه ليس كل من ادعى دعوى سلمت له، وقد قال الله سبحانه:

﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ (١١).

﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (١٢).

فمازى الحقائق شاهدة للعباد أو عليهم، وقد قال سبحانه:

﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ (١٣).

فمن ادعى حالا مع الله أقيم عليه ميزانها فإن شهد له سلمناها له وإلا فلا، وإذا كانت الدنيا

(٩) رواه مسلم، وقامه: احرص على ما ينفعك، واستمع بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أن فلتت كذا كان وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان.

(١٠) الأنفال: ٤.

(١١) البقرة: ١٤٤.

(١٢) الرحمن: ٩.

(١٣) البقرة: ١٤٤.

على خسارة قدرها عند الله لا تسلم لك إلا ببيّنة تقيمها، فمن الأخرى أن لا تسلم لك مراتب الموقنين حتى يثبتها لك برهان أو تسلمها لك حقيقة.

الفائدة السادسة: كان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه يقول: لو كان المستول أباً بكر رضي الله عنه لم يطالبه الرسول ﷺ بإقامة برهان على ما ادّعى؛ لأن عظم رتبة أبي بكر رضي الله عنه شاهدة له من غير إظهار برهان، فأراد الرسول ﷺ أن يعرفنا الفرق بين رتبة أصحابه، فممن من هو كحارثة لما ادّعى حقيقة الإيمان طولب برهانه، ومنهم من هو كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما يثبت لها الرسول ﷺ الرتب وإن لم يثبتها لأنفسها ألا ترى الحديث الوارد عن الرسول الله ﷺ: أن بقرة في بني إسرائيل ركبها وجل وأجهدها فقالت: سبحان الله، لم أخلق لهذا إنما خلقت للحرث.

فقال الصحابة: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟ فقال الرسول ﷺ: آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر (١٤)، وهما غائبان.

فانظر هذه المرتبة ما أفخمها، وهذه المنزلة ما أعظمها.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: معنى قوله ﷺ: «آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر».

أى من غير عجب، وأنتم آمنتكم متعجبين، لأجل ذلك قالوا: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟ وكان أبو العباس يقول: إن الملائكة لما بشرت زوجة إبراهيم عليه السلام بالولد قالت: ﴿أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾ (١٥).

فقالت الملائكة لها:

﴿أنتعجبين من أمر الله﴾.

أى أمر الله لا يتعجب منه، فلم يستعجب الحق صديقه، ومريم لما بشرت بالولد من غير أب فلم تتعجب من ذلك سماها الله صديقة فقال سبحانه:

﴿وأنه صديقة﴾ (١٦).

الفائدة السابعة: استدلال الصحابي على حقيقة إيمانه بزهد في الدنيا، وكذلك هو الإيمان إذا تحقق به من قام به أورثه الزهد في الدنيا؛ لأن الإيمان بالله يوجب لك التصديق بلفظاته، وعلمك بأن كل آت قريب يوجب لك شهود قرب ذلك فيورثك ذلك الزهد في الدنيا؛ ولأن نور الإيمان يكشف لك عن إعزاز الحق لك فتأنف هتك من الإقبال على الدنيا والتطلع إليها مع أن الحقيقة تقتضى أن الزاهد في الدنيا مثبت لها، فإنه شهد لها بالوجود إذ أثبتتها مزهوداً فيها، وإذا شهد لها بالوجود فقد عظمها وهو معنى قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه: والله لقد عظمها إذ زهدت فيها.

(١٤) رواه البخاري بنحوه في أحاديث الأئمة.

(١٥) هود: ٧٢.

(١٦) جزء من آية ٧٥ من سورة المائدة وقامها ﴿كانا يأكلان الطعام، انظر كيف بين لهم الآيات ثم انظر أن يكون﴾.

ومثل هذا الزاهد فيما زهد فيه غناء الفاني عما بقي عنه، فإثبات أنك فاني عن الشيء إثبات لذلك الشيء فيما لا وجود له لا يتعلق به غناء ولا زهد ولا ترك.

ولنا في هذا المعنى أبيات كتبها لبعض الأصحاب عيسى حسناً:

حسنٌ بأن تدع الوجود بأسره	حسنٌ فلا يشغلك عنه شأغل
ولئن فهمت لتعلمن بسانه	لا ترك إلا للذي هو حاصل
ومنى شهدت سواء فاعلم أنه	من وهيك الأذى وقلبك ذاهل
حسب الإله شهوده لوجوده	والله يعلم ما يقول القائل
ولقد أشرت إلى الصرح من الهدى	دلت عليه إن فهمت دلائل
وحديث كان وليس شيء غيره	يقضى به الآن للبيب العاقل <sup>(١٧)</sup>
لا غير إلا نسبة مئسوسة	ليئس ذو ترك ويحمد فاعل

الفائدة الثامنة: قول الصحابي رضي الله عنه: عزبت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها

ومدبرها.

العرزوب هو ترك الشيء بالتمزز له والإعراض عنه؛ إذ لو قال: تركت الدنيا لم يلزم من الترك عدم التطلع قرب تارك للشيء وهو له متطلع، فالعرزوب إعراض مع كراهة وتحقر. ومن كشف الله له عن حقيقة الدنيا فهذا شأنه فيها، وقد قال الرسول ﷺ: «الدنيا جيفة قدرة».

وقال ﷺ للضحاك: ما طعامك؟ قال: اللحم واللبن.

قال: ثم يعود إلى ماذا؟ قال: إلى ما قد علمته يا رسول الله.

قال: فإن الله قد جعل ما يخرج من بني آدم مثلاً للدنيا<sup>(١٨)</sup>.

فمن كشف له عن حقيقة الدنيا فشاهدها جيفة قدرة قبحرى أن يصرف همته عنها.

فإن قلت: فقد قال الرسول ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة»<sup>(١٩)</sup>.

فاعلم أن الدنيا جيفة قدرة في مرائي البصائر، وحلوة في مرائي الأبصار.

فإن قلت: فما فائدة الإخبار بأنها حلوة خضرة؟ فاعلم أن قوله ﷺ أن الدنيا جيفة قدرة للتنفير، وقوله: الدنيا حلوة خضرة للتنجيس؛ أي فلا تفرّككم بحلاوتها وخضرتها فإن حلاوتها في التحقيق مرارة وخضرتها ييسر، ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله قال:

«هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها».

الفائدة التاسعة: وقوف الصحابي رضي الله عنه على مستحق رتبته بقوله: وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتنعمون ولم يقل نظرت، وقد تقدم ذلك من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء

(١٧) المراد: الحديث الذي رواه البخاري وسنده عن عمران بن حصين وقصه:

«كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض».

(١٨) رواه أحمد والطبراني وفيه: علي بن زيد بن جندب عن خلف فيه ورواه ابن حبان.

(١٩) رواه الترمذي في الفتن والزهد، وابن ماجه في الفتن، والدارمي في الرقائق، وأحمد في مستند.





الأولى: قول حنظلة: نافع حنظلة.

النفاق: مأخوذ من نفاقه البرع (٢٣) وهو أن يجعل لبيته باين متى طولب من أحدهما خرج من الآخر، كذلك المنافق يظهر بظاهر الإيمان وله مسرب من الكفر باطن إذا عاتبه أهل الكفر على ما أظهر ما الإيمان فتح مسرباً من باطن كفره ليسلم من عنهم، وإذا ظهرت عليه ريبة أهل النفاق فعوتب عليها تصون من ذلك بظاهر الإيمان الذي أظهره؛ ولذلك أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا لَفُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤْنَ﴾ (٢٤).

فلما رأى حنظلة أنه يكون عند رسول الله ﷺ على حالة فإذا خرج وحاول أسباب الدنيا تغير حاله فلم يبق على نحو ما كان عليه عند رسول الله ﷺ خاف أن يكون ذلك نفاقاً لاختلاف حالته، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ وحمله الإيمان على أن أظهر ذلك ليتطلب الشفاء منه، ويشكو داءه لمن يجد الشفاء عنده، فلما شكى ذلك لأبي بكر رضي الله عنه، قال له أبو بكر: إنا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة. ولم يجبه أبو بكر رضي الله عنه؛ لأن رسول الله ﷺ كان بين أظهرهم، فلم ير أبو بكر أن يجيب حنظلة، ولو أن حنظلة أتى أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لأجابه.

الفائدة الثانية: يستفاد من حديث حنظلة أن من حمله الصدق على إظهار ما به حصل له الشفاء إما بأن يقال إن ما ظننته داء ليس بداء، وإما أن يدل من الدواء على ما يزيل الداء فحنظلة قيل له إن ما ظننته داء ليس بداء.

الفائدة الثالثة: قول حنظلة لرسول الله ﷺ تذكرنا بالجنة والنار حتى كأننا رأى عين، ولم يقل حتى نراها رأى عين لما قدسناه من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مثلها فلذلك قال حنظلة حتى كأننا رأى عين، ولم يقل حتى نراها رأى عين، كما قال حارثة، وكأننا أنظر إلى أهل الجنة ولم يقل نظرت إلى أهل الجنة وقد تقدم هذا من قبل.

الفائدة الرابعة: ينبغي أن يقلل الدخول في أسباب الدنيا ما أمكن، فهذا الصحابي يقول: فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات فنسينا كثيراً وقد قال رسول الله ﷺ: «إن قليلاً من الدنيا يلهم عن كثير من الآخرة».

وقال ﷺ: «ما طلعت شمس ولا وجبت بها ملكان يناديان: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».

الفائدة الخامسة: قوله ﷺ: «لو تدومون على ما تكونون عليه عتدي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرسكم».

فيه إشارة إلى أن الدوام على تلك الحالة عزيز، وأن عدم دوام العبد على تلك الحالة لا يوجب محنة، لما طبع عليه البشر من الغفلة، فكان الدوام على تلك الحالة كالعسور.

(٢٣) البرع أو الجربع أو الدرس أو ذر الرميح؛ حيوان صغير على هيئة الجرد الصغير وفي حجيته تقرها.

(٢٤) البقرة: ١٤.

الفائدة السادسة: كان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه، يقول: لم يقل رسول الله ﷺ إن ذلك محال أن يكون أعنى ما رتب على تقدير الدوام وهو قوله: «لصافحتكم الملائكة في طرفكم وعلى فرشكم» فقد يكون من أولياء الله من يهبه الله ذلك.

الفائدة السابعة: إنما خص الرسول ﷺ الفرش والطريق لأن الفرش محل الشهوات والطرق محل الغفلات، فإذا صافحتهم الملائكة في طرفهم وفرشهم فمن الأخرى أن تصافحهم في محل طاعتهم ومواطن أذكارتهم.

الفائدة الثامنة: اقتضت حكمة الله سبحانه أن لا يستوى وقت كينونتهم عنده ووقت ذكرهم بما سواها حتى يعرف عظيم قدر رتبة محاضرتهم ﷺ وعزازة الذكر وجلالة منصبها.

وقال رضى الله عنه: سمع رسول الله ﷺ أباً بكر يقرأ ويغشى صوته، وسمع عمر يقرأ ويرفع صوته، فقال لأبي بكر: لم أخفضت صوتك؟ فقال: قد أسمع من ناجيت.

وقال لعمر: لم رفعت صوتك؟ فقال لأوقظ الوسنان وأطرد الشيطان. فقال لأبي بكر: ارفع قليلاً، وقال لعمر اخفض قليلاً.

قال الشيخ رضى الله عنه: أراد أن يخرج كلا منها عن إرادته لنفسه لمراد رسول الله ﷺ له.

وقال رضى الله عنه في قول رسول الله ﷺ:

«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»:

أى ولا أفتخر بالسيادة، وإنما أفتخر بالعبودية لله سبحانه.

وكان كثيراً ما ينشد:

يا عمرو نادى عبد زهراء يعرفه السامع والرائى  
لا تدعى إلا بعبدها فإنه أشرف أسمائى

وقال: كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول:

المؤمن فى الدنيا أسير ولا فكاك للأسير إلا بإحدى ثلاث: إما بالحيلة، وإما بالقدية، وإما بالعناية.

وما ذكره الشيخ مأخوذ من قول رسول الله ﷺ:

«الدنيا سجن المؤمن» (٢٥)

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه فى تفسير هذا الحديث: وشأن المسجون التحديق بعينه والإصغاء بأذنيه متى يدعى فيجيب.

وقال رضى الله عنه: الأنبياء إلى أهمهم عطية ونبينا ﷺ هدية، وفرق بين العطية والهدية: لأن العطية للمحتاجين والهدية للمحبوبين، قال رسول الله ﷺ:

«إنما أنا رحمة مهداة» (٢٦).

وقال في قوله ﷺ: «السلطان ظل الله في الأرض» (٢٧): هذا إذا كان عادلاً، فأما إذا كان جائراً فهو ظل النفس والهوى.

وقال رضى الله عنه: مات رجل من أهل الصفة فوجد في شملته ديناران فقال ﷺ: «كَيْتَانِ مِنْ نَارٍ».

قال الشيخ: وقد مات على عهد رسول الله ﷺ كثير من الصحابة وتركوا أموالاً فما قال رسول الله ﷺ فيهم مثل ما قال في هذا؛ لأنهم لم يبتغوا خلاف ما أظهروا، وهذا الذى كان من أهل الصفة أظهر الفاقة، وكان عنده هذان الديناران، فلما أظهر خلاف ما أبطن قال الرسول ﷺ: «كَيْتَانِ مِنْ نَارٍ».

وقال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» (٢٨).

فقال رضى الله عنه: بأى طريق يحشر مع النبيين؟ وبأى طريق يحشر مع الصديقين، وبأى طريق يحشر مع الشهداء، وبأى طريق يحشر مع الصالحين؟

يحشر مع الأنبياء، فإن الأنبياء، شأنهم أداء الأمانة، بذل النصيحة، فيحشر مع الأنبياء بهذا الوصف، وهذا التاجر أدّى الأمانة وبذل النصيحة.

ويحشر مع الصديقين؛ لأن الصديق شأنه الصفاء في الظاهر والباطن، قد استوى ظاهره وباطنه، والتاجر الصدوق كذلك، فيحشر مع الصديقين بهذا الوصف.

ويحشر مع الشهداء؛ فإن الشهيد شأنه الجهاد، والتاجر الصدوق يجاهد نفسه وشيطانه وهواه، فيحشر مع الشهداء بهذا الوصف.

ويحشر مع الصالحين؛ فإن الصالح شأنه أخذ الحلال وترك الحرام فيحشر مع الصالحين بهذا الوصف (٢٩).

(٢٦) ابن سعد والمكيم عن أبي صالح مرسلاً، والحاكم عن أبي هريرة وصححه.

(٢٧) رواه الطبراني والبيهقي في الشعب.

(٢٨) رواه ابن ماجه والحاكم والترمذي.

(٢٩) الدنيا المذمومة في العرف الدقيق هي الشهوات، يقول الله سبحانه:

«وَمَنْ لَتَأْسَ حَبَّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْهَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ» ثم قال سبحانه عن كل ذلك: «وَذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَآلَهُ عِنْدَ حَسْبِ الْمَأْثِبِ».

أما إذا استخدمت الدنيا من أجل الآخرة، فإنها لا تصيح شهوات، إنما تصيح معبراً يعبر به الإنسان - في رضا من الله - إلى الآخرة، ومن أجل ذلك يقول سبحانه: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» فإذا ما صير الإنسان حياته لعبادة وغير ذلك، وإذا ما صير حياته عبادة بالنية الصادقة في الاتجاه إلى الله فقد استجاب إلى الغاية التي أحبها الله سبحانه وتعالى من الخلق.

وما ذكرناه هو نوع من الشرح لكلام الإمام الكبير أبي العباس المرسى رضى الله عنه.



## البَابُ السَّائِعُ

في تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق،  
وجمله ذلك على أجمل الطرائق

قال رضى الله عنه: قال سهل بن عبد الله:  
لا تكونوا من أبناء الدهور ولا من أبناء العَدِّ والإحصاء، وكونوا من أبناء الأزل أشقى أم  
سعيد؟

ثم قال رضى الله عنه: يقول أحدهم: صلّيت كذا وكذا ركعة، صُمت كذا وكذا شهراً، ختمت  
كذا وكذا ختمة، حجّجت كذا وكذا حجة، فهؤلاء من أبناء العَدِّ والإحصاء فهم إلى عَدِّ سيئاتهم  
أحوج منهم إلى عَدِّ حسناتهم.

وأما أبناء الدهور فيقول أحدهم: لى فى طريق الله سيمون سنة لى فى طريق الله ستون سنة.  
وكونوا من أبناء الأزل أشقى أم سعيد يعنى: لاحظوا ما سبق فى علم الله ولا تتكلموا على مالكم  
من العلم والعمل، ولكن ارجعوا إلى وجود الأزل.

وقال رضى الله عنه: قال بشر الحافى رضى الله عنه:

منذ أربعين سنة أشتهى الشواء فما صفا لى ثمنه.

فقال الشيخ رضى الله عنه من ظن أن هذا الشيخ مكث أربعين سنة ما وجد درهمًا حلالًا  
يشترى به شواء فقد أخطأ! من أين له فى الأربعين سنة ما يأكل وما يلبس، وإنما المعنى فى ذلك أن  
هؤلاء قوم أصحاب مراتب لا يأكلون ولا يشربون ولا يدخلون فى شيء ولا يخرجون من شيء  
إلا بإذن من الله وإشارة، فلو أذن له فى أكل الشواء لصفا له ثمنه.

وقال رضى الله عنه: قوت القوم على أربعة أوجه: مباح، وحلال، وطيب، وصاف.

فالمباح ما كان مستوى الطرفين ما على أخذه عقاب ولا فى تركه ثواب.

والحلال هو ما لم يخطر لك بهال ولا سألت فيه أحدًا من النساء والرجال.

والطيب هو ما أخذه العبد بوصف الفناء إذ لا وصف له مع مولاه.

والصافى هو ما عاينه العبد من المتبع، يعنى من عين قنطرة الله سبحانه وتعالى.

وقال رضى الله عنه: قال الجنيد: أدركت سبعين عارفاً كلهم يعبدون الله على ظنٍّ ووهم، حتى  
أخى أبى يزيد لو أدرك حبيباً من صبيانتنا لأسلم على يديه.

فقال الشيخ: معنى قوله: يعبدون الله على ظنٍّ ووهم لا يريد بذلك ظناً فى المعرفة ووهماً فيها؛

وكيف تجتمع المعرفة والظن والوهم وإنما المراد أنهم وصلوا إلى مقامات توهموا أن ليس وراءها للموقنين مقام فقال الجنيد: لو أدرك صبيًا من صبياننا لأسلم على يديه أى لبنٍ له أن فوق ذلك المقام مقام وفوق ذلك مقام إلى مالا آخر له، ومعنى لأسلم على يديه أى لانتقاد له قالوا سلام هو الانتقاد.

وقال رضى الله عنه فى قول أبى يزيد: خضتُ بحرًا وفتت الأنبياء يساحله.

إنما يشكو أبو يزيد بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء عليهم السلام.

ومراده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا من الجانب الآخر على ساحل الفرق يدعون الخلق إلى الخوض، أى فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا وهذا الذى فسر الشيخ به كلام أبى يزيد هو اللاتى بمقام أبى يزيد، وقد قدمنا عنه أنه قال: جميع ما أخذ الأولياء بما أخذ الأنبياء كزق ممْلوء عسلًا ثم رشحت منه رشاحة فما فى باطن الزق للأنبياء وتلك الرشاحة هى للأولياء.

والمشهور عن أبى يزيد التعظيم التام لمراسم الشريعة، والقيام بكمال الأدب حتى أنه حكى عنه أنه وصف له رجل بالولاية فأتى إلى زيارته فقعده فى المسجد ينتظره فخرج ذلك الرجل وتغنم فى حائط المسجد فخرج أبو يزيد ولم يجتمع به وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة، فكيف يؤمن على أسرار الله وما جاء عن الأكابر أولى الاستقامة مع الله سبحانه من أقوال وأفعال يشكل ظاهرها؛ أولناها لهم لما علمناه من استقامتهم وحسن طريقتهم، فقد قال ﷺ:

«ولا تظن بكلمة برزت من امرئ مسلم سوءًا وأنت تجد لها فى الخير محملًا».

وقال رضى الله عنه: كان الحارث بن أسد المحاسبى إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه إصبعه، فسأل الشيخ سائل فقال: يا سيدى قد جاء أن الصديق قدَّم إليه لبن فأكل منه فوجد كدرته فى قلبه.

فقال: من أين لكم هذا اللين؟

فقال له غلام: كنت تكهنت لقوم فى الجاهلية فأعطوني ثمن كهانتى.

فتقيأه أبو بكر رضى الله عنه ثم قال:

«والله لو لم يخرج إلّا بصاربنى لأخرجته»<sup>(١)</sup>.

فلم يكن على يد الصديق عرق يتحرك عليه إذا قدَّم له طعام فيه شبهة والصديق أولى بكل مزية من سائر الأمة وقد وُزن بالأمة فرجحها.

فقال الشيخ رضى الله عنه: الصديق رضى الله عنه كالوكيل الموقض إليه، مظهر من البقايا فلا يحتاج إلى إشارة، والحارث بن أسد بقيت عليه البقايا فلذلك ألزم الإشارة حتى لا يدخل فى شيء بنفسه وهواه، وأبو بكر رضى الله عنه طهر من النفس وأهوى فلا يحتاج إلى إشارة. واعلم أن من حسن اختيار الله لأبى بكر أن تناول من ذلك اللبن حتى تكلف طرحه بعد شربه

قيشيد الله على ذلك، وأيضاً ليُجعلهُ قدوةً للعباد فيقتدى به من أكل طعاماً فيه شبهة ولم يعلم أن الأولى له قينه.

وليس لقائل أن يقول: قد ضمنه بأكله وقد تناوله وهو غير آثم إذ هو غير عالم فإن أبا بكر ما سأل عن اللبن إلا حتى وجد له كدرة في قلبه، دل ذلك على أن الحرام أو الشبهة قد يؤثر في القلب كدرة أو قسوة وإن لم يعلم به متناوله وقت تناوله.

وهكذا هم أهل التخصص إن وقع منهم أمر مثل هذا ونحوه فهو ممن حسن اختيار الله لهم حتى يفتح بهم السبيل للعباد، كما كان من حسن اختيار الله لأدم أكله من الشجرة بعد أن نهي عنها حتى يتوب من الفعل فيكون قدوةً للثلاثين، وحتى يتعرف إليه بحلمه فيعلم أنه أكرم الأكرمين، ويوقفه على وجود ستره ولطفه، فيعلم أنه اللطيف بعباده المؤمنين، ويكون أكل الشجرة سبباً في النزول، والنزول سبباً في الخلافة؛ فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: أكرم بها معصية أورت الخلافة.

وقال: والله لقد أتزل الله آدم إلى الأرض من قبل أن يخلفه بقوله ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾. وقد بسطنا القول في هذا الموضع في كتاب التنوير (٢) فلا نعيد.

وقال رضى الله عنه: إنما بدأ القشيري في رسالته بالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم لأنها كانا قد تقدم لهما زمن قطيعة ثم أقبل فأقبل الله عليهما فبدأ بذكرهما بسطاً لرجاء المريدين الذين كانت تقدمت منهم الزلات وسبقت منهم المخالفات ثم رجعوا إلى استقرار أبواب العناية؛ إذ لو بدأ بالجنيد وسهل بن عبد الله التستري وعتبة الغلام وأمثالهم من نشأ في طريق الله لقال القائل: ومن يدرك هؤلاء، هؤلاء لم تسبق منهم زلات ولم تقدم منهم مخالفات.

وقال رضى الله عنه في الحكاية المشهورة عن سمنون المحب أنه كان يشد:

وليس لي في سواك حظ فكيفما ما شئت فاختبرني

فأبتلى بعلّة الأسر وهو احتباس البول، فتنجّد يوماً فزاد الألم، فتنجّد الثاني فزاد الألم، فتنجّد ثالثاً ورابعاً فزاد الألم فهو في صبيحة اليوم الرابع وإذا بإنسان من أصعابه قد أتاه وقال: يا سيدي

(٢) قال ابن عطاء الله في كتابه التنوير:

فائدة جليلة: اعلم أن أكله عليه السلام للشجرة لم يكن عتاداً ولا خلافاً، فلما أن يكون:

نسى الأمر، فتعاطى الأكل وهو له غير ذاك، وهو قول بعضهم: ويصل عليه قوله تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ أو إن كان تناوله ذاكراً للأمر فهو إما تناوله لأنه قيل له:

﴿ما نأكلنا ربكنا عن هذه الشجرة إلا أن نكوناً ملكين أو تكوناً من المفلذين﴾.

فلجبه إلى الله، وشغفه به أحب ما يديه إلى الخلود في جوارحه، والبقاء عنده، أو ما يؤذيه إلى الملكية؛ لأن آدم - عليه السلام - عاين قرب الملكية من الله فأحب أن يأكل من الشجرة لينال رتبة الملكية التي هي أفضل، أو التي هي في ظنه كذلك على اختلاف أهل العلم وأهل المعرفة أيضاً أيها أفضل؟ الملكية أم النبوة؟ لاسياً وقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وقاسمهما إني لكنا لمن الناصحين﴾.

قال آدم عليه السلام: ما ظننت أن أسألك بطف بالله كاذباً، فكان كما قال الله تعالى: ﴿فعلماهما بغيرهم﴾. إلخ. - التنوير ص ٧٤ - ٧٥.

سمعت الياطرة صوتك عند دجلة وأنت تستغيث إلى الله وتسأله رفع ما نزل بك فجاءه ثمان وثلاث ورابع لم يكن هو سأل، فعلم أنها إشارة له من الله بالسؤال قصار يدور على صبيان المكاتب ويقول: ادعوا لعلمكم الكذاب.

فقال الشيخ رضى الله عنه: رحم الله سموتاً عوض ما قال: «فكيفما ما شئت فاختبرنى». كان يقول: فكيفما شئت فأعف عني فطلب العفو أولى من طلب الاختبار.

وقال رضى الله عنه في الحكاية المشهورة التي ذكرها الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته: قال الجنيد: دخلت على السرى فوجدته متغيراً فقلت: ما بالك يا أستاذ متغيراً؟ قال: دخل على شاب أنفاً فقال لى: ما التوبة؟

فقلت له: أن لا تنسى ذنبك. فقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك. فعاذاً تقول أنت يا أبا القاسم؟ قال: فقلت: القول عندي ما قال الشاب: لأنى إذا كنت في حال الجفاء ثم نقلنى إلى حال الصفاء، فذكر الجفاء وقت الصفاء جفاء.

قال الشيخ رضى الله عنه: كلام السرى أتم من كلاميهما؛ لأن كلام السرى يدل على مبادئ المقامات، وكذلك القدوة يلزم بالكلام على مقامات العباد بداياتها ونهاياتها، وإنما تأتى النهايات من البدايات.

والجنيد لم يكن في ذلك الوقت بمقام أن يكون قدوة، وكذلك الشاب، فتكلمنا على أحوال أهل الارتقاء في نهاياتهم، فكلامهما يخص جاهلها وكلام السرى مهيب<sup>(٣)</sup> مورد للسالكين هذا معنى كلام الشيخ رضى الله عنه.

وقال رضى الله عنه في قول بعضهم: لا يكون الصوفى صوفياً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيناً عشرين سنة.

ليس معنى ذلك أن لا يقع منه ذنب عشرين سنة، ولكن معناه أنه إذا أذنب الذنب استغفر الله منه، والملك الموكل يكتب السيئات لا يكتب السيئة حتى ينتظر العيد لعل أن يرجع أو يتوب، وكلما أراد أن يكتبها قال له ملك اليمين: امكث فعمسى أن يتوب. إلى أن يبلغ عدداً إما السبع وإما العشر - أليسك مئى - فحينئذ يكتبها سيئة، فلذلك جاء صاحب اليمين أميراً على صاحب الشمال.

(٣) المهيع: الطريق الواسع المنبسط.



## الباب الثامن

### في كلامه في الحقائق والمقامات وكشفه فيها عن الأمور المعضلات

قال رضى الله عنه: الشوق على قسمين: شوق على الغيبة لا يسكن إلا بقاء الحبيب وهو شوق النفوس.

وشوق الأرواح على الحضور والمعانية.

فلذا رفعك إلى محلى المحاضرة والشهود المسلوب عن العلى فذاك مقام التعريف إيماناً حقيقياً وذلك ميدان تنزل أسرار الأزل.

وإذا أنزلك إلى محلى المثابرة والجهاد فذاك مقام التكليف المقيد بالعلل، وهو الإسلام الحقيقى، وذلك ميدان تجلى حقائق الأبدية.

والمنحقق من لا يبالي بأى صفة يكون؛ لأن صفتك تميل لا أنت، والصفة من العين للعين وهو ظهورك، والاسم للسان وهو نطقك، والاسم حقيقة الصفة، والصفة حقيقة الوجود، والأسرار منتزعة عن الوجودية للصدقية، والحقائق متجلية عن الصفات بالولاية لأهل العلوم الظاهرة عن الاسم بالدليل لأهل السعاية، وإليه الإشارة بقوله ﷺ لأبى جحيفة:

يا أبا جحيفة، سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء قال العالم بذلك بالعلم من الأسماء ونهايته الجنة، والحكيم المقرب يملك باليقين والحقائق عن الصفات ونهايته منازل القربة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿اتقوا الله وابتهوا إليه الوسيلة﴾ والكبير يدلك بالأسرار من الوجود على طريق الصفاء والنزاهة ونهايته إلى الله.

وتجتمع المراتب الثلاثة فى الكبير فجميل قوماً بالعلم وقوماً بالحقائق وقوماً بالأسرار وهم خلفاء الأنبياء وأبدال الرسل وهم البصراء.

﴿قل هذه سبيل أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾.

أى على معانية، يعاين لكل صنف طريقهم فيحملهم عليها وهى النياية، وأما هو فقد انقرد بحالة لا تعرف لعظيم قربه.

وكان يتشد رضى الله عنه:

وغنى لى منى قسلى      فغنيت كى غنى  
وكنى حيثما كانوا      وكناسوا حيثما كنا

وقال رضى الله عنه:

أوقات العيد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية.  
 والله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية.  
 فمن كان وقته الطاعة فسيبيله شهود المنة من الله تعالى إذ هداه لها ووقفه للقيام بها.  
 ومن كان وقته المعصية فسيبيله الاستغفار والتوبة.  
 ومن كان وقته النعمة فسيبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله.  
 ومن كان وقته البلية فسيبيله الرضا بالقضاء والصبر، والرضا برض النفس عن الشهوات،  
 والصبر مشتق من الأصبار وهو الغرض للسهام، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضاً لسهام القضاء،  
 فإن ثبت لها فهو صابر.

والصبر ثبات القلب بين يدي الرب، قال رسول الله ﷺ:  
 «من أعطى فشكر، وأبطل قصير؛ وظلم قفر؛ وظلم فاستغفر».  
 ثم سكت فقالوا: ماذا له يا رسول الله؟  
 قال: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»<sup>(٤)</sup>.  
 أي لهم الأمن في الآخرة وهم مهتدون في الدنيا.  
 وقال رضى الله عنه: الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا  
 بطاعة الله إلى كرامة الله! قال الله سبحانه:  
 ﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من يئيب﴾<sup>(٥)</sup>.  
 ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من سرك الله هيمته لطلب الوصول إليه قسار يطوى  
 مهامه<sup>(٦)</sup> نفسه ويبداه<sup>(٧)</sup> طبعه إلى أن وصل إلى حضرة ربه يصدق على هذا قوله سبحانه:  
 ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾<sup>(٨)</sup>.  
 ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد، ويشهد لذلك قوله تعالى:  
 ﴿يختص برحمته من يشاء﴾<sup>(٩)</sup>.  
 فالأول حال السالكين.  
 والثاني حال المجذوبين.  
 فمن كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصله.

(٤) رواه ابن مريويه.

(٥) الشورى: ٧٣.

(٦) مهامه جمع مهمه وهو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس.

(٧) البدياء: الصحراء الواسعة سميت بذلك لأنها تبيد من يجلفها.

(٨) العنكبوت: ٦٩.

(٩) آل عمران: ٧٤.

ومن كان مهتوفاً بالمواسلة رد إلى وجود المعاملة.

ولا تظن أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طوبى عناية الله له، فسلكها مسرعاً إلى الله عيلاً.

وكثيراً ما تسمع عند مراجعات المتيسين للطريق أن السالك أتم من المجذوب؛ لأن السالك عرف الطريق وما توصل إليه، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء منهم على أن المجذوب لا طريق له.

وليس الأمر كما زعموا فإن المجذوب طوبى الطريق له، ولم تطو عنه، ومن طوبى له الطريق لم تفته ولم تغب عنه، وإنما فاته متاعها وطول أمداءها، والمجذوب كمن طوبى له الطريق إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا.

وقال رضى الله عنه: العارف لا دنيا له لأن دنياه لآخرته وأخرته لربه.

وقال رضى الله عنه: الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا.

وقال رضى الله عنه: الزاهد غريب في الدنيا لأن الآخرة وطنه، والعارف غريب في الآخرة فإنه عند الله.

فإن قلت: ما معنى الغربة في كلام الشيخ هنا وما معناها في الحديث الوارد: «بدأ الدين غريباً وسعود غريباً كما بدأ فطوى للغرباء»؟ (١٠).

فأعلم أن الغربة المذكورة في الحديث معناها قلة من يعين على القيام بالحق، فيكون القائم به غريباً لفقدان المساعد وعدم المعاضد فلا ينهض القائم حيث لا قوة إيمانه، ووفور إيقانه، فلذلك قال ﷺ:

«بدأ الدين غريباً وسعود غريباً كما بدأ، فطوى للغرباء».

يريد ﷺ أنهم قاموا بأمر الله في بلاده وعباده حيث تقاعدت همم الناس عن القيام به. وأما الغربة في كلام الشيخ رضى الله عنه فمعناها أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة، فتحبى الآخرة موطن قلبه ومعشش روحه فيكون غريباً في الدنيا إذ ليست وطناً لقلبه عاين الدار الآخرة فأخذ قلبه فنياً عاين من ثوابها وتوابعها، وفيها شاهد من عقوبتها ونكالاتها، فاستغرب في هذه الدار.

وأما العارف فإنه غريب في الآخرة فإنه كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيها هنالك فصار غريباً في الآخرة لأن سره مع الله بلا أين، فهؤلاء العباد تصير الحضرة معشش قلوبهم إليها يأوون وفيها يستكنون، فإن تنزلوا إلى ساء الحقوق أو أرض الحطوط فبالإذن والتسكين والرسوخ في اليقين، فلم ينزلوا إلى الحطوط بالشهوة والمتعة ولا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، بل كانوا في ذلك كله بأداب الله وأداب رسوله وأنبياؤه متأدبين، وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين.

وقال رضى الله عنه:

(١٠) رواه مسلم وابن ماجه والترمذى والطبرانى بنحوه.

الخوف على قسمين: خوف العامة، وخوف الخاصة.

فخوف العامة على أجسادهم من النار.

وخوف الخاصة على خلعتهم التي كساهم مولاهم أن تدنس بالمخالفة.

ومعنى كلام الشيخ هذا أن العامة لم تنفذ بصائرهم إلى شهود خلعتهم علىهم من إيمان وإسلام ومعرفة وتوحيد ومحبة، وعلموا أن الله تعالى قد توعد أهل المعصية بعقوبته فخافوا الوقوع في المعصية لئلا يكون ذلك سبب وقوع العقوبة بهم فكان خوفهم إشفاقاً على نفوسهم من عقوبة الله. وأما أهل الخصوصية فأعطاهم الحق من نوره ما أشهدهم به ما كساهم من خلعت منه فعملوا على صيانتها ليقدّموا عليها بما لم تدنس ولم تتغير ظاهرة نقية، مشرقة بية؛ وفهموا معنى قوله تعالى: ﴿وَبِأَيِّكُم مِّنْهُمْ﴾ (١١).

فطهروا ملابس إيمانهم وإيقانهم من دنس غفلتهم وعصيانهم، وفهموا أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُم لِبَاسًا يُّوَارِي سُوءَ اتِّكُم وَيُزَكِّيهِمْ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (١٢). فعبهروا الدنيا وقد رفعوا ملابس المن خشية أن تدنس بأوساخها كي يقدموا عليه بخلعه التي أنعم بها عليهم، ونهضوا له بالوفاء فيها اقتضى منهم، وبالأمانة والصيانة فيها استأنهم. وكان بعض العارفين ينشد:

قالوا غدا العيد ماذا أنت لايسه	فقلت خلعه ساق حبه جرعاً
فقر وصبر هـا تومئ تحتها	قلب يرى ألفة الأعياد والجعاً
العيد لي مآثم إن غبت يا أملي	والعيد ما كنت لي مرأى ومستعماً
أحري الملابس أن تلقى الحبيب بها	يوم التزاور في الثوب الذي خلعا

وقال رضى الله عنه:

العامة إذا خوفوا خافوا وإذا رجوا رجوا.

والخاصة متى خوفوا رجوا، ومتى رجوا خافوا.

ومعنى كلام الشيخ أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر، فإذا خوفوا خافوا إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بتوهم الفهم كما لأهل الله.

وأهل الله إذا خافوا رجوا، عالين أن من وراء خوفهم وما به خوفوا أوصاف المرجو الذي لا يتغنى أن يقط من رحمته، ولا أن يعيش من مثله، فاحتالوا على أوصاف كرمه، علما منهم أنه ما خوفهم إلا ليجمعهم عليه، وليردهم بذلك إليه.

وإذا رجوا خافوا، يخافون غيب مشيئته التي هي من وراء رجائهم، وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختباراً لعقولهم، هل تقف مع ظاهر الرجاء أو تنفذ إلى خوف ما بطن في مشيئته؛ فلذلك

(١١) المشر: ٤.

(١٢) الأعراف: ٢٦.

استشار الرجاء خوفهم، وحكمهم في القبض والبسط كما قال الشيخ في الخوف والرجاء غير أن البسط منزلة إقدام الرجال، فهو موجب لزيد حذرهم وكثرة بلبثهم.

قال بعضهم: فتح في باب من البسط فانبسطت، فحجبت عن مقامى ثلاثين سنة. وكان الشيخ رضى الله عنه يشد:

واقطع السير إليه السير إليه زميلاً<sup>(١٣)</sup> فليذا ما نلت منه وصولاً  
فاقرع الباب قليلاً قليلاً.

غيره:

واحذر البسط ونادى بالحبيب من على بعد تنادى من قريب  
فقلوه: واحذر البسط لما قدمناه، فإن من رزى من الأنوار البسط فإنه يخشى على العيد أن يبغيه وجوده، قال الله سبحانه:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبِغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(١٤)</sup>.

والقبض أقرب إلى وجود السلامة لأنه وطن العبد، إذ هو في أسر قبضة الله وإحاطة الحق بحيطته به، ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه؟ والبسط خروج عن حكم وقته، والقبض هو الأليق بهذه الدار إذ هي وطن التكليف وإبهام الحاقة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى<sup>(١٥)</sup>.

وأخبرني بعض الصوفية قال: رأى شيخنا شيخه في المنام بعد موته مقبوضاً، فقال له: يا أستاذ مالك مقبوضاً؟ فقال له: يا بني القبض والبسط مقامات من لم يوفها في الدنيا وفي بها في الآخرة. وكان هذا الشيخ الغالب عليه في حياته البسط.

وقوله: ونادى بالحبيب من على بعد، أى من شهود استحقاق الإجابة أو من على بعد من دعوته لأوصاف الربوبية، أو من على بعد لوجود شهود الإساءة.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: ما ظنيت من الله حاجة إلا وقدمت إساءتي أمامي. فإن قلت: فحديث الثلاثة الذين دخلوا الغار فانحطت عليهم صخرة فسدت باب الغار فقالوا:

(١٣) من زمل يزل: عدا وأسرع مستعداً في أحد شقيه راقماً جنبه الآخر.

(١٤) الشورى: ٢٧.

(١٥) قال القشيري في «الرسالة القشيرية» عن القبض والبسط.

وهما حالتان بعد ترقى العبد عن حالة الخوف والرجاء، فالقبض للمارق بمنزلة الخوف للمستأنف، والبسط للمعارف: بمنزلة الرجاء للمستأنف.

ومن الفصل بين القبض والخوف، والبسط والرجاء: أن الخوف إنما يكون من شيء في المستقبل: إما أن يخاف فوت محبوب: أو هجر محذور - وكذلك الرجاء: إما أن يكون يتأمل محبوب في المستقبل، أو يتطلع زوال محذور وكفاية مكروه في المستقبل، وأما القبض: فله معنى حاصل في الوقت، وكذلك البسط، فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه في حالته بأجله، وصاحب القبض والبسط أخذ وقته بواره غلب عليه في عاجله.

ثم قال: وقد عد أهل التحقيق حالتى القبض والبسط من جملة ما استعانذا منه لأنها بالإضافة إلى ما فوقها من استهلال العبد واندراجيه في الحقيقة: فقر وضراء.

ليذكر كل واحد منكم أرحى عمل عمله لله، فذكر أحدهم برّه بوالديه، والآخر عفاؤه عن ابنة عمه مع حبّه إياها، والتمكن منها، وذكر الآخر تسميره لأجرة أجير استأجره فلما وجده دفع ذلك كله إليه، فكشف الله عنهم ما نزل بهم وزالت الصخرة عن فم الغار فخرجوا، هذا معنى الحديث مختصراً رواه مسلم في صحيحه (١٦٦)؛

فاعلم أن هؤلاء الثلاثة لم يذكروا طاعاتهم إلا وقد شهدوها فضلاً من الله عليهم فتوسّلوا بنعمة إلى نعمة كما أخبر الله عن زكرياء.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

فتوسّل إلى الله بسابق حسن عوائده فيه.

وسألت امرأة بعض الملوك فقالت: إنك قد أحسنت إلينا عام أوّل ونحن محتاجون لإحسانك إلينا هذا العام، فقال: أهلاً بين توّسّل لإحساننا بإحساننا وأعطائها وأجزل لها العطاء.

ومن فتح له هذا الباب جاز له الإخبار بطاعته ووجود معاملته؛ لأنه حينئذ متحدّث بنعم الله سبحانه.

وقد كان بعض السلف يصيح فيقول: صَلَّيْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا رَكْعَةً، تَلَوْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا سُورَةً، فيقال له: أما غشّى من الرياء؟ فيقول: ويحكم وهل رأيتم من يرأى بفعل غيره؟ وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له: لم لا تكتم ذلك؟ فيقول: ألم يقل الله سبحانه: ﴿وَأَنَا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١٧٧). وأنتم تقولون: لا نتحدّث.

وقال رضى الله عنه: كان الإنسان بعد أن لم يكن، وسيفنى بعد أن كان، ومن كلا طرفيه عدم فهو عدم.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن الكائنات لا تثبت لها رتبة الوجود المطلق؛ لأن الوجود المطلق إنما هو الله. وله الأحديّة فيه، وإثبات للعوالم الوجود من حيث ما أثبت لها.

واعلم أن من الوجود له من غيره فالعدم وصفه في نفسه، وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: الصوفي من يرى الخلق في طي سرّه كالهباء في الهواء لا موجودين ولا معدومين حسباً هم في علم رب العالمين.

وقال أيضاً رضى الله عنه - وقد تقدّم: وإنّا لا نرى أحداً من الخلق، هل في الوجود أحد سوى الملك الحق، وإن كان ولا بد فكالحباء في الهواء إن فقتشته لم تجده شيئاً.

وفي كتاب الحكم (١٨) من كلامنا: للعوالم ثابتة بإثباته محوّة لأحدية ذاته.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله اه: كان لى صاحب كثيراً ما يأتي بالتحديد فقلت له: إن

(١٦٦) ورواه البخارى في صحيحه.

(١٧٧) الضحى: ١١.

(١٨) كتاب «الحكم» من أشهر كتب ابن عطاء الله السكندرى وهو - كما يدل سياق العبارة - أسبق في التأليف من «لطائف المنن» الذى هو موضوع التحقيق.

أردت التي لا لوم فيها فليكن الفرق على لسانك موجوداً، والجمع في باطنك مشهوداً.  
وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال والظلم، لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم، وإذا أثبت ظلمة الآثار لم تنسخ أحادية المؤثر؛ إذ الشيء إنما يشفع بئله ويضم إلى شكله، كذلك أيضاً من شهد ظلمة الآثار لم تعقه عن الله، فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا يعوق السفن عن التسيار، ومن ههنا يبين لك أيضاً أن الحجاب ليس أمراً وجودياً بينك وبين الله، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودي للزم أن يكون أقرب إليك منه ولا شيء أقرب إليك من الله فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب، فما حجبك عن الله وجود موجود معه إذ لا موجود معه، وإنما حجبك عنه توهم موجود معه، وذلك كرجل يأت في مكان وأراد البروز فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئير أسد فتمتعه ذلك عن البروز فلما أصبح لم يجد هناك أسداً وإنما هو الريح انضغط في تلك الكوة فما حجبته وجود أسد، وإنما حجبته توهم الأسد.

وسمعه يقول: لو عذب الله الخلائق أجمع لم ينلك من عذابهم من شيء، ولو نعمهم أجمع لم ينلك من تعييبهم شيء، فكانك في الوجود وحدك ثم أنشد:

أنت المخاطب أيها الإنسان فأصخ إلى يلح لك البرهان  
وسمعه يقول: دخلت على الشيخ أبي الحسن وفي نفسه أن أكل الحشن وألبس الحشن.  
فقال لي الشيخ: يا أبا العباس أعرف الله وكن كيف شئت.

ودخل على الشيخ أبي الحسن فقير وعليه لباس من شعره فما فرغ الشيخ من كلامه ذنا من الشيخ وأمسك بلبسه، وقال:

ياسيدي ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك.

فأمسك الشيخ بلبسه فوجد فيه خشونة فقال:

ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك، ولياسي يقول: أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول: أنا فقير إليكم فأعطوني.

وهكذا طريق الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن رضى الله عنها وطريقة أصحابها الإعراض عن لبس زى ينادى على سر اللابس بالإفشاء، ويفصح عن طريقه بالإبداء، ومن لبس الزى فقد ادعى.

ولا تظهم رحلك الله أنا تعيب بهذا القول على من لبس زى الفقراء، بل قصدنا أنه لا يلزم كل من كان له نصيب مما للفقراء أن يلبس ملابس الفقراء، فلا حرج على اللابس، ولا على غير اللابس، إذ كانا من المحسنين.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ (٩٩).

وأما لبس اللباس اللين وأكل الطعام الشهى وشرب الماء البارد فليس المقصد إليه بالذى يوجب

العتب من الله إذا كان معه الشكر لله.

وقد قال الشيخ أبو الحسن: يا بني برّد الماء فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله تقولها بكرازة، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك بالحمد لله.

والأصل في هذا قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام.

﴿فَسَقَىٰ لَهَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٠).

ألا ترى كيف تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ قصداً لشكر الله تعالى على ما ناله من النعمة؟

وسمعه يقول: اختلف الناس في اشتقاق الصوفي: فمنهم من قال: إنه منسوب إلى الصوف لأنه لباس الصالحين.

وقيل: هو منسوب إلى الصفة، يعني صفة مسجد رسول الله ﷺ التي ينسب إليها أهل الصفة وهو نسبة على غير قياس.

ثم قال: وأحسن ما قيل فيه: إنه منسوب لفعل الله به، أي صافاه الله فصوفى؛ فسمي صوفياً، ثم أتشد رضى الله عنه:

تخالفت الناس في الصوفي واختلفوا وكلهم قال قولاً غير معروف

ولست أمنع هذا الاسم غير فتى صافى فصوفى حتى يهتبي الصوفي

وسمعه يقول: الصوفي مركب من حروف أربعة: الصاد والراء والقاف والياء.

فالصاد صيره وصادقه وصفائه.

والواو وجده وودّه ووفائه.

والفاء فقدّه وفقره وقناؤه.

والياء ياء التسمية.

إذا تكمل فيه ذلك. أضيف إلى حضرة مولاه.

وسئل رضى الله عنه عن قول عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل بحق أقول لكم: لا يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين.

فقال رضى الله عنه: أنا والله بمن ولد مرتين، الإيلاد الأول: إيلاد الطبيعة، والإيلاد الثانى: إيلاد الروح فى سماء المعارف.

وسمعه رضى الله عنه يقول: ولن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لن يصل الولي إلى الله وبمع شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته.

ومعنى كلام الشيخ رضى الله عنه: لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى



الله أى انقطاع أدب لا انقطاع ملل، يغلب عليه التفويض إلى الله وشهود حسن الاختيار منه، فيلقى القيادة إليه ويترك نفسه سلباً بين يديه فلا يختار مع مولاه شيئاً لعلمه بما في الاختيار مع الله من الآفات. ولنا في هذا المعنى من قصيدة ذكرناها في كتاب التنوير.

وكن عبده وألق القيادة لحكمه وإيساك تدبيراً خبا هو نافع  
أتحكم تدبيراً وبغيرك حاكم أأنت لأحكام الإله تنارع  
فمحو إرادات، وكل مشيئة هو الغرض الأقصى فهل أنت سامع  
كذلك سار الأولون فأدركوا على إثرهم فليمش من هو تابع

وقال رضى الله عنه:

اعلم أن الله خلق هذا الأدمى وقسمه على ثلاثة أجزاء:

فلسانه جزء.

وجوارحه جزء.

وقلبه جزء.

وجعل على كل جزء حفيظاً فقال سبحانه وتعالى:

﴿ما يلفظ من قولٍ إلاّ لديه رقيبٌ عتيد﴾ (٢١).

وقال سبحانه:

﴿ولا تعملون من عملٍ إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تُفيضون فيه﴾ (٢٢).

وتولى حفظ القلب بنفسه فقال عز وجل:

﴿واعلموا أنّ الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه﴾ (٢٣).

وسلّط على الجوارح الشيطان.

واقترض من كل جزء وفاء ما ألزم به.

فوفاء القلب أن لا يشتغل بهمّ دنيا ولا بكم ولا حسد.

(٢١) ق: ٩٨.

(٢٢) يونس: ٦١.

(٢٣) البقرة: ٢٣٥.

المراد بالتدبير المنهى عنه: هو اعتبار الإنسان أن له دخلاً في النتيجة، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قد عاقبة الأمور﴾ والإنسان المؤمن يحكم الأمر إحكاماً تاماً كما كان يفعل رسول الله ﷺ في جميع أموره: في الدعوة، وفي الفزوات، وفي العمل على الانتصار والفوز، إنه صلوات الله وسلامه عليه كان يحكم أمر ذلك إحكاماً تاماً، لا يدع صغيرة ولا كبيرة للمصادفة أو للحظ ثم هو صلوات الله وسلامه عليه يدع أمر النتيجة لله سبحانه وتعالى ويرضى بها، ثم يتفقد منها مباشرة: - فوزاً كانت أو غيره - إلى ما تستلزمه من عمل يترتب عليها. يبدأ صلوات الله وسلامه عليه في إحكامه وفي تصيب أوضاعه بحسب الحكمة الحقيقية ثم يترك النتائج إلى الله سبحانه وتعالى وهكذا، وأتمة الصوفية جميعاً ومنهم أبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى وابن عطاء الله السكندرى - رضى الله عنهم جميعاً وجزاهم عن الخير أحسن الجزاء - يسرون على هذا النسق لأنهم يتخذون رسول الله ﷺ أسوة حسنة استجابةً لقوله تعالى:

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

ووفاء اللسان أن لا يغتاب ولا يكذب ولا يتحدث فيها لا يعنيه.  
 ووفاء الجوارح أن لا يسارع بها إلى معصية ولا يؤذى أحدًا من المسلمين.  
 فمن وقع من قلبه فهو منافق.  
 ومن وقع من لسانه فهو كافر.  
 ومن وقع من جوارحه فهو عاص.

وقال رضى الله عنه: صلاح العبد في ثلاثة أشياء: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الدنيا،  
 فمن عرف الله خاف منه، ومن عرف نفسه تواضع لعباد الله، ومن عرف الدنيا زهد فيها.  
 وقال رضى الله عنه: قال لى شيعي: لا تصحب إلا من تكون فيه أربع خصال: الجود من  
 القلة، والصفح عن المظلمة، والصبر على البلية، والرضا بالقضية.

وقال رضى الله عنه: من اشترى زيتًا من بيعاء قلبا فرغ قال له زدى غزاه خيطًا فدينه أرق من  
 ذلك الخيط. ومن اشترى فحًا فلما فرغ قال له زدى غزاه فحمة فقلبه أسود من تلك الفحمة.  
 وقال رضى الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام قوم غلبت حسناتهم سيئاتهم فهم في الجنة قطعًا،  
 وقوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلا يدخلون النار قطعًا، وقوم غلبت سيئاتهم حسناتهم فلا يدخلون  
 في النار قطعًا.

وقال رضى الله عنه: الدخول في الجنة بالإيمان، والخلود فيها بالنية، والدرجات فيها بالأعمال،  
 والدخول في النار بالشرك والخلود فيها بالنية والدركات فيها بالأعمال.

وقال رضى الله عنه: لا يدخل على الله إلا من باين؛ إما من باب الفناء الأكبر وهو الموت  
 الطبيعي، وإما من باب الفناء الذى تعنيه هذه الطائفة.

وقال رضى الله عنه: الكائنات على أربعة أقسام: جسم كثيف، وجسم لطيف، وروح شفاف،  
 وسر غريب.

فالجسم الكثيف بمجرد جماد.

والجسم اللطيف بمجرد جان.

والروح الشفاف بمجرد ملك.

والسر الغريب هو المعنى المسجود له.

فالأدنى بظاهر صورته جماد، ووجود نفسه وتخيّلها وتشكّلها جان، ووجود روحه ملك، وأعطى  
 زائدًا على ذلك السر الغريب؛ فلذلك استحق أن يكون خليفة.

وقال رضى الله عنه: ليس العجيب من تاه في نصف ميل أربعين سنة، إنما العجيب من تاه في  
 مقدار شهر الستين والسبعين سنة، وهى البطن.

وقال رضى الله عنه: الأدنى يشرف على الأعلى ولا يحيط به والأعلى يحيط بالأدنى.  
 فالأولياء هم الإشراف على مقامات الأنبياء وما لهم الإحاطة بمقاماتهم، والأنبياء يحيطون بمقامات  
 الأولياء.

وقال رضى الله عنه في قول بعض السلف: لو كشف الغطاء ما ازدت يقيناً؛ أى لو كشف الغطاء للنفس لم أزد يقيناً فيها طالعه القلب.

وقال رضى الله عنه:

جميع أسماء الله إذا أسقطت منها حرفاً ذهب دلالة على الله كالعليم والقادر والرحيم وغير ذلك من أسمائه الحسنى إلا اسمه «الله» فإنك إذا أسقطت الألف بقى الله، فإذا سقطت اللام الأولى بقى له، فإذا أسقطت اللام الثانية بقى هو وهو النهاية في الإشارة، وأنشد ابن منصور الخلاج:

أحرف أربع بها هام قلبي وتلاشت بها هموس وفكرى  
ألف ألف الحسلايق بها الصنح ثم م عمل الملاسة تجرى  
ثم لام زيادة في المعالي ثم هاء أهيم أتدوى

وقال رضى الله عنه: كشف لى عن أرواح الصديقين صاعدة نحو الملاء الأعلى فإذا غائل يقول لى: يا على؛

وما جنت خيل ولكن تذكرت مرابطها من ير بعض وميضاً  
أى أنها ما قرّت جنتاً من الخلق ولكنها تذكرت أوطان التعرف.

وقال رضى الله عنه: الوحى إلقاء معنى فى خفاء.

وقال رضى الله عنه: جميع أسماء الله للخلق إلا اسمه الله فإنه للعلق.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أنك إذا ناديت يا حليم خاطبك من اسمه الحليم أنا الحليم فكن عبداً حليماً، وإذا ناديت باسمه الكريم خاطبك من اسمه الكريم أنا الكريم فكن عبداً كريماً، وكذلك سائر أسمائه إلا اسمه «الله» فإنه للعلق فحسب؛ مضمونه الأولوية، والألوهية لا يشغلني بها أصلاً.

وقال رضى الله عنه: السماء عندنا كالسقف، والأرض كالبيت، وليس الرجل عندنا من يحصره هذا البيت.

وقال رضى الله عنه: نحن فى الدنيا بأبداننا مع وجود أرواحنا، وسنكون فى الآخرة بأرواحنا مع وجود أبداننا.

وسمعه يقول: الفرق بين معصية المؤمن ومعصية الفاجر من ثلاثة أوجه: المؤمن لا يعزم عليها قبل فعلها، ولا يفرح بها وقت الفعل، ولا يصبر عليها بعد فعلها، والفاجر ليس كذلك.

وقال رضى الله عنه لبعض أصحابه:

ليكن ذكرك الله، فإن هذا الاسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمرة، فبساطه العلم وثمرته النور.

ثم النور ليس مقصوداً لنفسه وإنما ليوقع به الكشف والعيان.

وجاء رجل فقال له: يا سيدى، هذا حق.

فقال له الشيخ: أنت نقي؟ قال: نعم.

فقال له الشيخ: تدري ما الفتوة؟ ليست الفتوة الماء والملح، وإنما الفتوة الإيمان والهداية: قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (٢٤٦).

والفتى كما قال الله سبحانه عن إبراهيم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٢٥٥). فسُمي فتًى لأنه كسر الأصنام، فمن كسر الأصنام فهو الفتى.

الخليل عليه السلام وجد أصناماً حسية فكسرها، وأنت لك أصنام معنوية فإن كسرتها كنت فتى يملك أصنام خمسة: النفس، والهوى، والشيطان، والشهوة، والدنيا. فإن كسرتها فأنت الفتى. وأفهم ههنا لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي.

وسئل رضى الله عنه فقيل له: يا سيدي لم بدأ صاحب الرسالة بإبراهيم بن أدهم دون غيره وربما كان غيره متقدماً عليه في التاريخ؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: لأن إبراهيم بن أدهم كان من ملوك الدنيا فأصبح وهو كذلك، فجاء وقت الظهور وهو من كبار الأولياء، فبدأ به صاحب الرسالة ليعلم أن فضل الله ليس بعمل. وقال رضى الله عنه:

عبدٌ هو في الحال بالحال.

وعبدٌ هو في الحال بالمحول.

فالذى هو في الحال بالحال هو عبد الحال.

والذى هو في الحال بالمحول عبد المحول.

وأما من هو في الحال بالحال أن يتأسف عليها إذا فقدتها ويفرح بها إذا وجدها.

والذى هو في المحال بالمحول لا يفرح بها إذا وجدها ولا يحزن عليها إذا فقدها.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن من تحقق بالله ملك الأشياء ولم يملكه فيصير الحال تحت قهر تصريفه. وإنما يكون ذلك للرجل لرسوخه في العلم بالله، والعلم حاكم على الحال وبه يوزن، والحال إنما هو فرع من فروع العلم، والعلم قارٌّ ثابت، والحال لا بقاء لها؛ لذلك قالوا:

لو لم تحمل ما سميت حالاً وكسَل ما حسال فقد رالا

انظر إلى الظل إذا ما انتهى يأخذ في النقص إذا طالا

والأكابر ملكهم الله أحوالهم، وجعلهم حاكمين عليها، ومن هنا لما قيل للجنتيد: ما لنا نرى المشايخ يتحركون في السماع وأنت لا تتحرك؟ فقال رضى الله عنه:

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ (٢٦).

وتيل لبعضهم: مالك لا تتحرك في السماع؟ فقال: إنه إذا كان في الجمع كبير احتشمت منه فأمسكت على وجدى، فإذا خلوت وحدى أرسلت على وجدى فتواجهت.

فانظر كيف كان زمان حاله معه يسكنها إذا شاء، ويطلقها إذا شاء اتسع القلب بمعرفة الله غرقت

فيه الواردات، وإنما يبدو أثر الحال على من ضاق عن سماعها، والعارف له وسع المعرفة، فإن ورد الوارد عليه غرق في وسع معرفته، وهل رأيت بحرًا فاض بمطر سحاب؛ ولهذا جُهلَّت أحوال الأكابر أرباب المقامات، واشتهر أهل الأحوال لظهور آثار المواهب عليهم لضعفهم عن كنهم ولضعفهم عن سماعها. فربما كان صاحب الحال أحط بإقبال الخلق من صاحب المقام، وبينه وبينه مثل ما بين السماء والأرض.

وكلما تمكَّن الرجل في العلوم الإلهية والمعارف الربانية استغرب في هذا العالم، فيقل من يعرفه ويفقد من يحيط به فيصفه.

وقال رضى الله عنه: كل سوء أدب يشمر لك أدبًا فهو أدب.

وقال رضى الله عنه: للمؤمن لا يرضى عن نفسه بالخير إذا كان فيه، لأن فوق الخير خيرات أتراه يرضى بالشر؟

وقال رضى الله عنه: كان الجنيد قطبًا في العلم وكان سهل بن عبد الله التستري قطبًا في المقام وكان أبو يزيد البسطامي قطبًا في الحال.

وقال رضى الله عنه: اقلطف حجاب عن اللطيف.

ومعنى كلام الشيخ هذه: أن اللطف إذا ورد على العبد فإن كان في الدائرة النفسانية تلقته النفس بالبشاشة والفرح، وإن كان في الدائرة العلوية تلقته الروح بالمحبة والمقَّة<sup>(٢٧)</sup>، فيقع الميل ويكون عن الميل السكون، ويقع مع السكون الأتس بالمسكون إليه، والله لا يحب لك أن تسكن لغيره ولا أن تأنس بشيء دونه؛ فلذلك قال الشيخ رضى الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف أى السكون إليه والإقامة عنده.

وهذا كما تقدم عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه أنه دخل على بعض الرجال فقال له: كيف حالك؟ فقال له الشيخ: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حرّ التدبير والاختيار.

فقال له الرجل: أما شكواي من حرّ التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك أنت من برد الرضا والتسليم فكيف؟ فقال: أخاف أن تشغلني حلالاتها عن الله. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى نعم العبد يرخ لولا أنه يسكن إلى نسيم الأسفار ومن عرفني لا يسكن لغيري. وكان عندنا بالإسكندرية امرأة عارفة بالله أخبرتني أنها سمعت قائلًا يقول لها: أعوذ بك من النور وفتنته، ومن القبيح وتلفته.

وأخبرتني أيضًا قالت: كنت أمشي بالإسكندرية وإذا بناس في هههم وطريهم فقلت في نفسي: هؤلاء في فرح ومسرّة وحلم الله من ورائهم ونحن في ملاقة التوازل وفهر الأحكام. قالت: فإذا قائل يقول لى: ليس أهل الحضرة والأدب كأهل اللهو والطرب.

وأخبرتني أيضًا قالت: إذا كنت في حضرة أو موقف وأرادني زوجي ليقتضي إربه مني لا أمنعه ولا يستطيع ذلك كلما أراد مني أمرًا عجز عنه. قالت: حتى يضيق خلقه ويقول: ما هذه إلا حسرة هذه الشابة في حسنها بين يدي ولا تمتنع مني ولا أصل إليها. فأقول له في ذلك الوقت: من هو الرجل فينا ومن هو المرأة؟

قالت: وإذا كان وقت ستر أمكنه مني ما يريد.

وقال الواسطي: استحلأ الطاعات سموم قاتلة وصدق رضى الله عنه.

وأقل ما في ذلك أنك إذا فتح لك باب حلالة الطاعة نصير قائمًا فيها متطلبًا لحلاوتها فيفوتك صدق الإخلاص في نهوضك لها وتحب دوامها لا قيامًا بالوفاء ولكن لما وجدت فيها من الحلالة والمنة، فتكون في الظاهر قائمًا لله وفي الباطن إنما قمت لحفظ نفسك، وبخشي عليك أن تكون حلالة الطاعة جزاء تيجله في الدنيا فتأتي يوم القيامة ولا جزاء لك.

وقال رضى الله عنه: لما قرأت عليه كتاب الحقائق للسلمى فقال فيه انتهى عقل العقلاء إلى الخير، فقال الشيخ رضى الله عنه عن الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه: ولا حيرة عند المحققين فيها فيه الحيرة عند المؤمنين.

وقال رضى الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام: عبد هو بشهود ما منه إلى الله، وعبد هو يشهد ما من الله إليه، وعبد هو يشهد ما من الله إلى الله.

ومعنى كلام الشيخ هذا: إن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره وإساءته فيقوم مقام المتعذرين بين يدي الله تعالى وتلازمه الأحران وتحالفه الأشجان فيستولى عليه الكمد كلما بدت منه سيئة أو كشف له من نفسه عن أوصاف سوء.

وعبد آخر الغالب عليه شهود ما من الله إليه من الفضل والإحسان والجود والامتنان فهذا تلازمه السرّة بالله والفرح بنعمة الله، قال الله سبحانه:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٢٨).

فالأول: حال العباد والزهاد.

والثاني: حال أهل العناية والوداد.

الأول: شأن أهل التكليف.

والثاني: شأن أهل التعريف.

الأول: حال أهل اليقظة.

والثاني: حال أهل المعرفة.

فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: العارف من عرف شدائد الزمان في الألفاظ الجارية من الله عليه، وعرفه إساءة نفسه في إحسان الله إليه، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون.

قال أيضًا: قليل العمل مع شهود المنة من الله خير من كثير العمل مع رؤية التقصير من النفس.  
قال بعض أهل المعرفة: لا يغفل شهود التقصير من الشرك في التقدير.  
وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قرأت ليلة من الليالي: ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ إلى أن انتهت إلى قوله: ﴿من شر الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس﴾.

فقيل لى: شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك، ينسبك ألقافه الحسنه، ويذكرك أفعالك السيئة، ويقلل عنك ذات اليمين، ويكثر عليك ذات الشمال، ليبدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله إلى سوء الظن بالله ورسوله.

فاحتر هذا الباب فقد أخذ منه كثير من الزهاد والعباد وأهل الجهد والاجتهاد.  
ولذلك قل أن تحمد الزاهد والعايد إلا مكمودًا حزينًا لأنه علم أن الله طالبه بالعبودية وحمله أعباءها وألزمه ما أشقت السموات والأرض والجبال من حمله.  
قال الله سبحانه: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا﴾ (٢٩).

فما بين الزهاد ثقيل ما حملوا ولم ينفذوا إلى شهود لطف الله الحامل للأثقال عن عباده المتوكلين عليه؛ فلهذا لزمهم الكمد واستولى عليهم الحزن.

وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حملوا من التكاليف أمرًا عظيمًا وعلموا ضعفهم عن حمله وعن القيام به متى وكلاهما إلى نفوسهم، قال الله سبحانه: ﴿وخلق الإنسان ضعيفًا﴾ (٣٠). وعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله حمل عنهم ما حملهم قال الله سبحانه: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (٣١). فرجعوا إليه بصدق الرجعى فحمل عنهم الأثقال فساروا إلى الله محمولين فى صفات المتن تروح عليهم نفحات اللطف.

والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأثقال التكاليف، تلازمهم المشقات، وتطول بهم المسافات، فإن شاء أدركهم بلطفه فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم إلى شهود سابق توفيقه لهم فطابت لهم الأوقات وأشرقت فيهم العنايةات.

وأما القسم الثالث: وهم الذين مع الله بشهود ما من الله إلى الله: هؤلاء هم أهل التوحيد والداخلون فى مبادئ التفريد.

فأما أهل القسم الأول وهم الذين عليهم شهود ما منهم إلى الله فلم يخرجوا عن باطن الشرك وإن خرجوا عن ظاهره؛ لأنهم أهبلوا على نفوسهم موثقين لها شاهدين لتقصيرهم وإساءتهم فلم يشهدوا الفعل لها أو متها ما توجهوا إليها بالتوبيخ إذا قصرت؛ فلهذا قال العارف الذى سبق قوله: لا يغفل شهود التقصير من الشرك فى التقدير.

فإن قلت: إذ كان توبيخ النفس وذمها يستلزم دقيقة الشرك فكيف نصنع والله قد ذم النفس وأمرنا بتوبيخها إذا قصرت ووبخها هو إذا كانت كذلك؟  
فالجواب: أن ذمها لازم لأن الله أمرك بذمها من غير أن تشهد لها قدرة أو تضيف لها فعلاً تراها هي الفاعلة له.

وأما القسم الثاني هو الذى يشهد ما من الله إليه فهو وإن كان خيراً من القسم الأول لكنه ما سلم من إثبات لنفسه إذ رأى نفسه مهداة إليها هدايا الحق، فلولاً إثباته لنفسه ما شهد ذلك؛ فلاجل هذين المعنيين آنر أهل الله القسم الثالث وهو أن يكونوا يشهد ما من الله إلى الله فاقهم. وقال رضى الله عنه: العارف إذا خوّف خاف، قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ففررت منكم لما خفتكم﴾ (٣٢).

يريد الشيخ رضى الله عنه: أن العارف لا يقطعه فضل الله عن شهود عدله، ولا يججبه شهود لطفه عن خوف ما بطن في مشيئته.

ويجب أن تعلم أن أهل المعرفة في نهاياتهم ربا التيس حالهم بأهل البدايات في بداياتهم. فإن المرید في مبدأ إرادته تؤثر فيه المخاوف لعدم استيلاء سلطان الحقيقة عليه، فإذا تحقق فناؤه لم تؤثر فيه الواردات ولم يدخل تحت حكم العادات. فإذا رد إلى حالة البقاء أثرت الأشياء فيه كحالة في بدايته.

﴿منها خلقتكم وفيها نعيدكم﴾ (٣٣).

فتجد المرید يخوف فيخاف والعارف يخوف فيخاف وليسوا وإن استويا في الظاهر بسواء. فخوف المرید لأجل جيجته، وخوف العارف لكمال معرفته. ومن هنا لا نفضل عبداً واثقاً بلطفه ومثته على خائف من غيب مشيئته. وكذلك لا نفضل عبداً وقف مع ظاهر الوعد على عبداً رد إلى وجود الأزلية فاقتطع عن الوقوف مع الوعد الجميل والتعيم ورد إلى ما سبق في القدم.

وقد جاء أن رسول الله ﷺ قال يوم يدر - وقد رفع يديه إلى السماء:

اللهم إن تهلك هذه العصاة لا تعيد، وما زال يناشد ربه حتى سقط الرداء عن منكبيه فقال أبو بكر رضى الله عنه: يكفيك بعض مناشدته لربك يا رسول الله فإنه منجز لك ما وعدك (٣٤). فالرسول ﷺ لكمال علمه بالله كان يشهود المشيئة، وأبو بكر رضى الله عنه كان يشهود الوعد الجميل.

ورسول الله ﷺ علم ما علمه أبو بكر من الوعد الجميل.

كيف، والوعد إنما وصل إلى بكر على يد رسول الله ﷺ.



غير أنه سلك الله به المسلك الآتم من الرجوع إلى مشيئته التي لا تتوقف على شيء وتتوقف عليها كل شيء.

وقال رضى الله عنه: ليس الشأن من تطوى له الأرض فإذا هو بككة أو غيرها من البلدان، إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه، فإذا هو عند ربه.

وقال رضى الله عنه عن شيخه: خرج الزهاد والعباد من هذه الدار وقلوبهم مقفلة عن الله. وقال رضى الله عنه عن شيخه: من لم يتغافل في هذه العلوم مات مصراً على الكبائر وهو لا يعلم.

وسمعه يقول عن شيخه أبي الحسن رضى الله عنه: كل شيء هناك الله عنه فهو شجرة آدم إلا أنه لما أكل من الشجرة نزل إلى الأرض للخلافة، وأنت إذا أكلت من شجرة النهى تنزل للمذا، إنما تنزل إلى أرض القطيعة.

وقال رضى الله عنه: كان ببلاد المغرب ولي من الأولياء يتكلم على الناس وكان يادئاً، فجلس يوماً يتكلم على الناس فقال رجل مكشوف الرأس كبيرة: هذا رجل يزهدنا في الدنيا وهو كالدب، فكشوف به الشيخ فقال من فوق المنبر: يا أبا رويس ما سمعنى إلا حيه، ثم أنشد:

وقائل لست بالسالمحب ولو كنت محباً لذيت منذ زمن  
أجبتته والفؤاد في حرق لم تسلق الحب كيف تعرفنى  
أحبه قلبي وصا درى يدنى ولو درى ما أقام في السمن

وقال رضى الله عنه: عزم إنسان على الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه فأتى إليه وأصحابه معه فلما أكلنا وعزمنا على الخروج ولم نشرب، فقال الشيخ: يا بخلاء من بخل الصوفى أن يأكل ولا يشرب، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: من سقى مؤمناً شربة ماء مع وجود الماء كان كمن أعتق سبعين من ولد إسماعيل.

ثم قال الشيخ: إذا أكلتم طعام إنسان فاشربوا عنده حتى ينال هذا الأجر العظيم. وقال رضى الله عنه: دخلت يوماً على الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه فقال لى: إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تسأل أحداً شيئاً، وإن أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله. فقلت في نفسي: كان النبي ﷺ يقبل الهدية، وقال: ما أتاك من غير مسألة فخذها. فقال الشيخ: كأنك تقول كان النبي ﷺ يقبل الهدية (٣٥)، وقال ما أتاك من غير مسألة (٣٦). فخذها النبي ﷺ قال الله في حقه:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ (٣٧).

مَنْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْكَ؟ إِنْ كُنْتَ مُقْتَدِياً بِهِ فِي الْاِخْذِ، فَكُنْ مُقْتَدِياً بِهِ كَيْفَ يَأْخُذُ، كَانَ ﷺ لَا يَأْخُذُ شَيْئاً إِلَّا لِيَنْتَبِهُ مِنْ يَعْطِيهِ وَيَعْوِضَهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ تَطَهَّرَتْ نَفْسُكَ وَتَقَدَّسَتْ هَكَذَا فَاقْبَلْ وَإِلَّا فَلَا.

(٣٧) الانبياء: ٤٥.

(٣٥) رواه أحمد والبخارى وأبو داود والترمذى.

(٣٦) رواه البخارى.

وقال لبعض أصحابه: لم تنقطع عني؟ قال: يا سيدي استغفرت بك.  
فقال الشيخ رضي الله عنه: ما استغنى أحد بأحد، ما استغنى أبو بكر برسول الله ﷺ ولم ينقطع عنه يوماً واحداً.

وقال رضي الله عنه: إن الله لما خلق الأرض اضطربت فأرساها بالجبال فقال عز وجل: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهُ﴾ (٣٨) كذلك لما خلق الله النفس اضطربت فأرساها بجبال العقل، فأبى عبد توفّر عقله واتسع نوره نزلت عليه السكينة من ربه فسكنت نفسه عن الاضطراب، ووبقت بولئ الأسباب فكانت مطمئنة أي ساكنة لأقداره، ممدودة بتأييده وأنواره، حائدة عن التدبير والمنازعة للمقادير، اطمأنت لمولاهما لتعلمها أنه يراها.

أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد.

فاستحقت أن يقال لها:

﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجَى إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مُرْضِيَةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٣٩).

وقال رضي الله عنه عن شيخه: الوقت ليل، والشأن في الليل الخمود والسكون حتى تطلع شمس المعرفة أو قمر التوحيد أو نجوم العلم فيستضاء بها.

وقال رضي الله عنه: يقول الله عز وجل:

ابن آدم خلقت الأنبياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلّ، فلا تشتغل بما هو لك عن أنت له.

وقال رضي الله عنه: الأكوان كلها عبيد مسخرة، وأنت عبد الحضرة.

وسمعه يقول: حقيقة التوبة عدم غير المنوى.

وسمعه يقول: قال عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء فمن ينزل به، ولا في الأرض فمن يصعد به، تأدّبوا بأداب الروحانيين، وتخلّقوا بأخلاق النبيّين أنيع لكم العلم من قلوبكم ما يقرركم ويفطّركم.

وقال رضي الله عنه: نحن إذا أئانا مريد له شيء من الدنيا لا نقول له أخرج عن دنياك وتعال ولكن ندعه حتى ترسخ فيه أنوار المعرفة فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه، ومثل ذلك قوم ركبوا سفينة فقال لهم رئيسها: غدا تهبّ ريح شديدة لا ينجيكم منها إلا أن ترموا بعض أمتعتكم فارموا بها الآن. فلا يسمع أحد قوله، فإذا هبت العواصف كان الكيس من يرمى متاعه بنفسه، كذلك إذا هبت عواصف اليقين يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه.

وكان يحكي عن الشيخ عبد الرزاق - الوليّ الكبير رضي الله عنه - أن رجلاً من أهل المهديّة أتاه فقال له الشيخ: أرى عليك أثر نعمة فمن أين أنت وما قصتك؟ قال: يا سيدي كنت من أكابر المهديّة وأعيانها وأكثر أهلها مالاً وعزّاً، فورد علينا رجل يدعى أنه من الدّالّين على الله فجئت إليه

وأنا متطلع محترق على الوصول إلى الله فقال لي: إنك لا تصل إلى هذا الأمر حتى تخرج عن مالك كله، وحتى تطلق نساءك بناتاً، وحتى تغير زيك. ففعلت ذلك فما ازداد قلبي إلا قسوة، فضاقت صدري وحررت في أمري ولم أطق أن أقيم بالمهدية وقد ذهب ما كنت فيه من المال والجاء ولم أتعرض عن ذلك بشيء في باطن فيجئت إلى هنا قاصداً للصح.

فقال الشيخ عبد الرزاق دعوى على غير بصيرة قاتلهم الله، أمكث عندنا. فلما جاء أوان الحج أرسله الشيخ مع بعض أهل الإسكندرية فحج ثم رجع إلى الشيخ بالإسكندرية فلما جاء أوان السفر إلى المغرب، قال له الشيخ: اذهب إلى بلدتك فإذا وصلت إليها فإني الناس يسمعون بك ويخرجون إليك مسرعين ويعرضون عليك الملابس والمراكب فيخذ أفضلها ملبساً وأحسنها مركباً وادخل إلى المهديّة فما حمل إليك من الدنيا فاقلبه، وسيعيد الله ما كان لك وأكثر منه، ويجيد زوجاتك قد طلقهن أزواجهن فتراجعهن، وتنال من العزّ والرفعة والغنى أكثر مما كنت فيه، فإذا تكمل لك ذلك كله فتح الله عينى قلبك.

قال: قسافر من عند الشيخ وأتى ساحل المهديّة فسمع الناس أن فلاناً أتى من المشرق وليس في البلدة إلا من له عليه يد ومعروف، فخرجوا يهرعون إليه بالملابس السنية والمراكب البهية، فلبس أحسنها ملبساً وركب أفضلها مركباً، ودخل المهديّة فأهديت له الهدايا وحلت إليه التحف والأموال، ووجد زوجاته قد طلقن وانقضت عدتهن فراجعتهن، فتكمل له جميع ما وعده به الشيخ في ذلك اليوم ثم فتح الله عينى قلبه.

ونكلم يوماً في غضايل أبي بكر رضى الله عنه فقال:

قال رسول الله ﷺ: ما فضلكم أبو بكر يصوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره. ثم قال: ما هو هذا الشيء الذى وقر في صدره؟

فقال بعض الحاضرين: المراقبة.

فقال الشيخ: هذا كلام هو قشور.

من هو دون الصديق في الرتبة إذا وجد المراقبة يستغفر الله منها كما يستغفر العاصي من العصية، وذلك أنه إذا أضاف المراقبة لنفسه كأنه يقول أنت الرقيب وأنا الرقيب: ﴿أَلَمْ يَعْزِمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقال رضى الله عنه يوصى بعض أصحابه لما عزم على الحج:

إذا وصلت إلى البيت فلا يكون هنك البيت وليكن هنك رب البيت، ولا تكن ممن يعبد الأصنام والأوثان.

وقال: من عرف الله لم يسكن إلى الله، لأن في السكون إلى الله ضرب من الأمن ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

ومثل هذا ما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قيل لى لا تأمنن مكرى في شيء وإن أمنتك؟ فإني علمى لا يحيط به محيط. وهكذا كانوا.

وكان يقول: إن الولي في فئاته لا يد أن تبقى معه لطيفة علمية عليها يترتب التكليف، وذلك كما يكون الإنسان في البيت المظلم فهو عالم بوجوده وإن كان غير مشاهد له.  
وكان يقول: «والله ما جلست حتى جعلت الطيران في الهواء والمشى على الماء ويطى الأرض تحت سجادتي».

وقال رضي الله عنه وقد قرأت عليه «الرعاية» للمحاسبي: كل ما في هذا الكتاب يقنى عنه كلمتان: اعبد الله بشرط العلم ولا ترض عن نفسك بشيء.

ثم لم يأذن في قراءته بعد.

وسئل عن بعض المشايخ الكاثنين في وقته فقال: ضيق الله عليه بالورع، ونحن وسع الله علينا بالمعرفة.

وكان يقول في قول بعض أهل الطريق:

العارف وسعته المعرفة، والورع ضيق عليه الورع.

لا تظن أن قولهم: العارف وسعته المعرفة، أنه يأكل حراماً أو مافيه شبهة، ولكن العارف ذو بصيرة منيرة يكشف له ما غطى عن الورع فيمد يده إلى ذلك الطعام لعلمه بحله وسلامته من الشبهة على ما أشهدته بصيرته، والورع مستور ذلك عنه؛ فلذلك ربما مد العارف يده إلى ما قبض المتورع يده عنه.

وكان رضي الله عنه يقول: من اشتاق إلى لقاء ظالم فهو ظالم.

وكان رضي الله عنه يفضل الغنى الشاكر على الفقير الصابر، وهو مذهب ابن عطاء ومذهب أبي عبد الله محمد الترمذي الحكيم، ويقول:

الشكر صفة أهل الجنة والصبر ليس كذلك.

وسمعه يقول: القبض على قسمين: قبض له سبب، وقبض لا سبب له. القبض الذي له سبب يكون للعموم والخصوص، والقبض الذي لا سبب له لا يكون إلا لأهل التخصيص.

وكان رضي الله عنه يقول:

الشكر انفتاح القلب لشهود منة الرب.

يقال: شكر، ومقلوبه كشر، يقال: كشرت الدابة إذا كشفت عن أنيابها.

وقال بعض العارفين: لو علم الشيطان أن طريقاً يوصل إلى الله أفضل من الشكر لوقف فيها، ألا تراه كيف قال:

﴿ثم لا تبشهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (٤٠).

ولم يقل ولا تجد أكثرهم صابرين ولا خائفين ولا راجين.

ولما اجتمعت بالسلطان الملك المنصور بالإسكندرية لاجئين رحمه الله قلت له:  
يجب عليكم الشكر لله، فإن الله تعالى قد قرن دولتكم بالرخاء فأنشروحت قلوب الرعية بكم،  
والرخاء أمر لا تستطيع الملوك تكسبه ولا استجلايه كما يتكسبون العدل والجود والعطاء.  
فقال: وما هو الشكر؟

قلت: الشكر على ثلاثة أقسام: سكر اللسان، وسكر الأركان، وسكر الجنان، فشكر اللسان  
التحدث بنعم الله، قال الله سبحانه:  
﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٤١).

وشكر الأركان بالعمل بطاعة الله قال الله سبحانه:  
﴿وَأَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ سِكْرًا﴾.

وشكر الجنان الاعتراف بأن كل نعمة بك أو يأخذ من العباد هي من الله قال الله سبحانه:  
﴿وَمَا بَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمنَ اللَّهِ﴾ (٤٢).

ومن القسم الأول قال رسول الله ﷺ:  
«التحدث بنعم الله شكر».

ومن الثاني، أنه قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماءه، فقبل له: أنتكلفت ذلك وقد شغل الله لك  
ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال:  
«أفلا أكون عبداً شكوراً» (٤٣).

ومن الثالث، كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «اللهم ما أصبح في من نعمة أو يأخذ من  
خلقك فمَنَّك وحدك لا سريك لك» وهذه الأحاديث لم أستحضرها وقت مخاطبتي له.  
فقال: وما الذي يصير به الشاكر شاكراً؟

قلت له: إذا كان ذا علم فيالتيبين والإرساء، وإذا كان ذا حق فيالبذل والإيثار للعباد، وإذا كان  
ذا جلاء فيإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد عنهم.

وقال رضى الله عنه: إن لله ملكاً يملأ ثلث الكون، وإن لله ملكاً يملأ ثلثي الكون، وإن لله ملكاً يملأ  
الكون كله، وإن لله ملكاً لو وضع قدمه في الأرض لم يجد أين يضع الثانية.

ثم قال: يقول القائل: إذا كان ملك يملأ الكون كله فأين يكون الذي يملأ ثلث الكون، والذي  
يملأ ثلثي الكون فقال رضى الله عنه جواباً عن ذلك: اللطائف لا تتزاحم، كمثل سراج أدخلته بيتاً  
فعملاً البيت نوره ولو أتيت بعد ذلك بألف سراج لوسع ذلك البيت أنوارها.

وسمعت يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: يا أبا بكر أتريد أن أدعوك لأمر؟ قال: وما هو  
يا رسول الله؟ قال: هو ذلك.

وسمعه يقول:

قال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر أتعلم يوم يوم؟

قال: نعم يا رسول الله سألتني عن يوم المقادير، ولقد سمعتك حينئذ وأنت تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقال رضى الله عنه:

أبو بكر وعمر خلفاء الرسول وعثمان وعليّ خلفاء النبوة.

وقال رضى الله عنه: العامة إذا رأوا إنساناً ينسب إلى طريق الله جاء من البرارى والقفار أقبلوا عليه بالتحظيم والتكريم وكم من ولى لله وبدل بين أظهرهم فلا يلتقون إليه بالآ وهو الذى يحمل أنقاهم ويدافع الأغيار عنهم فماتهم في ذلك كمثل حمار الوحش يدخل به البلدة فتطوف الناس به متعجبين لتخاطيط جلده وحسن صورته والحر الذى بين أظهرهم وهى التى تحمل أنقاهم لا يلتفتون إليها.

وقال: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

يا أيا العباس، إذا قال أحد فيك ما ليس فيك فقل:

الله يعلم منى ما يعلم وإلى الله عاقبة الأمور.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

علم الله ما يقال فى أوليائه والصديقين فبدأ بنفسه، ففضى على قوم أعرض عنهم فنسبوا إليه الزوجة والولد.

فإن قيل فى صديق إنه زنديق، أو قيل فى ولى إنه غافل عن الله غوى، فإن ضاق الولي أو الصديق بذلك ذرعاً قيل له: الذى قيل فيك هو وصفك لولا فضل عليك، وقد قيل فى ما لا يستحقه جلالى.

وقال رضى الله عنه: هالك بهذه الطائفة أكثر من الناجى.

واعلم أن الله تعالى ابتلى هذه الطائفة بالخلق ليرفع بالصبر على آذاهم مقدارهم، ولتكمل بذلك أنوارهم، ولتتحقق الميراث فيهم، ليؤدوا كما أودى من قبلهم فيصبروا كما صبروا، ولو كان من أتى بهدى إطباق الخلق على تصديقه هو الكمال فى حقه، لكان الأولى بذلك رسول الله ﷺ، وقد صدقه قوم هدامهم الله يفضلهم، وحرم من ذلك آخرون حججهم الحق عن ذلك، فانقسم العباد فى هذه الطائفة إلى معتقد ومتنقد، ومصدق ومكذب، وإتقا يصدق بعلومهم وأسرارهم من أراد الحق سبحانه أن يلحقه بهم، والمعتزف بتخصيص الله وعنايته فيهم قليل، لغلبة الجهل، واستيلاء الغفلة على العباد، وكرهية الخلق أن يكون لأحد عليهم شفوف فى منزلة، أو اختصاص بمنة، ألم تسمع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤)؟ ومن أين للعباد أن يعلموا أسرار الحق فى أوليائه،

وشروق نوره في قلوب أحبائه؟ وسبب هلاك المالك بهم أن من أظهره الله منهم لا يد وأن يظهره بيواهر المنن، وخوارق العادات، فتستغرب عقول العموم أن يعطى ذلك غير الأنبياء وأن تظهر الخوارق إلا في أهل العصمة، وهؤلاء لم يعلموا أن كل كرامة لولى هي معجزة لذلك النبي الذي هذا الولى تابع له، فظن هؤلاء أن جريان الكرامة على الولى مساهمة لمقام النبوة، وحاشا لله أن يشترك النبي والولى في مقام، كيف وقد قال أبو يزيد: جميع ما أخذ الأولياء مما هو للأنبياء كزق ملء عسلًا فرشحت منه رشاحة، فما انطوى عليه الزق فهو مثل علوم الأنبياء، وتلك الرشاحة هي حظ الأولياء منهم.

واعلم رحمك الله أن من اعترى بعزيم لم يشاركه في العز، فأولياء الله اعترفوا بالأنبياء الذين اعتدوا بهداهم واقنفوا سبيلهم فلا يشاركوهم في عزهم؛ لأن بهم اعتزازهم، ألم تسمع قول المولى تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعَزَّ وَالرَّسُولُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٥)؟ فلم يكن إثبات العزة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من عباد الله بموجب شركة الله في عزه.

وحكمة الله اقتضت عدم اتفاق العباد على الولى بل انقسم الأمر فيه كما بيناه لما بيناه. ولأثر آخر وهو أنه لو كان الخلق كلهم مصدقين للولى فاته الصبر على تكذيب المكذبين له، ولو كان الخلق كلهم مكذبين له فاته الشكر على تصديق المصدقين له، فأراد الله سبحانه بحسن اختياره لأوليائه أن يجعل العباد فيهم على قسمين مصدق ومكذب؛ ليعبدوا الله فيمن صدقهم بالشكر وفيمن كذبهم بالصبر، والإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر.

واعلم أنه لعزاة قدر الولى عند الله لم يجعله إلا محجوبًا عن خلقه وإن ظهر بينهم؛ لأنه ظهر لهم من حيث ظاهر علمه، ووجود دلالته، ويطن بسر ولايته.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

لكل ولى حجاب وحجاب الأسباب.

فمنهم من حجابه ظهوره بالسلطنة والعزة، والنفوس لا تحتل صحة من هذا وصفه، وسبب ظهور ذلك الولى بذلك تجلى الحق عليه بصفة ظهر بها فإذا غلبت عليه شهودًا غلبت عليه ظهورًا، فلا يصحبه ولا يتبعه إلا من بحق الله نفسه وهواه.

ومن هذا الصنف كان شيخنا أبو العباس رضى الله عنه لا تجلس بين يديه إلا والمرعب قد ملك قلبك.

ومن خلصه الله من نفسه وهواه فلا يستغرب ظهوره بالعز، وأى ملك أعظم من هذا الملك؟ هذا ملك أعز الملوك وجوده.

أفلا ترى أنه لم يزل في كل قطر وعصر أولياء تدلهم ملوك الزمان ويعاملونهم بالطاعة والإذعان؟ ومنهم من يكون حجابه كثرة التردد إلى الملوك والأمراء في حوائج عباد الله فيقول القصير الإدراك: لو كان هذا وليًا ما تردد إلى أبناء الدنيا.

وهذا جورٌ من قائله، بل انظر تردده إليهم؛ إن كان لأجل عباد الله وكشف الضر عنهم، وتوصيل ما لا يستطيعون توصيله إليهم، مع الزهد والياس مما في أيديهم، والتعزُّز بعمُر الإيمان وعت مجالسهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فلا حرج على من هذا شأنه لأنه من المحسنين، وقد قال الله سبحانه: ﴿وما على المحسنين من سبيل﴾ (٤٦).

وهكذا كان سبيل شيخ شيخنا القطب الكبير أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتي الأناضول تقي الدين محمد بن علي القشيري رضى الله عنه يقول: جهل الناس وولاة الأمور بقتل الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه حسن كثرة تردده إليهم في الشفاعات.

ويجب أن تعلم أن هذا الأمر لا يقدر عليه إلا عبده متخلف بخلق الله، قد بذل نفسه وأذلها في مرضاة الله، وعلم وسع رحمة الله، فعامل بالرحمة عباد الله مثلاً لقول رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (٤٧).

ولقد بلغني عن الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه أنه استدعى يهودياً كحلاً ليدأوى بعض من عنده، فقال له اليهودي: لا أستطيع أن أعالجه إلا بإذن، فإنه جاء مرسوم من القاهرة أن لا يدأوى أحد من الأطباء إلا بإذن من رئيس الطب بالقاهرة، فلما خرج اليهودي من عنده قال الشيخ لحدايمه: هيئوا آلة السفر، وسافر لوقتته إلى القاهرة وأخذ لهذا الطبيب إذناً وعاد ولم يبت بها ليلة واحدة ثم جاء إلى الإسكندرية، فأرسل إلى ذلك اليهودي فاعتذر له بما اعتذر به أولاً فأخرج له الشيخ مكتوباً بالإذن فأكثر اليهودي التعجب من هذا الخلق الكريم.

وقد يكون حجاب الولي كربة الغنى وانبساط الدنيا عليه.

وقال بعض المصايخ: كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ومن أهل الجدة والاجتهاد، وكان عيسه مما يصيده من البحر، وكان الذي يصيده يتصدق ببعضه ويتقوت ببعضه، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب فقال له هذا الشيخ:

إذا دخلت إلى بلد كذا فاذهب إلى أخى فلان فأقره منى السلام وتطلب الدعاء منه لى فإنه ولى من أولياء الله تعالى.

قال: فسافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل، فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك فتمجيت من ذلك وطلبتة فقيل لى: هو عند السلطان. فازداد تعجبى، فبعد ساعة، وإذا هو أتى فى أفسر ملابس ومركب، وكأنما هو ملك فى موكبه، قال: فازداد تعجبى أكثر من الأول قال: فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به، ثم قلت: لا يمكنى مخالفة الشيخ، فاستأذنت فأذن لى، فلما دخلت رأيت ما هالنى من العبيد والخدم والشارة الحسنه.

فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك.

قال: جئت من عنده؟

(٤٦) التوبة ٩٦.

(٤٧) أرحمه أهد والترمدى والحاكم وأبو داود.



قلت: نعم.

قال: إذا رجعت إليه قل له: إلى كم استغالك بالدنيا؟ وإلى كم إقبالك عليها؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها؟

فقلت: هذا والله أعجب من الأول.

فلما رجعت إلى الشيخ قال: اجتمعت بأخي فلان؟ قلت: نعم. قال: فما الذي قال لك؟ قلت: لا شيء. قال: لابد أن تقول لي. فأعدت عليه ما قال، فبكى طويلاً، وقال: صدق أخى فلان، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده وعلى ظاهره، وأنا أخذها من يدي وعندى إليها بقايا التطلع.

ومن حجب أولياء الله قلوبهم من الخلق، فإذا قيل الرجل ما يعطى صقر عند الخلق، وهم لا يكبر عندهم إلا من لا يقبل دنياههم، ومن إذا أعطوه ردّ عليهم وأبى من القبول منهم. ولعل فاعل ذلك إنما قطع زوايقاً وزندقة، واستيلافاً لقلوب العباد عليه، وليتوجّه بالتعظيم إليه، ولتنطلق الألسنة بالتناء عليه.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: من طلب الحمد من الناس بترك الأخذ منهم فإنا يعبد نفسه وهواه وليس من الله في شيء.

وما قد يصدّ عقول العموم عن أولياء الله وفروع زلة من تزياً بزيم أو انتسب إلى مثل طريقهم، والوقوف مع هذا حرمان ممن وقف معه. وقد قال الله سبحانه: ﴿ولا تزر وازرةٌ وزراً أخرى﴾ (٤٨). فمن أين يلزم لما أساء واحد من الجئس، أو ظهر عدم صدقه في طريقه، أن يكون بقية أهل الطريق كذلك.

وقد أنشدنا الشيخ علم الدين الصوفي لنفسه رحمه الله تعالى:

استنار الرجال في كل أرض تحت سوء الظنون فدرّ جليل  
ما يضير الغلال في حنّس اللية سل سواد السحاب وهو جميل

وأشدّ حجاب يحجب عن معرفة أولياء الله شهود المماثلة، وهو حجاب قد حجب الله به الأولين، قال الله سبحانه حاكياً عنهم:

﴿ما هذا إلا بشرٌ مثلكم يأكل ممّا تآكلون منه ويشرب ممّا تشربون﴾ (٤٩).

وقال سبحانه حاكياً عنهم:

﴿أبشراً ممّا ولحداً تشبه﴾ (٥٠).

وقال سبحانه: ﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق﴾ (٥١).

وإذا أراد الله أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك شهود يسريته وأشهدك وجود خصوصيته.  
وصية وإرشاد:

إياك أيها الأخ أن تصغى إلى الواعين في هذه الطائفة والمستهزئين بهم، لئلا تسقط من عين الله، وتستوجب العقاب من الله؛ فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة المصدق، وإخلاص الوفاء، ومزاجية الأنفاس مع الله، قد سلموا قيادتهم إليه، وألقوا أنفسهم سلباً بين يديه، تركوا الانتصار لنفوسهم حياء من هويته، واكتفاء بقيوميته، فقام لهم بأوقى ما يقومون لأنفسهم، وكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق خصوصاً أهل العلم الظاهر، فقل أن تجد منهم من شرح الله صدره للتصديق بولي معين، بل يقول لك: نعم نعلم أن الأولياء موجودون ولكن أين هم؟ فلا يذكر له أحد إلا وأخذ يدفع خصوصية الله فيه، طلق اللسان بالاحتجاج، عارياً عن وجود التصديق، فاحذر من هذا وصفه، وفر منه فرارك من الأسد، جعلنا الله وإياك من المصدقين لأوليائه بجنة.

## الباب التاسع

فيما قاله من الشعر أو قيل بحضرته، أو قيل فيه بما يتضمن ذكر خصوصيته

قال رضى الله عنه: أطلعنى الله على الملائكة وهى ساجدة لآدم عليه السلام فأخذت بقسطنى من ذلك، فإذا أنا أقول:

ذاب رسمى وصح صدق فتانى	وتجلى للسرّ شمس ضيائى
وتنزلت فى العوالم أيدى	ما انطوى فى الصقات بعد صفائى
قصائى كالشمس يبدو سناها	ووجودى كالليل يخفى سوائى
أنا معنى الوجود أصلاً وفصلاً	من رأى فساجد ليهائى
أى نور لأهله مستتبين	أشهدونى فقد كشفت غطائى

ومثل رضى الله عنه عن الروح والنفس فقال:

إن كنت سائقاً عن خالص المن	وعن تعلّق ذات النفس بالبدن
وعن تشبّثها بالخط مذ ألفت	أدائها فعدت تشكو من العطن
وعن تنزّلها فى حكمها ولها	علم يفرقها بالقبح والحسن
وعن يواعظها بالطبع مائلة	تهوى بشهوتها فى ظلمة الشجن
وعن حقيقتها فى أصل معدنها	لا يثنى وصفها منها إلى رثن
فاسمع هديت علوماً عزّ سالكها	عن العيان ولا يفرّك ذو لسن
قصداً إلى الحق لا تخفى شواهدا	قامت حقائقها بالأصل والفن
يا سائلي عن علوم ليس يدركها	ذو فكرة بفهوم لا ولا قطن
لكن ينور على جامع خمدت	له العقول وكل الخلق فى رسن
خذها إليك بحق لست جاهله	والأمسر مطمح والحق قيّد
عن الحقيقة خذ علم الأمور ولا	تحجيك صورتها فى عالم الوطن
تطور النفس سرّاً لا يحيط به	عقل تقيد بالأروام والبدن
لكنها برزت بالحكم قائمة	حق تألفها السكان بالسكن
وكى يقال عبيد قائمون بما	ألقي من الأمر قبل الخلق والمحن
والنفس بين نزول فى عوالمها	كآدم وله حولة فى قرن
والروح بين ترقى فى معارجها	وهى الموافق للتعريف والمن
مشاهداً فى الصلا مرآة معدنها	ألفافها خفيت كالسرّ فى العان
زيونة زيتها نور لشاربها	مدّت هدايتها فى الكون والكين

والكل أنت بمعنى لا خفاء به  
والعبد محتجب في عز مالكة  
وكان ينشد رضى الله عنه:

لو عايت عيناك يوم تزلزلت  
لرأيت شمس الحق يسطع نورها  
وقال: الأرض أرض النفس، والجبال جبال العقل، والشمس شمس المعرفة.  
وكان ينشد رضى الله عنه:

وقفت على التوباذ حين رأيته  
فقلت له أين الذين عهدتهم  
فقال مضوا واستودعوني ديارهم  
وكان ينشد رضى الله عنه:

لست من جملة المحبين إن لم  
وطواني إجمالة السر فيهِ  
وكان ينشد رضى الله عنه:

وقد بقينا مذبيين حيارى  
فسدواعى الهوى تحف علينا  
وكان ينشد رضى الله عنه للسهر وردى رضى الله عنه:

أبداً تحن إليكم الأرواح  
وقلوب أهل وداكم نشواقكم  
يا رحمة للمشاقين تحملوا  
بالسر إن باحوا تباع دماؤهم  
وكان ينشد رضى الله عنه:

مرت لنا بئى والخيف أوقات  
لأسكن ولو أن الأسود بها  
وكان ينشد قول امرئ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه  
فقلت له لا تبك عيناك إنما  
وكان يقول: نحاول ملكاً بالبقاء، أو نموت فنعتذر بوجود الفناء.

وكان ينشد من فصيدة ابن العطار:

رفعت مقامات الوصال حجابى  
حتى احتجبت بكم عن الحجاب

فرأيت وجه الحق في الحجاب،  
فنجوت من ملك لها غصاب  
سبب النجاة وأعظم الأسباب  
عن كنزه الباقي بغير ذهاب  
حتى دتوت فكتت مثل القباب

وينم كالسك العيق شذاه  
فيه القلوب تطيب والأفواه  
بأصباح من كانت حلاه تقاه  
مستغرقاً في الكشف عن معناه  
خلا عن الكونين في مسراه  
عين البقاء فعند ذاك تراه  
كلّاً ولا أيضاً تكون سواء  
سرّ يضيّق نطاقنا عما هو  
قلب يفكر ما وعدت أذنياه  
لك سرّ ما قد غاب عنك ستاه  
من لم يراه قد استبان عماء  
ما غاب عنهم لمسلطة مرآه  
لكن شديد ظهوره أخفاه

كلّاً ولا أيضاً تكون سواء  
سرّ يضيّق نطاقنا عما هو  
قال الشيخ رضي الله عنه: ولا نستطيع أن نبيته أبداً.

هل في وجود الحق إلا الله  
هل كان يوجد غيره لولاه  
فالنور يظهر ذاته فتراه  
مستغرقون بكسرهم إنياء  
حتى كأن قلوبهم مشواه  
أتغيب عنه وما شهدت سواء  
فلقد أحاط به حجاب عماء  
فمن المحال عليه أن يفساه

ولسّمت محرابي لسزوم مجمع  
وخرقت لوح سقيتي لأعبيها  
وقلت من نفسي غلاماً قتله  
وكشفت عن قلبي جدار حجابيه  
ورقيت في السبع السموات العلا  
وأشد بين يديه وأنا حاضر أسمع:

خذ من كلامي ما يلدّ جناه  
ذكر الإله الزم حديث لذكره  
واجعل خلاك تقاه إن أخا الحجاب  
ولتعمل الأفكار في ملكوته  
ولتخلع التعلين خلع محقق  
ولتقن حتى عن فنانك إنسه  
وإذا بدا لك فاعلم أنك لست هو  
شيطان ما اتحدنا ولكن ههنا  
يا سامعاً ما قد أسرت له ألا  
أزل الحجاب حجاب حسك ينكشف  
إن الإله أجلّ مما نتعرف  
فيه يراه ذور البصائر والنهي  
أنى يغيب وليس يوجد غيره

ولما انتهى في الإنشاد إلى قوله:

وإذا بدا لك فاعلم أنك لست هو  
شيطان ما اتحدنا ولكن ههنا

قال الشيخ رضي الله عنه: ولا نستطيع أن نبيته أبداً.

وقرأت عليه القصيدة المنسوبة لابن الفرس:

الله ربي لا أريد سواء  
ذات الإله بها قوام ذواتنا  
لا غرور في أنا رأيناه به  
فالسالكون مشاهدون لصنعه  
والعارفون مشاهدون لذاته  
يا غائباً والحق فيه حاضر  
من لم يشاهد بالبصيرة ذاته  
من لا يرى في كل حال غيره

قال فوز بالحسنى ثواب سره  
وهدها متبج قصده فرآه  
لجلوح ما أخفى بما أسداه  
لم تعرف الأضداد والأشبه  
في حضرة الملكوت شاهدناه  
إلا بما ظلماتها بسنناه  
أضافه والحق قد رواه  
حرم الهدى من لم تكن مأواه  
أنت الذى عرفتنا ممشاه  
ما ذاق سر الحق من أقشاه  
يسر العقول فحسبه وكفاه

من كان فى الملكوت يسرى فكره  
سيحان من غرق الحجاب لبعده  
سيحان من ملأ الوجود أدلة  
سيحان من لو لم تلج أنواره  
مولاي أنت الواحد الصمد الذى  
مولاي أنسك لم يدع لى وحشة  
مولاي عبدك لا يضاف تعطشا  
مولاي لا أوى لغيرك إنه  
أنت الذى خصصتنا بوجودنا  
لم أفش ما أودعته فإنه  
من كان يعلم أنك الفرد الذى

فقال الشيخ: كل هذا تحويم وليس هو عين القصد.  
ووجدت بخط ابن ناشى قال: كتب إلى سيدى وشيخى أبى العباس المرسى وكان قد ورد  
سلامه على فقلت:

أق مررت بخاطر لم يتسنى  
باقى على العهد القديم فهنتى  
خضر الزمان ورب عين الأعين  
بالباطن السرى قد ربنتى  
والى الطريق المستقيم هديتى  
كالخضر لما أن رويت سقيتى  
لأعيش بعد الموت فى عيش هنى  
سافر إلى المرسى يريح لين  
إن كنت يومًا بالإرادة تعنى  
فى عالم من عالم مشفقين

ورد السلام من الإمام فسرقى  
إن كنت تعلم يا رسول بأنه  
شيخى أبو العباس واحد وقته  
أسقى على وقت لديك قطعتى  
ما كنت إلا حائسًا فرددتلى  
وسقيتى ماء الحياة وكنت لى  
ولو استطعت قطعت عمرى عنده  
يا أيها المرسى يبحر مصارف  
فهو الطريق إلى النبى محمد  
صلى عليه الله ما ذكر اسمه

ومدحه الأديب الفاضل شرف الدين البوصيرى بقصيدة منها:

قتعنمى يا مهجى بالبوس  
وطوى حشاه على أحر ريس

أما المحبة فهى بذل نقوس  
بذل المحب لمن أحب دموعه

ثم مر فيها إلى أن قال:

لم يتنفع منه امرؤ بجلوس  
وتوجهى لجناسيه المحروس  
وأباحنى مرآه غير يئوس  
فكأنه عندى كألف خميس

صدق وقل من لم يقم كقيامه  
قبل الإله تقسرى بمديحه  
رمت المسير له فأعجزنى السرى  
أكرم بيوم الأربعاء زيارة

كل اتصالات السميد سعيدة بمشابة التثليث والتسديس

ثم مرّ فيها إلى أن قال:

شرقاً لشاذلة ومرسية سررت  
ما إن نسبت إليها شويخها  
وكنّت في مبدأ الشبية عملت فيه قصيدة، وأنشدت بين يديه، فلما فرغ من إنشادها قال: أيّدك  
الله بروح القدس وهي هذه:

برزت سلمى بأثناء الخيم  
وحداً المحادون لما أبصروا  
وعذرتاهم وماذا عجب  
كضياء الصبح أو بدر الدجى  
لو رأها البدر أثنى راجعاً  
أو رأتها الشمس لم تطلع ضحى  
عذبت قلبي بهجران به  
وكستني ثوب هم وضئى  
وأبت إلا صدوداً دائياً  
فسهرت الليل أرعى نجمه  
كلما زمت لعيني هجمة  
تدعى العشق وتأتى ضده  
لازم السباب بذل وأسئ  
ودع التقصير في خدمته  
واجتهد عليك أن تنجو غداً  
لا تقبل لى إن هذا زمن  
أولياء الله لم ينقضوا  
قد رأينا كلهم فى واحد  
فى أبى العباس مجموع الذى  
بأبى العباس زاحت كربة  
وبه شمس الهدى قد ظهرت  
أبى نور يدا لأمله  
ولقد فضله رب العلاء  
قل لأقوام أرادوا شأوه  
ليس هذا الأمر أسراً هيئاً  
إنما هم قسمة قد قسمت

فأرتنا البدر من تحت الثلم  
وجهها فى الليل صيحاً قد ألم  
أن يرى وجه سلمى فى الظلم  
وجهها أكمل نوراً وأتم  
خجلاً من وجهها ومحتشم  
ثم صارت خدن هم وندم  
عذب العشاق قبل فى القدم  
صرت بين الناس فيه كالعلم  
فأبى دعوى إلا أن يُنعم  
أذكر الوصل الذى قد انصرم  
قال لى القلب رويداً لا تم  
إنما العشق سهاد وسقم  
فهما فى العشق شرط يلتزم  
سُرّ الذيل ولا تخش الأثم  
من عذاب الله خلّاق الأمم  
عسر فيه وجود من سلم  
إن حزب الله غير منهزم  
ذى بهاء ووفاء وهم  
منحوه من علم وحكم  
عن قلوب الخلق وانجابت ظلم  
وبه در العلوم قد نظم  
أبى علم قد بدا لمن فهم  
وكساه حلالاً من النعم  
أقصروا إن الإله قد قسم  
فتتسألوه بجد وهم  
أعطيت أحمد فى حال العدم

إذ أرادوا ستر ذا النور الأتم  
إذ تسمى النور منها واستتم  
وهم إخوان جهل وهوى  
وقديما قال فيه نبيخه  
إن هذا ليس أمرا مكتوم  
ذائع ما بين عرب وعجم  
وليزاد الشرح فيه وعظم  
قتراهم مازجى شهيد بسم  
وليموتوا كلهم مودة غم  
ما رقى القمري في غصن سلم

تأزعو الله تعالى حكمه  
إن يكتروا أنكروا شمس الضحى  
فهم إخوان جهل وهوى  
وقديما قال فيه نبيخه  
إنما أنت أنا قاعلم بهذا  
وحديث الشيخ عنه شائع  
لو بسطناه لسطال بسطه  
إنهم لن يستطيعوا جمعه  
فليدم غيظهم وحقدهم  
دمت في عز على رغم العدا  
وحين انتهى في الإنشاد إلى قولنا:

ذى بهاء ووفاء وهم  
منحوه من علوم وحكم

قد رأينا كلهم في واحد  
في أبي العباس مجموع الذى

قال الشيخ رضى الله عنه: والله لقد قال لى الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: يا أبا العباس  
فيك ما فى الأولياء وليس فى الأولياء ما فيك.

ولما انتهى في إنشادها إلى قوله:

وهو قطب الأرض ذو العلم الأعم  
إن هذا ليس أمرا مكتوم

وقديما قال فيه شيخه  
إنما أنت أنا قاعلم بهذا

قال الشيخ رضى الله عنه: والله لقد قال لى الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: يا أبا العباس  
ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت.

ومكنت بعد ذلك مدة سنين ثم أتى الشيخ رضى الله عنه من الصعيد فلما اجتمعت به أراى  
قصيدة عملها فيه إنسان من أهل الحميم وقال: أجب. فذهبت فتوقف على القول، فقلت: عجبا  
يا مرقى الشيخ وتوقف على القول، هذا والله من عدم صدق، فلما قلت ذلك فتح الله باب الكلام  
حتى كأنما كانت سبلا تدفق إلى أن تكلمت قصيدة، فلما قرئت عليه وقعت منه موقع الرضا حتى كان  
يكث المدة من الزمان ويستعيدها، وقال لما قرئت عليه: هذا الفقيه صبحنى وبه رمضان وقد عافاه  
الله منها: يعنى وجعا فى الرأس والوسوسة فى الطهارة، ولا بد أن يجلس ويتحدث فى العلمين، وهى  
هذه -

فلن تسير وما المراد سواها  
فلطال ما جهدت ودام سراها  
أرساغها عجزوية بدماها  
حتى تشكت أنها ووجهاها  
تفرى بها فالشوق قد أغراها

فف بالديار فقد بدا مغناها  
وأرح قلوبك قد بلغت المنحنى  
ولطال ما قطعت مهامه واغتدت  
تسمى وتصبح لا تمل من السرى  
رفقا بها يا أيها الحادى ولا



وكفى بها وصداً بها وكفاها  
حتى تبيل من الدموع نراها  
ويقودها نحو الحبيب هواها  
فتمايلت والشوق حشو حشاها  
راستبشرت فيه ينيل منها  
فيها أبو العباس شمس ضحاها  
وغدت به بين الورى تنبها  
وتعلت الأيام منه حلاها  
فأزاح عنها كرمها وجلاها  
حبراً منياً صادقاً أواها  
وتجمعت فيه على أخراها  
كم يدعة عقدت فعل عراها  
قد قيدته نفسه بهواها

عنه سحاب ظلمة بدجاها  
أحيا بها من بعد ما أحيها  
قلل المساعد فانجلت ظلمها  
ركبت محارم واستبيح حماها  
وليست من خلل التقى أسناها  
فلأزلت عنها جهلها وعماها  
فينا وزلت عن سبيل هداها  
من بعد ما جمعت وعز شفاها  
بشرى لها في دها بشرها  
وكذاك أيضاً أنت في نجواها

فيكم تكمل برها ونقاها  
حتى أتى قطب الورى فهداها  
وتسورت بهجته أفقاها  
قطب البرية غوثها ملجاها  
وزوى بها عن صرفه ووقاها  
ترجوه في لأوائها ورخاها  
من بغية قد حازها وحوها  
بالإرث منه فارقت علاها  
وأقامه فيها لكى يرعاه  
طبقت جفونهم على أنساها

يكفى الذى لاقته من ألم السرى  
أو ما تراها كيف تنرى دمعها  
يجدو بها نحو الديار غرامها  
فازت بأن وصلت إلى أحياها  
حنت وأنت إذ رأيت وادى النقا  
فسرورها كسرور أيام غدا  
تاهت بأحد إذ أتاه رحة  
وتسرفت أوقاتها بهجته  
وغدا يسد أمر دين محمد  
إن تلقه تلق إيماناً راسخاً  
قد كملت فيه الفضائل كلها  
كم ستة مانت فأحى رسمها  
كم من أتاه والمعاصى دأبه  
فأزال عنه ما به فتشعت  
كم من قلوب قد أميت بالهوى  
أحييت علم القوم في زمن به  
وأنت غوثاً للأنام وقيل ذا  
وغدوت ترفل في ثياب معارف  
مازلت حتى طارعتك نفوساً  
من بعد ما ظفرت بنا وتحكمت  
ذللتها حتى أتت منقادة  
فلذاك أضجى دها لك خالصاً  
فغدوت أهل هها في جهرها

ما زلت تهدون أمة أحمد  
قد كان قدما بالبرية حيرة  
بالشاذلى تشعت ظلمساؤها  
كز التقى علم الهدى بحر الندى  
من كان إن خطب أئم حماها  
كهف تلوذ به البرية كلها  
حتى توفاه الإله فيالها  
وخلفته في حاله ومقامه  
الله أبقى للبرية أحداً  
إن الذين تعرضوا لفخاره

إن تنكروا الآيات وهي ظواهر  
 هم يعلمون بأنه قطب النورى  
 أو ما ترى قوم النبى محمد  
 مع علمهم أن النبى محمدًا  
 فإدام غيظهم المليك ولم تزل  
 تهدى إليك المكرمات بأسرها  
 وكان يعجبه منها

كم من قلوب قد أميتت بالهوى  
 أحيأ بها من بعد ما أحيأها  
 فكان يستعيد القصيدة إلى هذا البيت، فإذا انتهى في الإنشاد إليه استعاده، جعل الله مدحنا هذا  
 موضوعًا في الميزان، وموجبًا للرضوان، بجنه وكرمه.

## الباب العاشر

في ذكره ودعائه عقب كلامه، وحزبه الذي  
رتبه للأخدين من علومه وأفهامه، وشيء من  
دعاء الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه  
وحزبه، وبها يكون لهذا الباب وجود ختامه

كان من ذكره رضى الله عنه:

لا إله إلا الله الأول الآخر الظاهر الباطن، محمد رسول الله السيد الكامل الفاتح الخاتم.

ومن ذكره أيضا:

يا الله يا نور يا حق يا مبین: أحي قلبى بنورك، وأقمى بشهودك، وعرفى الطريق إليك.

ومن ذكره أيضا:

رب اغفر لى، واجعل لى لك عبدا ذائبا للنفس بأنوارك، مطموس الحس بجلالك، واغفر لى  
والمؤمنين والمؤمنات.

ومن دعائه:

اللهم اغفر لى، واستر لى، ولا تفضحنى فى الدنيا والآخرة، وعلمنى وذكرنى وفهمنى، وأرحمنى  
وفرحنى وبرئى، وغرغنى من كل شىء إلا من ذكرك وطاعتك وطاعة رسولك، ومحابك ومحاب  
رسولك ﷺ.

ومن دعائه عقب كلامه:

اللهم كن بنا رءوفا، وعلينا عطفوا، وخذ بأيدينا إليك أخذ الكرام عليك، اللهم قوما إذا  
اعوججتنا، وأعنا إذا استقمنا، وخذ بأيدينا إذا عثرنا، وكن لنا حيثما كنا.

ومن دعاء الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه:

اللهم إن الدنيا حقيرة حقير ما فيها، وإن الآخرة كريمة كريم ما فيها، وأنت الذى حقرت  
الحقير وكرمت الكريم، فأنى يكون كريما من طلب غيرك؟ أم كيف يكون زاهدا من اختار لدنياه  
معا؟ فحققتى بحقائق الزهد حق أستغنى عن طلب غيرك، وبعرفتك حق لا أحتاج إلى طلبك.  
إلهى، كيف يصل إليك من طلبك؟ أم كيف يفوتك من هرب منك؟ فاطلبنى برحمتك، ولا تطلبنى  
بتقمتك، يا عزيز يا منتقم، إنك على كل شىء قدير.

ومن دعاء الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه:

اللهم اسلبنى عقلا ينجبى عنك، وعن فهم آياتك، وعن فهم كلام رسولك، وهب لى من العقل

الذى خصصت به أنبياءك ورسلك والمصدقين من عبادك، واهدنى بنورك هداية المخلصين بمشيئتك،  
ووسع لى فى النور توسعة كاملة تخصنى بها برحمتك، فإن الهدى هداك، وإن الفضل بيدك تؤتيه من  
تشاء وأنت ذو الفضل العظيم.

ومن دعاء الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه:

يا واسع يا عليم، يا غنى يا كريم، يا ذا الفضل العظيم.

اللهم أجلسنا على بساط القرب منك بالفناء عن غيرك وبالبقاء بنورك، أو بالتقرب بالأخذ عما  
هو لنا إلى ما هو لك من جهة العلم أو العقل، ومن جهة العمل والحال، وهيمنا فى برزخ الصنع  
ناظرين بك إليك، ومنك إلى غيرك، إنك على كل شيء قدير.

ومن دعاء الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه:

يا عزيز يا رحيم، يا حكيم يا غنى يا كريم، يا واسع يا عليم، يا ذا الفضل العظيم، اجعلنى عندك  
دائمًا، وبك قائمًا، ومن غيرك سالمًا، وفى حيك هائمًا، وبِعظمتك عالمًا، وأسقط البين بينى وبينك حتى  
لا يكون شيء أقرب إلى منك، ولا تحجبنى بك عنك إنك على كل شيء قدير.

ومن دعائه أيضًا رضى الله عنه:

اللهم هب لى من النور الذى رأى به رسولك ﷺ ما كان ويكون؛ ليكون العبد بوصف سيده  
لا بوصف نفسه، غنيا بك عن تجديد النظر لشيء من المعلومات، ولا يلحقه عجز عما أراد من  
المقتدرات، ومحيطًا بذات السر بجميع أنواع الذوات، ومرتبًا للبدن مع النفس، ولقلب مع العقل،  
وللروح مع السر، وللأمر مع البصيرة، والعقل الأول الممد من الروح الأكبر المتفصل عن السر  
الأعلى.

اللهم أرزقنى من كنز لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة، واضربى بها ضربا  
تفتح بها من قلبى كل قوة؛ وأغنى بذلك الرزق عن ملاحظة النفس والخلق، وأخرجنى به عن ذل  
الفقر والتدبير والاختيار وعن الغفلة والشهوة ومشية النفس والقهر والاضطرار، إنك على كل  
شيء قدير.

ومن دعائه رضى الله عنه:

يا اسم المهيمن العزيز القادر، أجل كل شيء وهو ناصرى قى ج ن ص انصرنى فإنك خير  
الناصرين، وافتح لى فإنك خير الفاتحين، وأرزقنى فإنك خير الرازقين، واهدنى ونجنى من القوم  
الظالمين.

ومن دعائه رضى الله عنه:

يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بينى وبين طاعتك على بساط مشاهدتك، وفرق بينى وبين  
هم الدنيا وهم الآخرة، ونب عنى فى أمرها، واجعل همى أفت، وأملأ قلبى بحببتك، ووجهها بأنوارك،  
وخشع قلبى بسلطان عظمتك، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك.

وها نحن ننبئ حزب سيدنا ومولانا الشيخ الإمام قطب العارفين وعلم المهتدين شهاب الدين

أبي العباس أحمد بن عمر المرسى رضى الله عنه، وإن كان بعضه من كلام شيخه الشيخ أبي الحسن الشاذلى رضى الله عنها، وبعدة نذكر حزب الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه المسمى حزب النور وبعدها حزب آخر له أيضا.

وإنما ذكرنا حزب الشيخ أبي العباس الذى رواه عن شيخه، وحزبى الشيخ أبي الحسن هذين حزب النور والذى بعده، لأن هذه الأحزاب الثلاثة لم تستمر شهرة حزبى الشيخ أبي الحسن حزب البحر وحزب «وإذا جاءك» فذلك أفردنا هذه الثلاثة بالذكر وتركنا ذكر ذلك الحزبين فإنها سارا مسير الشمس والقمر، وأشيد ذكرهما في البدو والحضر.

فأما حزب الشيخ أبي العباس رضى الله عنه فهو هذا، وهو ورد شيخه بعد العشاء الآخرة، وحزب «وإذا جاءك» بعد الصبح، وحزب البحر بعد العصر هكذا رتبها الشيخ أبو العباس رضى الله عنه وهذا مبدأ الحزب:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهتدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين.

﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظها وهو العلى العظيم﴾ (١).

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرنا لك ربنا وإليك المصير، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ (٢).

﴿الم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾ (٣).

﴿يا أيها المدثر، قم فأندب، وربك فكبر، وثيباك قطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر﴾ (٤).

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ (٥).

﴿الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان، الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر

(٤) المدثر، ١ - ٧

(٥) العلق، ١ - ٥

(١) النقرة، ٢٥٥.

(٢) النقرة، ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٣) آل عمران، ١ - ٤.

يسجدان، والسماة رفعها ووضع الميزان، ألا تظفروا في الميزان؟<sup>(٦)</sup>

﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾<sup>(٧)</sup>.

سبحان ربى العظيم، سبحان ربى العظيم، سبحان ربى العظيم.

﴿سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير، هو الأول والآخِر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير، له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور﴾<sup>(٨)</sup>.

﴿هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾<sup>(٩)</sup>.

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾.

﴿قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات فى العقد، ومن شر حاسد إذا حسد﴾.

﴿قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس﴾.

اللهم يا من هو كذلك، وعلى ما وصفه به عباد الله المخلصون من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين والعلماء الموقنين والأولياء المقربين من أهل سماواته وأرضه وسائر الخلق أجمعين، أسألك بهاء وبلايايات والأسماء كلها، وبالعظيم منها، وبالألم<sup>(١٠)</sup> والسيدة<sup>(١١)</sup> وبخواتم سورة البقرة، وبالمبادئ والمخواتيم وبآمين على الموافقة، وبهاء الرحمة وميم الملك ودال الدوام.

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداه على الكفار رحمة بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه فأزهره فاستغلق فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾<sup>(١٢)</sup>.

أحون، قاف، آدم، حم، هاء، آمين.

كهيمص

اغفر لى وارحمى برحمتك التى رحمت بها أنبياءك ورسلك ولا تجعلنى بدعائك رب سقيًا.

(٦) الرحمن: ١ - ٨

(٧) الرحمن: ٧٨.

(٨) الحديد: ١ - ٦

(٩) الحشر: ٢٢ - ٢٤

(١٠) ألم هنا من الفاتحة.

(١١) سيدة أى القرآن. آية الكرسي.

(١٢) الفتح: ٢٩.



اللهم إني أصبحت وأنا أريد الخير وأكره الشر، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فاهدني بتورك لنورك فيها يرد عليّ منك، وقبها يصدر مني إليك، وفيها يجري بيني وبين خلقك، وضيق عليّ بقربك، وأحجيني بحجب عزتك عن حجبيك، وكن أنت حجابي حتى لا يقع شيء مني إلا عليك، وسخر لي أمر هذا الرزق، وأعصمني من الحرص والعجب في طلبه، ومن سفل القلب وتعلق الهوى به، ومن الذل للخلق، بسببه، ومن التفكير والتدبر في تحصيله، ومن التسرع واليهل بعد حصوله، وما يعرض في النفس من ذلك، وتحلقه بقدرتك على وفق إرادتك وعلمك، ومن ضرورات الحاجات إلى خلقك، فاجعله اللهم سبباً لإقامة العبودية، ومشاهدة لأحكام الربوبية، وهب لي خفية من خفياتك، ونوراً من أنوارك، وذكرًا من أذكارك، وسراً من أسرارك، وطاعة من طاعات أنبيائك، وصحبة للملائكتك وتولّ أمرى بذاتك، ولا تكلفني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك، واجعلني حسنة من حسناتك، ورحمة بين عبادك تهدي بها من تناء إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور.

اللهم اهديني لنورك وأعطني من فضلك وامتنعني من كل عدو هو لك، ومن كل شيء يشغلي عنك، وهب لي لساناً لا يفر عن ذكرك، وقلباً يسمع بالحق منك، وروحاً يكرم بالنظر إليك، وسراً تمتعاً بحقائق قرة، وعقلاً جاثلاً بجلال عظمتك؛ وزين ما ظهر وما بطن مني بأنواع طاعاتك؛ يا سميع يا عليم يا عزيز يا حكيم.

اللهم كما خلقتني فاهدني، وكما أمتني فأحيني، وكما أطعمتهم فأطعمني واسقني، ومرضني لا يحقني عليك قاسفتي، وقد أحاطت بي خطيئاتي فأشفر لي وهب لي علماً يوافق علمك، وحكماً يصادف حكمك، واجعل لي لسان صدق بين عبادك، واجعلني من ورثة جنتك، ونجني من النار بعفوك، وأدخلني الجنة حالاً ومالاً وبرحمتك، وأرني وجه محمد نبيك، وارفع الحجاب فيها بيني وبينك، واجعل مقامي عندك دائماً بين يديك وناظرًا منك إليك، وأسقط الدين عني حتى لا يكون سوء بيني وبينك، واكشف لي عن حقيقة الأمر كشفاً لا طلب بعده لعبدك، مع المزيد المضمون بكرم وعدك، إنك على كل شيء قدير.

يا الله يا عزيز يا حكيم إنك قد أبدت من شئت بما شئت كيف شئت على ما شئت، فأيدنا بنصرك بحرمة أوليائك، ووسع صدورنا لمعرفتك عند ملاقات أعدائك، واجلب لنا من وضيت عنه حتى نخضع له ونذل كما جليلة لمحمد رسولك، واصرف عنا كيد من سخطت عليه كما صرفته عن إبراهيم خليلك؛ وأتنا أجرتنا في الدنيا بالعافية من أسباب النار، ومن ظلم كل جائر جبار، وبسلامة قلوبنا من جميع الأغيار، وبفض لنا الدنيا وحسب لنا الآخرة واجعلنا فيها من الصالحين إنك على كل شيء قدير.

يا الله يا عظيم يا عليم يا برّ يا رحيم، عبدك قد أحاط به خطيئاته، وأنت العظيم، وتداني كأنه لم يسمع وأنت السميع، وقد عجزت عن سياسة نفسي وأنت العليم، وأني في برحمتها وأنت البرّ الرحيم، كيف يكون ذنب عظيم مع عظمتك؟ أم كيف تجيب من لم يسألك وتترك من سألك؟ أم كيف أسوس نفسي بالبرّ وضعفي لا يعزب عتك؟ أم كيف أرحمها بشيء وخزائن الرحمة بيديك؟ إلهي، عظمتك ملأت قلوب أوليائك، فصغر لديهم كل شيء، فاملاً قلبي بعظمتك حتى لا يصغر



ولا يعظم لديه شيء، وأسمع ندائى بخصائص اللطف فإنك السميع من كل شيء.  
إلهى، سُرَّ عني مكانى منك حتى عصيتك وأنا فى قبضتك، واجترحت ما اجترحت فكيف لى  
الاعتذار إليك.  
إلهى جذبك لى أطمعنى فيك وحجائى عنك آيسى من غيرك فاقطع حجائى حتى أصل إليك  
واجذبني جذبة لا أرجع بعدها لغيرك.

إلهى، كم من حسنة من لا تحب لا أجر لها، وكم من سيئة من تحب لا وزر لها، فأجعل سيئاتى  
سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتى حسنات من أبغضت فإن كرم الكريم مع السيئات أنم منه مع  
الحسنات، فأشهدنى كرمك على بساط رحمتك، ورضى بقضائك، وصبرنى على طاعتك فيها أجرى  
على من أمرك ونهيك، وأوزعنى شكر نعمتك، وغطى برداء عاقبتك حتى لا أشرك بك غيرك، وأمنن  
على بالقهم عنك إنك على كل شيء قدير.

إلهى، معصيتك نادتنى بالطاعة، وطاعتك نادتنى بالمعصية، ففى أيها أخافك، وفى أيها أترجوك؟ إن  
قلت بالمعصية قابلتى بفضلك، فلم تدع لى خوفاً، وإن قلت بالطاعة قابلتى بعدلك فلم تدع لى  
رجاء، فليت شعري كيف أرى إحسانى مع إحسانك؟ أم كيف أهمل فضلك مع عصيانك.  
قاف جيم سران مع سررك، وكلاهما دالان على غيرك، قبالسر الجامع الدال على لا تدعنى  
لغيرك، إنك على كل شيء قدير.

يا الله يا فتاح يا غفار يا منعم يا هادى يا ناصر يا عزيز، هب لى من نور أسمايك ما أتحقق به  
حقائق ذاتك والفتح لى واغفر لى وأنعم على واهدنى وانصرنى وأعزنى، يا معز لا تدلنى بتدبير مالك،  
ولا تشغلنى عنك يا لك، فالكل كلك، والأمر أمرك، والسر سررك، عدى وجودى، ووجودى عدى،  
فالخلق حقك، والجعل يجعلك، ولا إله غيرك، وأنت الله الحق المبین.

يا عالم السر وأخفى، يا ذا الكرم والوفاء، علمك قد أحاط بهيدك؛ وقد شفى فى طلبك؛ فكيف  
لا يسقى من طلب غيرك؛ تطلعت فى حتى علمت أن طلبى لك جهل؛ وطلبى لغيرك كفر؛ فأجرتنى  
من الجهل؛ وأعصمتنى من الكفر؛ يا قريب أنت القريب وأنا البعيد؛ قريبك آيسى من غيرك؛  
وبعدى عنك ردى للطلب لك؛ فكن لى بفضلك حتى تحو طلبى بطلبك، يا قوى يا عزيز إنك على  
كل شيء قدير.

اللهم لا تمدبنا بإرادتنا، وحب شهواتنا، فنشغل أو نحجب أو نفرح بوجود مرادنا، أو نحزن أو  
نسخط أو نسلّم تسليم النفاق عند الفقد، وأنت أعلم بقلوبنا، فأرحمنا بالنعيم الأكبر، والمزيد  
الأفضل، والفوز الأكمل، وغيبنا وغيب عنا كل شيء، وأشهدنا إياك بالإشهاد، وانصرتنا فى الحياة  
الدنيا ويوم يقوم الأشهداد.

يا الله يا قدير يا مريد يا عزيز يا حكيم يا حميد، إنا نسألك بالقدرّة العظمى، وبالشيئة العليا،  
وبالآيات والأسماء كلها، وبهذا العظيم منها أن تسخر لنا هذا البحر وكل بحر هو لك فى الأرض  
والسماء، والملك والملوك، كما سخرت البحر لموسى، وسخرت النار لإبراهيم، وسخرت الجبال  
والشديد لداود، وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان، وسخر لنا كل شيء يا من بيده ملكوت  
كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، يا على يا عظيم، يا حلیم يا علیم، احون قاف آدم حم هام آمين  
! هـ.

## وهذا حزب النور للشيخ الولي الصالح سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.  
يا الله، يا نور باحق يامين، افتح قلبي بتورك، وعلمني من علمك، وفهمني عنك، وأسمعني منك،  
وبصرني بك، وأقمني بشهودك، وعرفني الطريق إليك، وهونها علي بفضلك، وألبسني التقوى منك،  
إنك على كل شيء قدير.

اللهم اذكرني، وذكرني، وتب علي واغفر لي مغفرة أنسى بها كل شيء سواك، وهب لي تقواك،  
واجعلني ممن يحبك ويخشاك، واجعل لي من كل همٍّ وغمٍّ وضيقٍ، وهوى وشهوة، وخطرة، وفكرة،  
وإرادة، ومن كل قضاء، وأمر، فرجاً ومخرجاً.

أحاط علمك بجميع المعلومات، وعلت قدرتك على جميع المقدورات، وجئت إرادتك أن يوافقها  
أو يخالفها شيء من الكائنات.

حسبي الله، وأنا بربي، بما سوى الله.

الله لا إله إلا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم.

لا إله إلا الله: نور عرش الله.

لا إله إلا الله: نور لوح الله.

لا إله إلا الله: نور قلم الله.

لا إله إلا الله: نور رسول الله.

لا إله إلا الله: نور سر ذات رسول الله.

لا إله إلا الله: آدم خليفة الله.

لا إله إلا الله: نوح نجى الله.

لا إله إلا الله: إبراهيم خليل الله.

لا إله إلا الله: موسى كلم الله.

لا إله إلا الله: عيسى روح الله.

لا إله إلا الله: محمد حبيب الله.

لا إله إلا الله: الأنبياء خاصة الله.

لا إله إلا الله: الأولياء أنصار الله.

لا إله إلا الله: الرب الإله، الملك الحق المبین، خالق كل شيء، وهو الواحد القهار، رب  
السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار.

لا إله إلا الله العلي العظيم.

لا إله إلا الله الحليم الكريم.

سيحان رب السموات السبع ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين.

باسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

حسبي الله، آمنت بالله، رضيت بالله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أتوب إليك بك منك إليك، ولولا ما شئت ما نيت إليك، فأمح من قلبي بحبة غيرك واحفظ جوارحي من مخالفة أمرك.

وتالله لئن لم ترعني بعينك، وتحفظني بقدرتك؛ لأهلكن نفسي، ولأهلكن أمة من خلقك ثم لا يعود ضرر ذلك إلا على عبدك.

أعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وبك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، بل أنت أجل من أن أتني عليك، وإنما هي أراض تدل على كرمك قد منحتها لنا على لسان رسولك، لتعبدك بها على أقدارنا لا على قدرك، فهل جزاء الإحسان الأول الكامل إلا الإحسان منك؟

يا من به ومنه وإليه يعود كل شيء أسألك بحرمة الأستاذ، بل بحرمة النبي الهادي، بل بحرمة السبعين والثمانية بل بحرمة أسرار مامتك إلى محمد النبي الأمي، بل بحرمة سيدة آي القرآن من كلامك، بل بحرمة السبع المثاني والقرآن العظيم، بل بحرمة كتبك المنزل، بل بحرمة الاسم الأعظم الذي لا يضرب معه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم بل بحرمة قل هو الله أحد الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، اكفني كل غفلة، وشهوة ومعضية، فيما تقدم وقياً تأخر واكفني كل طالب يظلمني بالحق وغير الحق في الدنيا والآخرة، فإنه لك الحجة البالغة، وأنت على كل شيء قدير واكفني هم الرزق، وخوف الخلق، واسلك في سبيل الصديق، وانصرفي بالحق، واكفني كل هم وغم ودون الجنة، واكفنا كل عذاب من فوقنا، أو من تحت أرجلنا، أو يليسنا شيئاً، أو يذيق بعضنا بأس بعض، واكفنا شر ما تعلق به علمك مما كان ويكون، إنك على كل شيء قدير.

سيحان الملك الخلاق سيحان الخلاق الرزاق سيحان الله عما يصفونه، عالم الغيب والشهادة، فتعالى عما يشركون، سيحان ذي العزة والجبروت، سيحان ذي القدرة والملكوت، سيحان من يحيي ويميت، سيحان الحق الذي لا يموت، سيحان القائم القادر، سيحان القاهر، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، سيحان القائم الدائم.

قل: حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون.

أعوذ بالله من جهد البلاء، ومن سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن شناعة الأعداء، وأعوذ بالله: ربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

يا من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه: أنصرف بالخوف منك والتوكل عليك، حتى لا أخاف غيرك، ولا أرجو غيرك ولا أعبد شيئاً سواك.

أشهد أنك على كل شيء قدير، وأنت قد أحطت بكل شيء علماً.

نسألك بهذا الأمر الذي هو أصل الموجودات، وإليه المبدأ والمنتهى، وإليه غاية الغايات: أن

تسخر لنا هذا البحر: بحر الدنيا وما فيه ومن فيه، كما سخرت البحر لموسى، وسخرت النار لإبراهيم، وسخرت الجبال وأعقيد لداود وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان. وسخر لي كل بحر، وسخر لي كل جبل، وسخر لي كل حديد، وسخر لي كل ريح، وسخر لي كل شيطان من الجن والإنس، وسخر لي نفسى، وسخر لي كل شيء، يامن بيده ملكوت كل شيء، وانصرفى باليقين وأيدنى بالروح الأمين.

صدق الله وعده، وقصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى، تنزيلاً عن خلق الأرض والسموات العلا، الرحمن على العرش استوى، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى.

الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، نسألك بهذا الاسم العظيم الذى حفظت به أوليائك الكرام، إنك أنت الملك العلام، أن تجعلنى بالأسوة الحسنة التى كانت فى إبراهيم عليه السلام والذين معه إذ قالوا لقومهم: إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده.

جل رب أن يوجد بشيء أو يفقد بشيء، إنه لن يضر معه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وهو السميع العليم.

## حزب الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.  
الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهْدِنَا الصِّرَاطَ  
المُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ آمِينَ.  
الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا  
الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء  
وسيع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظها وهو العلي العظيم.

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين  
أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها  
ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن تسبنا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما  
حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا  
فانصرنا على الكافرين.

ألم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما به يديه وأنزل التوراة  
والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله  
عزیز ذو انتقام، إن الله لا يفتي عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي يصوركم في الأرحام  
كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء  
بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، توفج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من  
الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب.

الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو مطعمي ويسقيني وإذا مرضت فهو يشفيني، والذي يميتني ثم  
يحييني، والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين، رب هب لي حكماً وألهمني بالصالحين، واجعل لي  
لسان صدق في الآخريين، واجعلني من ورثة جنة النعيم، واغفر لأبي إنه كان من الضالين، ولا تحزني  
يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت  
الجحيم للغاوين.

سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، له ملك السموات والأرض يحيي ويميت  
وهو على كل شيء قدير، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، هو الذي خلق  
السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها  
وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير، له ملك

السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور. يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور.

هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم. والضحي والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى، ولآخره خير لك من الأولى، وسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث.

ألم تشرح لك صدرك، ووضعتنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك، ورقعتنا لك ذكرك، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً، فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب.

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم، الثابتون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين.

قد أفصح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لقروضهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.

إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً.

إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشرُّ جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً، إلا المصلين، الذين هم على صلاتهم دائمون، والذين في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم، والذين يصدقون بيوم الدين، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، إن عذاب ربهم غير مأمون، والذين هم لقروضهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم بشهاداتهم قائمون، والذين هم على صلاتهم يحافظون، أولئك في جنات مكرمون.

اللهم إنا نسألك صحة الخوف، وغلبة الشوق، وثبات العلم، ودوام الفكر ونسألك سر الأسرار المانع من الإصرار حتى لا يكون لنا مع الذنب أو العيب قرار، واجتنبنا واهدنا إلى العمل بهذه الكلمات التي بسطتها لنا على لسان رسولك، وابتليت بين إبراهيم خليلك فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن خزيق قال لا ينال عهدي الظالمين.

فاجعلنا من المحسنين من ذريته ومن ذرية آدم ونوح، واسلك بنا سبيل أئمة المتقين.  
باسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وعلى الله فليتكلم المتوكلون.  
حسبى الله، آمنت بالله، رضيت بالله، توكلت على الله، لا قوة إلا بالله. أشهد أن لا إله إلا الله  
وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

رب اغفر لى وللمؤمنين والمؤمنات، والحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين،  
إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم  
ولا الضالين.

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.  
رب إني ظلمت نفسى ظلماً كبيراً فاغفر لى وتب عني، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من  
الظالمين.

يا الله يا على يا عظيم، يا حلیم يا علیم، يا سمیع يا بصیر، يا مرید، يا قدير، يا حق، يا قيوم،  
يا رحمن يا رحيم، يا من هو هو، يا هو، يا أول يا آخر، يا ظاهر يا باطن، تبارك اسم ربك ذى  
الجلال والإكرام.

اللهم صلنى باسمك العظيم الذى لا يضر معه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهب لى منه سرّاً  
لا تقصر معه الذنوب شيئاً، وأجعل لى منه وجهاً تقضى به الخوائج للقلب والعقل والروح، والسرّ  
والنفس والبدن، ووجهاً ترفع به الخوائج من القلب والعقل، والسرّ والروح، والبدن والنفس، وأدرج  
أسمائى تحت أسمائك، وصفائى تحت صفاتك، وأفعالى تحت أفعالك، درج السلامة؛ وإسقاط الملامة،  
وتنزل الكرامة، وظهور الإمامة، وكمل لى ما ابتليت به أئمة الهدى من كلماتك وأغنى حتى تغنى لى،  
وأحقيق حتى تحيى لى ما شئت ومن شئت من عبادك، واجعلنى خزانة الأربعين، ومن خلاصة المتقين،  
واغفر لى فإنه لا ينال عهدك الظالمين.

طس؛ حم عسق؛ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان.  
الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا  
الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

تم الحزب بحمد الله

## خاتمة

وأما الخاتمة:

فكنت منذ عشر سنين وأنا بالقاهرة بجامع الحاكم آتى إلى الولي أبي عبد الله الحكيم المرسى، وكان الحكيم هذا يعلّم الشيخ ويحييه، فقال لي: كنت في سفينة فذكرتك فنسيتك بعض من كان فيها إلى بعض المشايخ، فقلت أنا: إنما هو من أصحاب شيخنا أبي العباس المرسى رضى الله عنه، فإن كان الأمر كما قلت لم فكتب في ذلك بخطك، فكتبت له في ذلك الوقت ما أنا أذكره إن شاء الله تعالى، وهذا الكتاب لما كان موضوعاً لمناقب الشيخ أبي العباس المرسى رضى الله عنه، وهذه اللامعة سواراً لزند هذا الكتاب، وباقوة نختم بها عقد هذه الأبواب، ويتبع ذلك وصية كتبت بها إلى إخواننا بالإسكندرية وأنا إذ ذاك بالقاهرة مستهل ربيع الأول الذى هو من سنة أربع وتسعين وستمائة، ثم بعد ذلك قصيدة تضمنت وصايا ومطالبات من الحق تعالى لعبده محتتمة بمدح رسول الله ﷺ، وبها نختم الكتاب إن شاء الله تعالى جعل الله ذلك كله لوجهه الكريم بفضل.

وهذه اللامعة المنيرة والدرة الخطيرة هي القسم الأول من الخاتمة:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.  
أما بعد: حمداً لله الواجب حمده، الثابتة علياؤه وبجده، الباهرة آياته، الظاهرة دلالاته، الذى أشرق نوره في قلوب أوليائه فاستنارت به سموات أرواحهم، وأرض نفوسهم وأشباههم، الله نور السموات والأرض، نور سموات الأرواح بمشاهدته، ونور أرض النفوس بطاعته وخدمته، وجعل قلوبهم بجلازة لذاته، ولظهور صفاته، أظهرهم ليظهر فيهم خصوصاً، وهو الظاهر في كل شيء عمومًا، ظهر فيهم بأسراره وأنواره، كما ظهر فيهم وفيما عداهم بقوته واقتداره، ألسنتهم يذكره لمجته، وقلوبهم بنوره بهجته، إن نطقوا فعنه وإن استمعوا فعنه، فكم من لواء ولاية يخفق عليهم، وكم من منشور خلافة قد خرج إليهم، أدخلهم إليه مدخل صدق بالفناء عن سواه، وأخرجهم للخليفة مخرج صدق، باقين بنوره وستاره، فهم برازخ الأنوار ومعادن الأسرار، وصلهم لما قطعهم وفرقهم لما جمعهم، وغيبهم عنهم وعلى أسرارهم أطلعهم، فلو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لوسمهم، ولا عجب من اتساع أنوارهم، ولا من إحاطة أسرارهم، فإن نور قلوبهم من نور الله، قال ﷺ:

«انصروا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»<sup>(١)</sup>.

وأما إحاطة أسرارهم فلقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِعُونَ اللَّهَ يَمَارِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

فلهم على قدر إربهم من نبيهم صلوات الله وسلامه عليه التحق بمقام الفردانية، والدخول إلى حضرة الوحدة.

(٢) الفتح: ٦٠

(١) واه البحارى في التايخ والترمذى وابن جرير



وسمعت ربهكم الله أن ودكم على اختلاف مراتبه عندنا مسبار، ولدنا اعتباره، فيميل القلب إليك على حسب ميلك إليه، وإن تزدد من المدد على يد عبد بحسب ما تزيد من الوُد فيه، كذلك ربة الإله الحكيم والقادر العليم.

وبالجملة، فأعيان المطلوبات من الأدب الباطن وامتنال الأمر الظاهر لا تحصرها الوصايا إلا إجمالاً، ويشمل جميع ذلك التقوى، قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ (٣).

والوفاء بالعهد: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آؤُفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (٤).

والتوبة قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ (٥).

والإفابة والاستسلام قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ﴾ (٦).

والاستجابة قال الله سبحانه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ (٧).

والاتباع لرسول الله ﷺ قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٨).

وشهود كل نعمة من الله قال الله سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (٩).

وشهود الهدى من الله قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (١٠).

لا جعل الله ما نقوله وما نسمعه حجة علينا، وجعلنا وإياكم من العباد المهتدين بحجة، الباقي على وده، المنعمين بقربه وأفرغ علينا وعليكم من نور عنايته، وجعلنا من أهل ولايته بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وأزواجه وسلم تسليماً كثيراً. وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه ينشد:

وغيثي لي مغيث قلبي وغشيت كبا غيئي  
وكننا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا

والمظهر الأعلى، والبرزخ الأسنى، ومشرق الأنوار، ومعدن الأسرار، من له الفتح والختام، الحائز للمقامات العلية بالتمام، رسول رب العالمين وسيد الأولين والآخرين محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين، فهو نور الأنوار وسر الأسرار، إليه تنزل الأسرار الربانية، وعنه تؤخذ المعارف الإلهية، أخذ أهل الظاهر عنه ظاهريهم، وأخذ أهل الباطن منه باطنهم، وقال ﷺ: العلياء وربة الأنبياء (١١)، فكل على قدر إرنه، وإرنه على قدر نوره، ونوره على قدر فتحه، وفتحته على قدر صفاء قلبه، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربه، ومعرفته بربه على حسب ما سبق له من وجود حبه، غير أن علياء الباطن أحق بالإرث وأولى، وأقر تسمية أعلى، لأن علمهم تلميزه الخشعية، وتكتنفه العظمة، وحقيقة

(٧) التورى. ٤٧

(٨) آل عمران. ٣١

(٩) النحل. ٥٣

(١٠) الأعراف. ٤٣

(٣) النساء. ٩

(٤) المائدة. ٦

(٥) البقرة. ٣٦

(٦) الزمر. ٥٤

(١١) رواه أحمد وأبو داود الترمذى وآخرون عن أبي الدرداء خرفوعاً وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما

الإرث أن ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث على الصفة التي كان بها عند الموروث عنه. فكل صاحب علم لا تصحبه خشية فليس بأهل لأن يكون وارثاً، وقال عليه السلام: «العلماء وربة الأنبياء» أى العلم بالله لأن العلم بالله يورث الخشية له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١٧).

ولم تزل بسلسلة الصلاح والشهادة والولاية والصدقية والقطبانية تمتد من ذلك البرزخ الأعلى المحيط صلوات الله وسلامه عليه إلى وقتنا هذا، ولن تزال كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (١٧) أى ما نذهب بولى إلا ونأتى بخير منه أو مثله.

وكل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو في هذا الباب لقيط لا أب له، دعى لا نسب له، فإن يكن له تور فالغالب غلبة الحمال عليه، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه، لم ترضه سياسة التأديب والتهذيب، ولم يقده زمام التربية والتدريب. وشيخنا وإمامنا وقودتنا في هذا الشأن أوجد وقته، وعلامة زمنه، علم العارفين، قطب المهديين، مظهر سناء الحقيقة، ومبين معالم الطريقة، العالم بالأسماء والخروف والدوائر، الجامع لعلم الظواهر والسرائر، سيدنا ومولانا شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى الشاذلى قدس الله روحه، وتورضه، هو الذى اقتنينا من أنواره، وسلكتنا على نهج أناره، وهو الذى أسرع بأسرارنا حتى لحقت، وفتق السنننا حتى نطق غرس غراس المعرفة في قلوبنا فأبنت ثمراتها، وفاحت زهراتها.

وهو الذى بفضل الله وعدنا، وبالكلام في العلمين أشار لنا، لا ننسب إلا إليه ولا نعتد في هذا الشأن إلا عليه، فمن تسبنا إلى غيره فهو بأمرنا جاهل، أو عارف متجاهل، ومن نسب تلميذاً إلى غير أستاذه فهو كمن نسب ولداً إلى غير أبيه، وهذه الآية أحق أن يرعى نسبها، وأجدر أن يحفظ سببها، إذ تلك الآية تقتصر إلى هذه، وهذه لا تقتصر إلى تلك.

وليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه.

وليس شيخك من واجهتك عبارته، إنما شيخك الذى سرت فيك إشارته.

وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك الذى رفع بينك وبينه الحجاب.

وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك الذى نهضك حاله.

شيخك هو الذى أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى.

شيخك هو الذى مازال يحلو مرة قلبك، حتى تحيلت فيها أنوار ربك، نهضك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ومازال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه، فزج بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وربك، هنالك محل الولاية من الله ومواطن الإمداد من الله وبساط التلقى من الله، ثم إن

شاء أبقاه في بحر الفناء غريقاً، وإن شاء أرجعه إلى ساحل البقاء تحفظاً وتحقيقاً.  
فصاحب الفناء له التلقّي من الله، وصاحب البقاء له الإلقاء عنه.  
وصاحب البقاء يتوب عن الله، وصاحب الفناء يتوب الله عنه.  
وصاحب الفناء قد طمست دائرة حسّه، وانفتحت حضرة قدسه، وصاحب البقاء يأن بربه في حضرة قدسه.

وصاحب الفناء مدعو إلى الله، وصاحب البقاء داع إلى الله، وهو محل الخلاقة والنيابة مع الإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين داع إلى الله على بصيرة من الله، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتُ﴾ (١٤). أى على معاينة ومطالعة ومشاهدة، لا أدعو إليك وأنا غائب عنك، بل أدعو إليك وأنا ناظر إليك.

وهذا الطريق طريق الأنبياء والمرسلين، وأكابر الصديقين، وهى المقام الأكمل، والمنهج الأفضل، فمن نسبنا إلى غير هذا الإمام مع العلم بنسبتنا فهو مكابر ومعاذ، ومن نسبنا إلى غيره مع الجهل بنسبتنا أيضاً فهو عن سبيل الرشاد حائد، مخالف لأمر ربه، غير مراقب لقلبه.  
أم تسمع إلى ما قال المولى سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عِنْدَ مُسْتَوَلٍّ﴾ (١٥).

فالله سبحانه (١٦) يحقق نسبنا من هذه الطائفة، وأن يتوقانا على محبتهم، وأن يجعلنا دارجين على مدرجتهم، وأن يزيدنا فيهم رداءً ولا يجعلنا ممن نقض لهم عهداً، عنه ولطفه.  
والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وإمام المتقين، محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.  
وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١٤) يوسف: ١٠٨.

(١٥) الإسراء: ٣٦.

(١٦) لعل النص هنا «فالله سبحانه وتعالى نسأل أن يحقق» دليل ما بعده

## وأما الوصية المكتوب بها إلى بعض إخواننا بالإسكندرية فهي هذه

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.  
سلام الله ورحمته وبركاته على الإخوان المحبين، والأوداء المحبوبين، حفظهم الله وتوكلهم،  
وحرسهم ورعاهم، وأوسع عليهم من فضله، وأفرغ عليهم من عطائه وبذله، وأحل قلوبهم محل  
المؤانسة والتفهم، والمفاخرة والتكريم، ورزقهم الطاعة والقبول، والسير إلى الله والوصول، والإذن  
من الله والدخول، وقُدس أرواحهم، وفسح في غيبه مراحمهم، وبت لهم من نوره ما يكون لهم هادياً،  
وأعطاهم من حفظه ما يكون لهم من أغيار الدنيا والآخرة وأتقياً.

اعلموا رحمكم الله أن العناية الإلهية وإن كانت غيباً فلها شهادة تدل عليها، ودلالة تهدي إليها،  
فتلصحوا عناية الله فيكم يوفقكم على حدوده، ورعايتكم لعهوده، ألا وإن من علامة محبة الله للعبد  
محبة العبد إياه، ومن علامة محبة العبد لله، أن لا يؤثر عليه شيئاً سواه، ومن علامة عدم الإيثار على  
الله النظر إلى الدنيا بعين الاحتقار، وإلى الأكوان ببصر الاعتبار.

والسعيد من أعطاه الله قلباً مفكراً، وبصراً معتبراً، وأذناً تسمع من الله، ونفساً ناشطة إلى خدمة  
الله، وأحق ما يقتضيه العباد من حقوق الله سبحانه الشكر له، والشكر له ظاهر وباطن، فظاهره  
الموافقة وباطنه شهود النعمة، فما شكره من لم يمثل أوامره وحدوده، وما حفظه من ضيع عهوده،  
فعليكم رحمكم الله بالشكر لنعمه فيكم.

ألا إن أرباب الغفلة والعمى يطلبون من الله مجتدات النعم وهم لما أعطاهم غير شاكرين، وكيف  
يجدد عليك نعمة أتت طالبها وقد ضيعت شكر طلبتك حتى وصلت إليك، فالطالب لنعم الله  
أولى ما يطلب به الشكر لله، والشكر يطلب لك من المشكور، وإن كنت صامتاً، ويستجدي لك من  
شكرته وإن كنت عن الطلب ساكناً، وقد ضمن الله المزيد للشاكرين وما استثنى، فقال عز من  
قائل: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ (١).

فإذا كان قد ضمن لهم الزيادة على ما أعطاهم، فكيف لا يديم لهم ما كان منحهم أولاً، ألا إن  
من أحب بقاء شيء عنده قبله بعقله، خيفة زواله، فقيّدوا نعم الله فيكم بوجود الشكر.  
ويستعان على الشكر بالنظر في أيادي المحسن، وكثرة صناعته، وسوابق مننه ولواحقها، وبداية  
نعمه وخواتمها، فإنك لم ترهم بصر الإيمان إلا وقع على نعمة سابقة، ومئة منه لاحقة.

ويؤكد ذلك عندك نظرك لمعاملتك معه، وشهودك لمعاملته معك، فإنك إن نظرت ما منه إليك لم  
تجد إلا خضلاً وإحساناً، وإن نظرت ما منك إليه لم تجد إلا غفلة وعصياناً.

وأصل الحيرات، وبعدد البركات، العمل بطاعة الله، والتجنب لمعصية الله، وعليكم بتصحيح  
التوبة فإنه ينبت عليها ما بعدها، وتعود بركاتها على ما قبلها، وما من مقام إلا وهو مفتقر إليها،

وما ذكّت الأحوال، ولا قبلت الأعمال، ولا ثبتت مراتب الإنزال، إلّا بتصحيح التوبة، وعمومها يدل على خصوصها.

ألم تسمع إلى قول الله عزّ وجلّ: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾، فعمّ جميع المؤمنين بالخطاب بالتوبة فدل ذلك على عظيم قدرها، ويستعان على التوبة بالفكرة، ويستعان على الفكرة بالخلوة، ويستعان على الخلوة بمعرفة آفات الخلطة.

ومن علامات الوصول إلى الغايات، وجود تصحيح البدايات، ولأن يصحح الله لك مقام التوبة خير لك من أن يطلعك على سبعين ألف غيب ويفقدك إياها.

أذكر الله تعالى بلسانك، وراقبه بقلبك، فإي ورد عليك من الله من خير قبضته، وما ورد عليك من ضده دققته، رجاءاً إلى الله في الدفع والجلب، فإن خامر سرّك شيء من ذنب أو عيب أو نظر إلى عمل صالح أو حال جميل فبادر إلى التوبة والاستغفار من الجميع، أما من الذنب والعيب فواجب شرعاً، وأما من العمل الصالح أو الحال الجميل فآلله.

واعتبر باستغفار الرسول ﷺ بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا في معصوم لم يقترب ذنباً قط، وتقّس عن ذلك ﷺ، فما ظنك بمن لا يخلو من ذنب في وقت من الأوقات!

واعلموا أن الله قد أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات، فأى من فاته من الطاعة صنف أو أعوزه من الموافقة جنس فقد فقد من النور بقدر ذلك فلا تهملوا شيئاً من الطاعات، ولا تستغفروا عن الأوراد بالواردات، ولا ترضوا لأنفسكم بما يرضى به المدّعون من جرى الحقائق على ألسنتهم، واخلو أنوارها من قلوبهم، وإن الحق بحكمته جعل الطاعة الحيارية على العباد مستقرة لياب الغيب، فمن قام بالطاعة والمعاملة بشرط الأدب لم ينجب الغيب عنه.

وإنما حجاب الغيوب، وجود العيوب، فالتطهر من العيب، يفتح لك باب الغيب، فلا تكن ممن يطالب الله لنفسه ولا يطالب نفسه الله، فذلك حال الجاهلين الذين لم يفقهوا عن الله، ولا وأجبههم الحمد من الله.

والمؤمن ليس كذلك، بل المؤمن من يطالب نفسه لربه ولا يطالب ربه لنفسه، فإن توقف الوقت عليه استبطأ أديه، ولا يستبطئ مطلبه.

وإن ملكوت الله لا يؤذن بالدخول فيه إلّا لمن طهر من آفات البشرية، وقام بوفاء العبودية، والتطهر من آفات البشرية، بالتخلق بأخلاق الله، ووجود الفناء عما سوى الله، والتحقق بالعبودية بالامتثال لأوامر الله، والاستسلام لأحكام الله، فإن تصل إلى ذلك، فلك منفسح في الغيب، ومستوطن في الملكوت وواصلك الإمداد وقابلك من الله الأديب.

وتوصل إلى ذلك بإقبال النظر إلى الظواهر ورعايتك السرائر، وأنه لا يسفى السرائر رهان الظواهر، إلّا أن يكون معها خالص حبّ يباشر القلوب وإتراق نور يذهب بظلمة الذنوب، وإنما طال عليهم الطريق لأنهم لم يسلكوها على منهج حق، ولم يدخلوها فيها مدخل صدق، ولو أنهم فعلوا لم تنحب عنهم المطالب، وكان ما يطلبونه لهم طالب.

## بيان واعتبار وإشراق أنوار

لا تتفقد الوقت بظهور الواردات، ولا يكثر الطاعات، ولكن انظر إلى ثقتك بالله، وإجلالك لأوامر الله، وترك الاختيار مع الله، فإن وجدت ذلك عندك ولا يوجد واحد منها إلا وجد بقيتها فاعلم أن الله بك عناية أبداها، وودائع أخفائها، وأشكره على ما أسدى، واحمد على ما أهدى، واعلموا رحمكم الله أن وذككم على اختلاف مراتبه عندنا مسباره، ولدينا اعتباره، فميل القلب إليك على حسب ميلك إليه، ولن يزد من المدد لعبد على يد عبد إلا بحسب ما يزيد من الوعد فيه، كذلك رتبته الإله الحكيم، والقادر العليم.

وبالجملة فأعيان المطلوبات من الأدب الباطن وامتنال الأمر الظاهر لا تحصرها الرصايا إلا إجمالاً، ويشمل جميع ذلك التقوى، قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ والوفاء بالعهد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ والتوبة قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ والإنابة والاستسلام قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ﴾ والاستجابة لله قال الله عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ والاتباع لرسوله ﷺ قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وشهود كل نعمة من الله قال الله جل ذكره ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ وشهود الهدى من الله قال الله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لَنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ لا جعل الله ما نقوله وما نسمعه حجة علينا، وجعلنا وإياكم من العباد المهتدين الدائمين على حبه، الياقين على وده، المتعفين بقربه، وأفرغ علينا وعليكم من نور عنايته<sup>(١)</sup>، وجعلنا من أهل ولايته، بينه وكرمه آمين.

والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا ومولانا محمد نبيه وحبيبه وعبيده كثيرًا.  
وهذه القصيدة الموعود بها:

فلا والله ما طابت حياة	سوى بالقرب من كنف الحبيب
فلا تقتر سوى داراً لسعدى	وعد عن الأجارع والكثيب
وما لاقى الأحبة مثل بعد	تفتت من حبات القلوب
ومن يعشق معصرة شروداً	فلا يسأم مقاساة الكروب
ودونك فاستبق نحو المآل	ولا ترضى بسدون من نصيب
ولا تقنع بغير العز مرقى	وسدد نحوه سهم المصيب
وأتهض همة إن لم تثرها	أقمت بموطن النكس الكثيب
ولا تبتس وإن طالت ليال	فكم شمس بدت بعد الغروب
ولا تسأم من التذآب يوماً	فلن العز في ذاك الدروب

(١) تكرر من أول قوله: وبالجملة فأعيان المطلوبات في اللمعة الثمينة والذرة الحظيرة، وفي وصيته للإخوان بالإسكندرية، ولا مانع من تكراره في كليهما

فذاك الفتح في نظر الأريب  
 فنعم السرب من مولى مجيب  
 فليس لغيره كشف الكروب  
 فتقطع عنك نقصات الغيوب  
 تجلت فيك عن فرج قريب  
 فإن الله غفار الذنوب  
 فتحرم رتبة الرجل اللبيب  
 وكم لله من سر غريب  
 وتنع عنك موفور النصيب  
 ويظهرو عن مراقبة الرقيب  
 أحاط به قعبيك من عجب  
 فتخشى قهر علّام الغيوب  
 مهين إن بدع نهج الأريب  
 ألم يخرجك من غم الكروب  
 وعزّقه التناول للنصيب  
 وأعطاه مودات السقوب  
 يسائر به إلى وقت الشيب  
 إلى أن يرتدى ثوب الأريب  
 من الرحمن ينذر من قريب  
 ودأب كان في غيب الغيوب  
 ولا تمنح إلى مرأى قنص  
 ويوم «الشف» فاذكر يا حبيب  
 وحفظ العهد من شيم اللبيب  
 ونقطة دارة الأمر الغريب  
 وأستر ذاك بالأمر العجيب  
 فليتك لو أجيبت لمسحجيب  
 لحضرتنا وتعمل في الدُّوب  
 وهيبته تفلقل للسقوب  
 من العذب الجنى المستطيب  
 كتوس اللطف من كتف الحبيب  
 عروس الحسن تجلّ للبيب  
 إذا ألقيت سمعك من قريب  
 ترى الأسرار تسرع للقريب

ولا تحزن إذا ما فسات فان  
 ولا ترضى بغير الله ذخراً  
 ولا تشكسو لغير الله ضراً  
 ولا تسكن لغير الله يوماً  
 فكم من كربة عظمت وجلّت  
 ولا يمنعك ذنب من رجاء  
 ولا تحزن إذا ما ضاق عيش  
 وكم لطف خفى في كفاف  
 وكم من محنة في اليس تردى  
 ولايس حالة للوفر يزهر  
 يجهله البقي وصف انتصار  
 ألم تعلم بأن الله غرد  
 ألم يتلقه من ماء مهين  
 ألم يودعه في الأحرام دهرًا  
 ألم يجرى له القدين رزقًا  
 ألم يتم عليه بهد لطف  
 وهذا الهدئس له برّاح  
 وأسقط عنه تكليفًا وأسرًا  
 فحين أتى البلوغ أتى بلاغ  
 رضيع اللطف لا تنسى ودادى  
 ريشة فضلنا والجسد أسرع  
 لطيفة كوننا لا تنس عهدي  
 وقد أعطيتني عهدًا وتيقًا  
 ألم أجعلك سرًا في وجودى  
 ألم أظهر صفاتك فيك جهراً  
 ألم يأتك إرسالي وأمرى  
 أتاك كلائنا لتجد سيرا  
 كلام ليس يشبهه كلام  
 لطائفه على الأسرار أحلى  
 إذا تليت ميانيمه أديرت  
 وآية آية تليت قراها  
 وأنوار وأسرار تسراها  
 إذا ناديت كلا يساعدا

وليس إيجابتي قولاً ولكن  
وقد أرسلت خير الخلق طراً  
أق بالنتيج المختار يدعو  
أق والأرض قد ملئت ظلاماً  
فكشفت ظلمة كانت وظلماً  
وخصّصه الإله بكل فضل  
وقال: ومن يُطعم خير البرايا  
وفيه قال لنا يساعوه  
أزال الكاف كاف ذاك كاف  
هو السباق غايات المعالي  
وإن القول يقصر عن علاه  
فصل ربنا أبداً عليه  
على آل النبي وكلّ صحب  
فهم خير القرون ومن هدانا  
وأحد ليس يرجو في معاد  
ووالسده محمد فاعف عنه  
وعبدك يا كريم فجدّ عليه  
عطاء الله والسده أبحه  
على الإسلام فافضنى سليماً  
كذلك جميع من واليت فيكم

يسئل الجهد في طوع الحبيب  
ليمحسو نورهُ ربّ القلوب  
إلى الرحمن بالسّر الغريب  
وكل الخلق في أمر مسريه  
بشمس هدى تنزه عن غروب  
وأعطاء مودات القلوب  
يطغى هكذا فعل الحبيب  
فخار بأن للفطن الأريب  
وحسبك منه من سر عجب  
هو الكشف أزمان الكروب  
كفاه ثناء علّام الغيوب  
وسلم في الصباح وفي الغروب  
صلاة لا تقل من الدعوب  
بهم ربّ العباد من الذنوب  
سوى جاء النبي لذى الكروب  
وداركه بلطف من قريب  
وسلفه إلى أوق نصيب  
منالاً منك ستار العيوب  
من الآفات بمحو الذنوب  
ووالاني بإجزال النصيب

وهذا آخر الكتاب، والحمد لله رب العالمين،  
وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً إلى  
يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، اهـ.



## محتويات الكتاب

صفحة	
٧	مقدمة المحقق
١٦	مناجساة
١٩	كتاب لطائف المتن لأبي العباس المرسى
٢١	مقدمة المؤلف
٢١	الولاية «بحسب للمحقق»
٢٨	متهج المؤلف في الكتاب
٢٩	حديث الشفاعة
٣١	الإيمان يزيد وينقص
٣٢	الأنبياء خلقوا من الرحمة ومحمد ﷺ عن الرحمة
٣٤	إعلام وبيان
٣٩	سأن الولاية والولي
٤١	مقابلة الحق لمن أدى أولياءه
٤٦	انعطاف : الولاية ولايتان : ولي يتولى الله ، وولي يتولاه الله
٤٧	قواتد في قوله تعالى ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ الفائدة الأولى والثانية والثالثة
٤٨	الفائدة الرابعة
٤٩	الفائدة الخامسة
٤٩	الولاية الثانية : ولاية الإيمان
٥١	حقيقة العرب
٥٢	تأويل حديث «من عرف نفسه عرف ربه»
	بحسب للمحقق حول برهنة الرسول على صدقه ومجدي العرب بصدقه
٥٣	دون الخنوح إلى إنبات وجود الله سبحانه
٥٤	الداعى إلى الله يكسوه الله كسوتين : الحلالة والبهاء
٥٧	مراتب الحب : لله وفي الله وبالله ومن الله
٥٨	الحب لله في عسرة
٦١	سراب المحبة
٦٢	بحسب للمحقق في المحبة
٦٣	انعطاف : من مواهب الله لأوليائه
٦٦	فصل : في كرامات الأولياء
٦٧	بحسب للمحقق في الكرامة

٦٩	أمور تسهل الإيمان بالكرامة .....
٧١	سوء خاتمة من ينكر الكرامات .....
٧٢	الكرامة تظهر للولي وتظهر لغيره .....
٧٢	الناس في الكرامة على ثلاثة أقسام .....
٧٥	<u>الباب الأول في التعريف بالشيخ الساذل</u> شيخ أبي العباس المرسى .....
٨٧	كرامات القطب خمس عشرة .....
٩١	<u>الباب الثاني في شهادة الشيخ لأبي العباس</u> بأنه الوارف للمقام والحائز لقب السبق بالتتمام .....
٩٩	<u>الباب الثالث في مجربات ومنازلات أبي العباس المرسى</u> .....
١٠٧	<u>الباب الرابع في علمه وزهده وورعه</u> ... إلخ .....
١١٦	قائده : حكم أولياء الله في بدايتهم .....
١٢٥	<u>الباب الخامس في بيانه لبعض الآيات</u> .....
١٣٩	<u>الباب السادس في بيانه لبعض الأحاديث</u> .....
١٤١	في حديث حاربه عشر فوائد .....
١٤٦	في حديث حنظلة سماني فوائد .....
١٥١	<u>الباب السابع في تفسيره</u> لما أسكل من كلام أهل الحقائق .....
١٥٥	<u>الباب الثامن في كلامه في الحقائق والمقامات</u> .....
١٨١	<u>الباب التاسع فيها قاله من الشعر</u> أو قيل يحضرته .....
١٨٩	<u>الباب العاشر في ذكره</u> ودعائه .....
١٩٦	حزب التور لأبي الحسن الساذل .....
١٩٩	حزب الشيخ أبي الحسن الساذل .....
٢٠٢	خاتمة .....
٢٠٦	الوصية إلى الإخوان بالإسكندرية .....
٢٠٨	بيان واعتبار وإسراق أنوار .....
٢٠٨	القصيدة الموعود بها .....
٢١١	محتويات الكتاب .....

١٩٩٩/١٥١٢	رقم الإيداع
ISBN ٣- 977-02-5725-7	الترقيم الدولي

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

طبع بمطابع وزارة المعارف (ج ١٠ ع ٠)





يعد الإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامي والتصوف في العصر الحديث . ولقب بأبي التصوف في العصر الراهن ، فقد أثرى المكتبة العربية بأهميات الكتب بين تحقيق وتأليف وترجمة ، فمنها دراساته القيمة عن الإمام الغزالي وكتابه ، المنقذ من الضلال : : و ، دلائل النبوة : : و ، القرآن في شهر القرآن : إلى جانب ما كتبه عن رواد التصوف على مر العصور الإسلامية المختلفة .

والإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود له عمق وغزارة الآراء الفقهية ودقة الاجتهادات لما جعله يكسب صفوق المعارضين قبل المؤيدين ، إلى جانب اللياقة والدراية الكاملة في عرض أى موضوع أو مسألة تتعلق بأمر الدين ، وأيضاً بامتاز بقوة ورصانة الأسلوب وتعبيرات ، مما يدل على المهارة الفائقة والملكة النغوية فلماذا اكسب هذا العالم الجليل احترام كل القروق والمذاهب الإسلامية في شتى بقاع العالم ، وسيبقى هذا العالم وراثته في قلوبنا على مر العصور .

إلى جانب اللياقة والدراية الكاملة



دار المعارف

...١٧٨/٠١



To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)